

س. تيدور

C.J.TUDOR

رجل الطبشور

THE CHALK MAN

رواية





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

رجل الطبشور

THE CHALK MAN

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Chalk Man
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
MICHAEL JOSEPH an imprint of PENGUIN Random House, UK
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2396-0



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

رجل الطبشور

THE CHALK MAN

س. تيدور

C.J TUDOR

ترجمة

ماجد حامد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

تمهيد

استلقى رأس الفتاة على حفنة صغيرة من أوراق أشجار الخريف المتفاوتة اللون، وحدقت عيناها اللوزيتان إلى قبة من أشجار الدلب والزان والبلوط، ولكنّهما لم تريا خيوط أشعة الشمس التي اخترقت الأغصان، وأضفت على أرض الغابة اللون الذهبي، ولم تطرف عيناها حين مشت الخنافس السود اللامعة على بؤبؤيها، فهما لن تريا شيئاً بعد الآن، سوى الظلمة.

على بُعد مسافة قصيرة، امتدت يدٌ شاحبة من خلال غطاء أوراق الأشجار الصغير وكأنها تطلب المساعدة! أو تبحث عن تأكيد على أنها ليست وحدها، لكنّها لم تجد شيئاً. لقد كان باقي جسدها بعيداً، مخفياً في بقاع معزولة أخرى حول الغابة.

في مكانٍ قريب، انكسر غصنٌ، وأصدر صوت فرقعة، فانطلقت مجموعة من الطيور من بين الأشجار المتشابكة. بدا وكأن أحدهم يقترب.

ركعوا بالقرب من الفتاة الميتة. مسدت أيديهم شعرها بلطف، وداعبت أصابعهم المرتعشة المترقبة خدها البارد. رفعوا الرأس، ونفضوا أوراق الأشجار العالقة بأطراف عنقها الممزق، ووضعوه بحذر داخل كيس ورقي، حيث استقر بين أعقاب طبشور مكسورة.

فكّروا برهة قبل إطباق عينيها وإغلاق الكيس، ثم وقفوا، حملوه وساروا بعيداً.

بعد ساعات عدة، وصل ضباط الشرطة وفريق الطبِّ الشرعيِّ.

رقّموا وصوّروا وفحصوا، وفي النهاية نقلوا جثة الفتاة إلى المشرحة، حيث بقيت لأسابيع تنتظر اكتمالها.

ولكن... لم يُعثر على الرأس رغم كل عمليات البحث المكثف، ورغم بذل خيرة المحققين أقصى جهودهم حتى يكتب للجثة أن تجد رأسها وتكتمل.

2016

في البداية.

المشكلة أن لا اتفاق بيننا على بداية دقيقة.

أكان ذلك عندما حصل غاف السمين على دلوٍ من الطباشير هدية عيد ميلاده؟ أو عندما بدأنا نرسم الأشكال بالطباشير، أو عندما بدأت تظهر من تلقاء نفسها؟ هل كانت البداية من الحادث الرهيب؟ أو عند العثور على الجثة الأولى؟

أعتقد أنّ آيّاً مما سبق يمكنكم اعتباره بداية. في الحقيقة، أعتقد أنّ كلّ شيء بدأ في يوم المعرض. اليوم الذي أذكره أكثر من غيره، بسبب فتاة والتزر ولأنّه اليوم الذي توقف فيه كل شيء عن طبيعته.

لو أنّ عالمنا كرة زجاجية مملوءة بذراتٍ من الثّلج، وجاء اليوم الذي تدخّل فيه إله ما فهزّ الكرة بقوة إلى أن اختلط ما بداخلها، ووضعها أرضاً مرةً أخرى. عندما تستقرُّ الرغوة وذرات الثلج، لن تعود الأمور -كلياً- كسابق عهدها. قد لا توحي بتغيير للناظر من الخارج، ولكن في الداخل... كل شيء سيكون مختلفاً.

في ذاك اليوم، رأيت أيضاً السيد هالوران للمرة الأولى. كانت بداية جيدة مثلَ أيٍّ بداية أخرى.

1986

"سيكون الطقس عاصفاً اليوم، إيدي".

والدي مولعٌ بالتنبؤ بالطقس. يتنبأ بصوتٍ عالٍ، واثق، ومختصر، وبيقين مطلق، رغم أنّه في أغلب الأحيان يكون على خطأ.

نظرتُ خارج النافذة إلى السماء الزرقاء الصافية، التي تحلت بزرقة مشعة، حتى أنك يجب أن تغمض عينيك نصف إغماضة لتراها.

قلت وفمي مليء بقضمة كبيرة من شطيرة الجبنة: "لا يبدو أنّ هناك عاصفة يا والدي".

قالت أمي بعد أن دخلت المطبخ فجأة، من غير صوت، وكأنها محاربُ نينجا: "لأنه ما من عاصفة". وأضافت: "ذكرت قناة (بي بي سي) أنّ الجو سيكون حاراً ومشمساً طوال عطلة نهاية الأسبوع... لا تتحدث وأنت تأكل يا إيدي".

قال والدي: "ممم"، وهذا ديدنه حين تعارضه أمي، إذ لا يجرؤ على معارضتها.

لا يجرؤ أحد على معارضة أمي، كانت - وما زالت - مخيفةً بعض الشيء. طويلة، ذات شعر أسود قصير، وعينين بنيتين قد تلمعان بمرح، أو تتحولان إلى اللون الأسود تقريباً حين تغضب، الأمر مشابهٌ لبطل الكتب الهزلية "هالك" المدهش. من الأفضل ألا تثير غضبها.

كانت طبيبة غير عادية تخيط جراح الناس، وتعطي الحقن لمعالجة الأمراض. أخبرني أبي ذات مرة أنّها "تساعد النساء الواقعات في مشاكل". لم يقل أي نوع من المشاكل، وتوقعت أن تكون مشاكل خطيرة إن كانت بحاجةٍ إلى طبيب. فلا يخفى على أي كان دور طبيبات النساء، فهن إضافة إلى أعمالهن الاعتيادية يؤدين دورة المرشدات للنساء حديثات الزواج، وللأمهات حديثات

العهد بالأمومة، ودور الناصحات للنساء الخاطئات إجتماعياً، فالطبابة لا تقتصر على الجسد بل تشمل الروح، وبما أن أمي كانت طبيبة تساعد النساء الواقعات في المشاكل، على حد تعبير أبـــي، فلا بد أنها كانت من هذه النوعية التي تداوي الأرواح المتألمة.

والدي بخلاف والدتي لم يكن يعمل خارج المنزل أو بالأحرى، لم يكـــن يعمل دائماً خارج المنزل، فهو كاتب مقالات حرّ يكتب للصحف والمجـــلات، بشكل غير منتظم، وهذا يعني أن دخله بالتالي لم يكن منتظماً، ويعني أيضـــاً أن والدتي كانت المصدر الأساسي لمدخول البيت، ولكن أبـــي كأي رجل عاقـــل يتمتع بالكرامة وحس المسؤولية، كان كثيراً ما يتذمر، لأن أحداً لم يكن يكلفـــه بأعمال، ولكن أبـــي المميز حتى تذمره كان يخرجه بطريقة مرحة، وإن كانـــت تخفي مرارة وأذكره عندما كان يقول: "ليس لي جمهور هذا الشهر يا إيدي".

كصبيٍّ صغير، لم أعتبر أن أبـــي يعمل، أو بالأحرى لم أعتـــبر أن أبـــي يعمل عملاً حقيقياً، ففي تلك الأيام كنت أعتقد أن الأب العامـــل يجـــب أن يرتدي بذلة وربطة عنق ويذهب إلى العمل صباحاً، ويعود مساءً ليشرب الشاي. ولكن أبـــي لم يكن يفعل ذلك، بل كان يعمل في الغرفة الإضافية، يجلـــس إلى جهاز الكومبيوتر مرتدياً ملابس نومه، وأحياناً دون أن يسرح شعره.

لم يبدُ كالآباء الآخرين أيضاً، فلحيته كثيفة وشعره طويل، يربطـــه علـــى شكل ذيل حصان. يرتدي بنطالاً من الجينز فيه ثقوبٌ عدة (حتى خلال فصـــل الشتاء) مع قمصان تي شيرت قديمة مطبوعٍ عليها أسماءُ فرقٍ قديمةٍ مثـــل: "ليـــد زيبلين"، "ذا هو". وينتعل -أحياناً- صندلاً.

ذات يوم قال غاف السمين إنَّ والدي: "هبّي لعين"، (كان على صواب). ظننتها إهانة، فتضاربنا. وعدت مترنحاً إلى البيت مع بعض الكدمات وأنـــفٍ دامٍ.

بالطبع، اعتذر لاحقاً. لعلَّ غاف السمين وغدٌ حقيقيٌّ (أحياناً)، فهو مـــن أولئك الأولاد البدينين. يمتلك صوتاً عالياً بغيضاً، يُعد به المتنمرين الحقيقيـــين. لكنَّه أيضاً أحد أفضل أصدقائي، وأكثر الأشخاص الذين عرفتهم وفاءً وكرماً.

قال لي مرةً بشكلٍ جديٍّ: "أنت تعتني بأصدقائك يـا إيـدي مونسـتر، الأصدقاء هم كل شيءٍ".

كان اسمي المستعار إيدي مونستر. وذلك لأن كنيتي "آدامز"، مثل فـيلم *ذا آدامز فاميلي*. كان الفتى في الفيلم يُدعى باغسلي بالطبع، وإيدي مونستر مـن مسلسل *ذا مونسترز*. كان ذلك منطقياً وقتها، وكحال الأسماء المستعارة، لازمني الاسم.

إيدي مونستر، غاف السمين، ميتال ميكي (بسبب تقويم أسنانه الكـبير)، هوبو (ديفيد هوبكينز) ونيكي، تلك هي جماعتنا. لم يكن لنيكي اسمٌ مسـتعارٌ فهي فتاة، مع أنَّها حاولت قصارى جهدها إخفاء ملامحها الأنثوية. كانت تشتم كالفتية، وتتسلق الأشجار كالفتية، وتقاتل (تقريباً) مثل معظمهم. لكنها ظلـت بالرغم من كل هذا فتاة جميلة، فتاة جميلة جداً، بشعر أحمر طويل وبشرة شاحبة، مزينة بالكثير من النمش البني الصغير، نيكي تلك الفتاة التي مهما مـرّ الـزمن، ومهما شاهدت من فتيات أو نساء، لا يمكنك نسيانها.

في العادة، كنا نلتقي كل سبت، وفي معظم الأوقات كنا نمضـي النـهار بزيارة منازل بعضنا، أو نذهب إلى حديقة البلدة، وعندما نريد أقصى درجـات المرح والتسلية كنا نذهب إلى الغابة قرب النهر، تلك الغابة التي لنا معهـا مـن الذكريات، لا يستطيع حتى الزهايمر محوها. لكن هذا السبت مميز، ففي كل عام كان يقام معرض في الحديقة المجاورة للنهر، والمميز هذا العام أننا كنا سـنذهب إليه للمرة الأولى بمفردنا من دون أن يرافقنا شخص بالغ.

كنا نترقب ذلك منذ أسابيع، منذ أن عُلِّقت الإعلانات في البلدة. سيكون هنالك ألعاب مثل "دودج إيمز" و"النيزك" و"سفينة القراصنة" و"السفينة المدارية"، بدا ذلك رائعاً.

قلت وأنا أنهي شطيرة الجبنة بأسرع ما يمكن: "أمي، سألتقي الآخرين أمام سور الحديقة عند الساعة الثانية ظهراً؟".

"حسناً، التزم السير في الشوارع الرئيسة إلى هناك، لا تسـلك أي طـرقٍ مختصرةٍ أو تتحدث مع أي شخص لا تعرفه".

"لن أفعل". يا لقلب الأمهات! كانت تخشى عليّ من سيارة مسـرعة، أو غريب متحرش، ولكنها لم تكن تعلم أنه بالرغم من كـل الاحتياطـات الـتي أوصتني باتباعها، كان هذا اليوم سيغير حياتي، بل حياتنا، إلى الأبد. إنه القـدر، الذي مهما حاولت تجنب ما يخبئ لك فلن تفلح.

نهضت من كرسي حيث كنت أجلس، وتوجهت نحو الباب.

"حقيبة الخصر خاصتك".

"أوه، أمي".

"ستصعد إلى الألعاب، قد تقع محفظتك من جيبك، خذ حقيبة الخصر دون نقاش".

فتحت فمي، وأغلقته مجدداً، وجنتاي محمرتان. "كم أكره حقيبة الخصـر الغبية هذه، التي يستعملها السياح البدينون" سيهزأ منها الجميـع، وخصوصـاً نيكي. ولكن حين تكون أمي بهذا المزاج، لا يوجد حقاً مجال للنقاش.

"حسناً".

لم أكن راضياً، انتبهت إلى أنَّ ساعة المطبخ تقترب من الساعة الثانية، وعليَّ الذهاب. صعدت الدرج، وأخذت حقيبة الخصر الغبية، ووضعت نقودي فيها. خمس جنيهات كاملة، في الحقيقة، تلك الجنيهات الخمسة كانـت بالنسـبة إليّ بمثابة ثروة حقيقية وقتها! وهرعت بعدها إلى الأسفل.

"أراكِ لاحقاً".

"امضِ وقتاً ممتعاً".

كنت شبه متأكد أنني سأستمتع، فالشمس مشرقة، وكنت أرتدي قميصي المفضل، وانتعل الكونفرس. فقد كنت أستطيع سماع إيقاع الموسيقى المنبعث من المعرض، وشممت رائحة الهامبرغر والحلوى... سيكون اليوم مثالياً.

فور وصولي، وجدت غاف السمين وهوبو وميتال ميكي ينتظرون بالقرب من البوابة.

صرخ غاف السمين: "أهلاً إيدي مونستر، يا لها من حقيبة خصر جميلـة!"، توردت وجنتاي– هذا ما كنت أتوقعه– ورددت عليه بإشارة الإصبع المهينة. قهقه

هوبو وميتال ميكي على دعابته، ثمّ قال هوبو (الألطف دوماً، والمحب للسلام) لغاف السمين: "على الأقل لا تبدو وكأنها للشواذ مثل شورتك، أيها السافل".

ضحك وأمسك شورته من طرفيه، ورقص رقصة صغيرة، رفع رجليه السمينتين عالياً، وكأنه راقصة باليه. هذا حال غاف السمين. لا يمكنك إهانته حقاً، لأنه -ببساطة- لن يأبه. أو على الأقل، هذا ما يبدو أمام الجميع، لقد كان غاف شخصية أليفة، وكنت أحب، أن أرسم لشخصيته في ذهني صورة شبيهة بقطعة من حلوى النعناع المغلفة بالسكر، عندما تنظر إليها لا ترى سوى السكر بينما هي تخفي تحتها طعماً حاداً حريفاً.

بغض النظر عن تعليق هوبو، شعرت بقبح الحقيبة، فقلت: "أياً يكن الأمر، لن أستعملها".

فككت الحزام، ووضعت محفظة نقودي في جيب شورتي، ونظرت حولي، فوجدت سياجاً من الشجيرات كثيفة الأوراق يحيط بالحديقة، فلمعت فكرة في رأسي، سأخفيها هنا، فلا أظن أن أحداً من السابلة سيستطيع رؤيتها، ما لم يكن متعمداً البحث، ولا أظن أن أحداً في أجواء المعرض سيهدر وقته بالبحث عن أشياء في أجمة ويفوت كل المرح في المعرض، فأقحمتها بين الشجيرات، بطريقة تخفيها، وبحيث يظل بإمكاني استرجاعها عندما أريد العودة، وبذلك أكون أرضيت أمي التي ستظن أنني كنت أطوق خصري بها طوال النهار، وفي الوقت نفسه أكون قد أرضيت نفسي فلم أتجشم عناء وضع شيء قبيح.

سألني هوبو مستهجناً تصرفي: "هل أنت متأكد من أنك تريد تركها هناك؟".

فعلّق ميتال ميكي بطريقته البشعة الاعتيادية: "لكن ماذا لو اكتشفت أمك ذلك؟".

رغم أنه جزءٌ من مجموعتنا، وصديق غاف السمين المقرب، إلا أنني لم أكن أستلطفه كثيراً. فقد كانت لديه صفة بشعة تكاد تكون ميزة تميزه عن سائر أفراد المجموعة- إن استثنينا جهاز تقويم أسنان – فقد كان بارداً قميئاً، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار من يكون شقيقه، فلا يجب علينا أن نتفاجأ.

كذبت وهززت كتفي: "لا يهمني الأمر".

قال غاف السمين بصبر نافد: "ومن يهتم؟ هل يمكننا نسيان أمرها والانطلاق؟ أريد ركوب السفينة المدارية أولاً".

تحرك ميتال ميكي وهوبو أولاً؛ عادةً ما ننفذ إملاءات غاف السمين، ربما لأنه الأضخم والأعلى صوتاً.

قلت: "ولكن نيكي لم تأتِ بعد".

قال ميتال ميكي: "وما يعني ذلك؟ لطالما تأخرت، لنذهب، ستجدنا لاحقاً".

كان محقاً، فنيكي تتأخر دائماً. ولكن الأمر يختلف اليوم، فنحن في المعرض ويجدر بنا أن نبقى معاً، فالمعرض مليء بالغرباء، ولا يجدر بناء أن نبتعد عن بعضناً، فربما يحدث ما لا تُحمد عقباه، هذا بالنسبة إلينا نحن الفتيان، فما بالكم بفتاة، وأي فتاة! إنها نيكي، التي لا يمكن لعيني كبير أو صغير أن تقع عليها ولا تهيمان بها.

"لننتظر خمس دقائق أخرى".

قال غاف السمين متعجباً: "أنت تمزح!" وأدى أفضل أداء لتقليد تعابير جون ماكنرو[1]... كان سيئاً للغاية.

يقلد غاف السمين أشخاصاً كثراً، معظمهم أمريكيون. ينجح لدرجة أننا كنا ننفجر من الضحك.

لم يضحك ميتال ميكي بشدة مثلنا (أنا وهوبو). فهو لم يكن يستسيغ أن يعارض أحدنا رأيه. ولكن أياً يكن الأمر، لا يهم لأننا كنا قد توقفنا لتونا عن الضحك، حين قال صوتٌ مألوف "ما الذي تضحكون عليه؟".

التفتنا! فرأينا نيكي تشد الخطى متسلقة الهضبة، لتصل إلينا. كالعادة، شعرت بارتعاش غريب يراقص معدتي. وكأنّي أصبحت جائعاً كثيراً فجأة، وشعرت بتوعك قليلاً.

---

(1) جون ماكنرو لاعب تنس أمريكي يلعب باليد اليسرى ولد سنة 1959 في ألمانيا. كان من أحسن لاعبي التنس خلال الثمانينات وفاز خلال مسيرته بسبع دورات غراند سلام. (المترجم).

فردت شعرها الأحمر، فانسدل على ظهرها، وبلغ حافة شورت الجينز. كانت ترتدي بلوزة صفراء بلا كمين، طرزت ياقتها بزهور زرق. لمحت شيئاً يلمع حول رقبتها، كان صليباً صغيراً يتدلى من سلسلة. تحمل حقيبة قماشية كبيرة، وكأنّها ثقيلة على كتفيها.

قال ميتال ميكي: "أنتِ متأخرة، كنّا بانتظارك".

سأل هوبو: "ما الذي تحملينه في الحقيبة؟".

"يريد والدي أن أوزع هذا (الهراء) في المعرض" سحبتْ منشوراً من الحقيبة، وأرتنا إياه.

(تعالوا إلى كنيسة سانت توماس، وسبحوا الرب. إنّها الجولة الأكثر متعة على الإطلاق!)

كان والد نيكي كاهنَ كنيستنا المحلية. في الحقيقة، لم يسبق لي أن ذهبت إلى الكنيسة من قبل، فوالداي لا يرتادان الكنيسة. ولكن أعرف والدها، فقد رأيته ذات مرة في البلدة. يضع نظارة صغيرة ومستديرة، ورأسه الأصلع مغطى بالنمش، مثل أنف نيكي. أتذكر أن وجهه كان بشوشاً، وكان يبادر بإلقاء التحية على من يصادفه في طريقه، وبالرغم من بشاشة الوجه ودماثة التصرف التي رأيتها، إلا أنني كنت أشعر بشيء من الخوف.

قال غاف السمين: "هذه كومة من رعاة البقر النتنين يا رجل" مستهزئاً.

كانت جملة "رعاة البقر النتنين" واحدة من جمله المفضلة، يتبعها بقوله "يا رجل" بلكنه راقية لسبب ما.

سألت نيكي: "لا أظن أنك ستقومين بتوزيعها، صحيح؟". وذلك بعدما تخيلت أنها ستهدر النهار بأكمله في توزيعها، وأننا سنهدر يومنا أيضاً ونحن نتبعها في الأرجاء بينما توزع المناشير.

رمقتني بنظرة ذكرتني قليلاً بوالدتي.

قالت: "بالتأكيد لن أفعل، يا جوي، سنقوم ببعثرة القليل منها في الأرجاء، بحيث يبدو الأمر وكأن الناس أخذوها ورموها، وسنلقي بالبقية في سلة المهملات".

علت شفاهنا ابتسامة عريضة. لا شيء أفضل من رفض القيام بما لا ترغب به، وبالمقابل توهم البالغ أنك قمت بما طلبه منك، هذه القاعدة هي من الثوابت التي لن تتغير بتغير الأجيال، فالبالغ يبقى بالغاً متسلطاً، والصغير يبقى صغيراً متمرداً. يا *لعبقريتك يا إيدي!*

بعثرنا المنشورات، ورمينا الباقي في سلة النفايات، وبدأنا التسلية.

السفينة المدارية (الرائعة)، لعبة "دودج ذيم"، حيث دفعني غاف السمين بقوة كبيرة حتى شعرت أن عمودي الفقري قد انكسر. صواريخ الفضاء، التي كانت مسلية كثيراً العام الماضي، إلا أنها غدت مملة نوعاً ما اليوم، لعبة هيلتر سكيلتر، النيزك، وسفينة القراصنة.

تناولنا الهوت دوغ، وحاول غاف السمين ونيكي أن يلعبا لعبة التقاط البط، وتعلّما بالطريقة الصعبة أن الجائزة قد لا تكون بالضرورة الجائزة التي تريدها، وأتيا ضاحكين وكل منهما يرمي الآخر بالألعاب المحشوة الرديئة التي ربحاها.

في ذلك الوقت، بدأت الحماسة والأدرينالين بالتلاشي، وأدركت أنّي لم أعد أملك ما يكفي من المال سوى لجولتين، وربما ثلاث.

مددت يدي إلى جيبي، لأجلب محفظتي. وصدمت عندما لم أجدها.

"تباً!". من قال إن الأمهات لا يعرفن كل شيء، *أخبرني يا إيد كيف فقدت محفظتك.*

سأل هوبو: "ما الأمر!؟".

"لقد أضعت محفظة نقودي".

"أمتأكد؟".

"بالطبع".

من باب الحيطة تفقدت جيبي الآخر، لكنّي لم أجد شيئاً.

سألتني نيكي: "حسناً، أتذكر آخر مرة كانت معك؟".

"نعم، بعد الجولة الأخيرة، لأنّي تفقدتها. وبعدها اشتريت الهوت دوغ. ولكني لم ألعب لعبة التقاط البط إذاً..."

"عند كشك الهوت دوغ".

كان كشك الهوت دوغ في الجهة الأخرى من المعرض، في الجهة المقابلة للسفينة المدارية والنيزك.

قلت مجدداً: "تباً".

فبادر هوبو وقال: "هيا نذهب ونبحث".

فاعترض ميتال ميكي قائلاً: "ما الفائدة؟ لا بدَّ أن أحداً وجدها وأخذها".

فما كان من غاف السمين إلا أن قال: "أودُّ إقراضك بعض المال، ولكني لم أعد أحمل الكثير".

كنت متأكداً من كذبه، لطالما امتلك المال أكثر من الجميع، إضافة إلى أفضل الألعاب، وأحدث الدراجات الهوائية وأكثرها لمعاناً. فوالده يملك حانة *ذا بول* ووالدته من *آفون*. كان غاف السمين كريماً، ولكني علمت أيضاً أنه يريد القيام بمزيد من الجولات.

هززت رأسي على كل حال: "شكراً لا داعي".

شعرت بالدموع وهي تتجمع في عيني، وبغصة في حلقي -لقد كنت في الثانية عشرة من عمري فقط- لم يكن الأمر بسبب المال المفقود فقط، بل لشعوري بالغباء، فاليوم يوم الدلال. ولمعرفتي أن والدتي ستكون منزعجة وتقول: "أخبرتك ذلك".

"اذهبوا، سأعود لألقي نظرة. لا داعي لتضييع وقتنا جميعاً".

قال ميتال ميكي: "حسناً، هيا نذهب".

مشى الجمع بتثاقل، استطعت ملاحظة ارتياحهم. لم تكن أموالهم التي فُقدت، ولا يومهم الذي تعكر. عدت أدراجي نحو كشك الهوت دوغ. كان مقابل لعبة والتزر تماماً، لذا استخدمت ذلك كنقطة مرجعية، للبدء بعملية البحث. لا يمكنك ألا تنتبه لجولة الكرنفال القديمة، وسط أرض المعرض.

صدح صوت الموسيقى المشوش بسبب مكبرات الصوت القديمة، ولمعت الأضواء الملونة، وعلا صراخ الراكبين، بينما كانت العربات الخشبية تدور وتدور، وتتسارع على الدوامة.

اقتربت، ناظراً نحو الأسفل، باحثاً بانتباه أكبر. رأيت القمامة والأوراق التي لُفت بها شطائر الهوت دوغ و لم أرَ محفظتي. بالطبع لن أجدها، كان ميتال ميكي محقاً. لا بد أن أحداً ما التقطها، وأخذ نقودي، ولعله الآن يستمتع بالألعاب على حسابـــي.

تنهدت ونظرت عالياً. رأيت *الرجل الشاحب* أولاً. ليس هذا اسمه بالطبع. اكتشفت لاحقاً أن اسمه السيد هالوران وأنَّه سيكون مدرسنا الجديد.

من الصعب عدم ملاحظة الرجل الشاحب، فهو طويل ونحيف. ارتـــدى بنطال جينز مكحوتاً، وقميصاً أبيض فضفاضاً، وقبعة قش كبيرة. بدا مثل المغني -الذي تحبه أمي من حقبة السبعينيات- ديفيد باوي.

وقف الرجل الشاحب قرب كشك الهوت دوغ، وكان يمـــص مشـــروباً أزرق اللون، ويشاهد لعبة والتزر. أو اعتقدت أنه يفعل ذلك.

وجدت نفسي أنظر إلى الاتجاه ذاته، فرأيت الفتاة. كنت غاضـــباً بســـبب فقدان لمحفظتي، إلا أنني فتًى في الثانية عشرة، لديه هرمونات بدأت لتوها بالثوران والاهتياج. كنت أقضي الليالي دوماً في غرفتي، أقرأ الكتب الهزلية علـــى نـــور المصباح تحت أغطية الفراش.

كانت واقفة مع صديقة شقراء (من البلدة والدها شرطي أو مـــا شـــابه) تذكرتها بصعوبة وتجاهلتها على الفور. إنه واقعٌ محزن فالجمال الحقيقي، يقصـــي كل شيءٍ وكل شخص قربه. كانت صديقتها جميلة، ولكن فتاة لعبة والتـــزر - كما كنتُ أدعوها دوماً، حتى بعد معرفتي لاسمها - كانت ذات جمال أخَّـــاذ. طويلة ونحيفة، وشعرها داكن. ارتدت تنورة قصيرة ذات كشـــاكش، وســـترة واسعة كُتب عليها *استرخِ* فوق بلوزة صغيرة خضراء فاقعة اللـــون. وضـــعت شعرها خلف أذنها، ولمع قرط على شكل حلقة ذهبية في الشمس.

أشعر بالخزي لقولي إنني لم ألحظ وجهها في البداية، ولكن حين التفتـــتْ لتتحدث مع صديقتها لم يخب أملي. كانت حسنة المظهر، بشكل يفطر القلب، شفتاها مكتنزتان، وعيناها لوزيتان، لا يمكنك عند رؤيتها إلا أن تمجد الرب.

لكنها اختفت بعدها.

للحظةٍ كانت أمامي عينيّ، وبعدها ملأ الضجيج المكان، وكأن وحشاً مخيفاً هدر من أحشاء الأرض. اكتشفت لاحقاً أنه صوت تفكك حلقة الأخدود في محور لعبة والتزر بسبب كثرة الاستخدام، وقلة الصيانة. لمع شيء أمامي ثم رأيت وجهها، أو نصفه، يتمزق، تاركاً كتلة مرعبة من العظام واللحم، وكثيراً من الدماء.

بعد أجزاء من الثانية، قبل أن تسنح لي الفرصة لأصرخ، مر شيءٌ هائل الحجم، بنفسجي وأسود اللون، محطماً كل ما واجه طريقه. كان هنالك تصادم يصم الآذان؛ لقد ارتطمت عربة والتزر المفكوكة بكشك الهوت دوغ، وتطاير وابلٌ من شظايا المعدن والخشب، ابتعد الناس بسرعة، وترافق ذلك مع صراخٍ يصمُّ الآذان. في تلك الأثناء وجدت نفسي ملقى على الأرض، ولا أعرف سبب وجودي على الأرض، هل كنت أهم بالهرب وتعثرت، أم أنني كنت واقفاً ثابتاً في مكاني ودفعت.

في الحقيقة، تراكم الناس فوقي، ركلتني جزمة على قفصي الصدري. صرخت متمالكاً نفسي، وتدحرجت بعيداً، صرخت مجدداً. لقد كانت فتاة لعبة والتزر مستلقية بجانبي، حمداً لله أن شعرها كان يغطي وجهها، ولكني عرفتها من القميص والبلوزة فاقعة اللون، رغم أنهما كانا مضرجين بالدماء. سال المزيد من الدم على ساقها. قطعة أخرى من المعدن الحاد كسرت العظم، أسفل ركبتها تماماً. الجزء السفلي من ساقها كان على وشك الانفصال، كانت الأوتار الشيء الوحيد الرابط بين جزءي الساق.

عندما رأيت هذا المشهد المروع، زحفت بعيداً- فأنا في الثانية عشرة من عمري ومهما كنت شجاعاً لن تبلغ شجاعتي حدّ رؤية شخص ميت مستلقٍ إلى جانبي- لم أشك أنها ميتة، وما من شيء أستطيع القيام به، ولكن في تلك اللحظة مدت يدها وأمسكت بذراعي.

التفتت بوجهها المدمّى والمشوّه نحوي. من وراء سيول من الدماء، حدقت إليّ عينٌ بنية واحدة، بينما تدلت الأخرى على خدها المهشّم.

طلبت مني بصوت حاد: "ساعدني، ساعدني".

أردت الصراخ، البكاء، العويل، وفي ذات الوقت أردت الهرب. كنت على وشك الهرب، لو لم تمسكني يدٌ أخرى كبيرة وقوية من كتفي، وأسمع صوتاً لطيفاً: "لا بأس، أعلم مدى خوفك، ولكن أحتاج أن تسمعني بانتباه شديد، وتنفِّذ ما أمليه عليك".

التفتُّ، فرأيت الرجل الشاحب يحدق إليّ. أدركت حينها أن وجهه، من تحت القبعة الكبيرة، كبياض قميصه. حتى عيناه كانتا شفافتين، ولونهما رماديٌّ شفاف. بدا شبحاً، أو مصاص دماء، وفي ظروف أخرى كنت لأخاف منه. ولكنه حالياً شخصٌ بالغٌ، أحتاج إليه لكي أُحسن التصرف. سألني: "ما اسمك؟"

"إيد....إيدي".

"حسناً إيدي، هل أنت مُصاب؟" هززت رأسي بالنفي.

"جيِّد، ولكن هذه الفتاة مصابة، وعلينا مساعدتها، حسناً؟".

أومأت برأسي.

"المطلوب منك، أن تمسك ساقها، أمسكها بقوة، بكل ما أوتيت من قوة، هذا كل ما هو مطلوب منك الآن".

أخذ يديّ ووضعهما حول ساق الفتاة. كانت ساخنة ولزجة بسبب الدماء.

"هل تمكّنت من ذلك؟".

أومأت مجدداً. كنت أشعر بطعم الخوف والمرارة والمعدن على لساني. شعرت بالدماء تسيل بين أصابعي، مع أنّي كنت أمسك بها بقوة، بأقوى ما استطعت.

على بُعدٍ كبيرٍ، أبعد من أصوات الصراخ والنجدة، كنت أستطيع سماع صوت الموسيقى وصرخات الفرح. توقفت صرخات الفتاة. استلقت دون حراك بهدوء الآن، لم يكن يسمع منها سوى صوت تنفسها الخافت، الذي بدأ بالتلاشي أيضاً.

"إيدي، ركِّز؟".

"حسناً".

حدقت إلى الرجل الشاحب، الذي فك حزام بنطاله. كان حزاماً طويلاً، أطول بكثير من اللازم بالنسبة إلى خصر شخص النحيل، فيه ثقوب إضافية لتضييقه. يا لها من أمورٍ مضحكةٍ، أمور غريبة تلاحظها في أكثر الأوقات رعباً. مثل ملاحظتي أن حذاء فتاة والتزر قد خُلع. هو حذاء مطاطي، زهري وبراق. فكرت بعدم حاجتها إليه مجدداً، فساقها انقسمت نصفين تقريباً.

"هل أنت معي... إيدي؟".

"نعم".

"جيد، أوشكنا على الانتهاء. إنك تقوم بعملٍ جيدٍ إيدي".

أخذ الرجل الشاحب الحزام، ولفه حول الجزء العلوي من رجل الفتاة. وشده بكل ما أوتي من قوة. كان أقوى مما بدا عليه. شعرت على الفور بانخفاضٍ ملحوظٍ لاندفاع الدم.

نظر إليّ وأومأ. "يمكنك تركها الآن. أنا أسيطر على الوضع".

أبعدت يديّ. وبعد تلاشي التوتر، بدأتا بالارتجاف، فوضعتهما تحت إبطيّ.

سألته: "هل ستكون على ما يرام؟".

فردّ عليّ بتشكك: "لا أعلم. أتمنى أن يتمكنوا من إنقاذ ساقها".

نظر إلى الأعلى نحوي، وشيءٌ ما في عينيه الشاحبتين هدّأ روعي. "هل كنت تنظر إلى وجهها من قبل، إيدي؟"

فتحت فمي، ولكني لم أعرف ما عليَّ أن أقول، ولم أفهم لماذا لم يعد صوته لطيفاً بعد الآن.

نظر بعيداً مجدداً، وقال بهدوء: "ستعيش، هذا ما يهم".

عندها قصف الرعد، وبدأت أولى قطرات المطر تهطل. وكان صدى كلماته يتردد في أذنيّ، لا بل في أعمق تلافيف دماغي *ستعيش، هذا ما يهم. يا الله* كيف تتغير الأمور وأولوياتها بالنسبة إلى الناس منذ قليل كنت وإياه نحدق إليها وإلى جمالها ولم تكن الأرض بما وسعت تكفي سعادتها وسعادتنا برؤيتها، والآن انخفض مستوى توقعنا وكل ما نريده على حد تعبير السيد الشاحب أن تبقى على قيد الحياة أياً كان مقدار الضرر والتشوه الذي سيرافقها.

أعتقد أنها المرة الأولى التي فهمت فيها كيف يمكن للأمور أن تتغير في لحظة، كل الأشياء التي نعتقد أنها ثابتة يمكن أن تُسلب منا ببساطة. ربما كان هذا السبب وراء تفكيري بذلك، لأتمسك بشيء ما، وأبقيه آمناً.

ولكن مثل كثير من الأشياء التي نقولها لأنفسنا، كان ذلك على الأغلب كومة من رعاة البقر النتنين.

بعدما ذاع خبر ما قمنا به لأجل الفتاة، وصفتنا الصحيفة المحلية بالبطلين، وجمعتني مجدداً بالسيد هالوران في الحديقة لالتقاط الصور لنا.

بشكلٍ لا يصدق، اقتصرت إصابات الشخصين اللذين كانا في عربة والتزر التي خرجت عن مسارها، على كسور ورضوض وجروح، بينما عانى المارة من جروحٍ بليغةٍ احتاجت للتقطيب، وبنتيجة التدافع تكسرت ضلوع بعضهم.

حتى فتاة والتزر -التي تبين لاحقاً أنها تدعى إليزا- عاشت. فقد تمكن الأطباء المهرة من إعادة وصل ساقها، وأنقذوا عينها بطريقة ما. اعتبرت الصحف ذلك معجزة، ولكن لم تتحدث كثيراً عما حل بباقي وجهها.

مع كل الدراما والمصائب، بدأ الاهتمام بها يتضاءل تدريجياً. وتوقف غاف السمين عن إطلاق الدعابات السمجة (معظمها حول الساق المقطوعة)، وحتى ميتال ميكي ملَّ من مناداتي بالفتى البطل وسؤالي عن رداءِ البطلِ خاصتي، ذلك لأن الأخبار والشائعات الأخرى غطّت على الموضوع. فقد حصل حادث سير مروع في شارع A36، وتوفي بنتيجته ابن عمٍّ أحد الأولاد في المدرسة، وبعدها تبيّن أن هناك فتاة في الصف الخامس حامل وكانت تدعى ماري بيشوب، وهكذا استمرت عجلة الحياة بالدوران، وخفَتَ الحديث حول الموضوع قبل أن ينقطع تماماً.

لم يزعجني ذلك كثيراً، فقد مللت من القصة. ولم أكن من الأولاد الذين يحبون أن يكونوا في مركز الاهتمام. أضف إلى ذلك، أنّه كلما قلّ حديثي عمَّا حصل، قلّ اضطراري لتخيل وجه فتاة والتزر المشوّه. بدأت كوابيسي بالتلاشي، وقلت رحلاتي السرية إلى سلة الغسيلَ مع شراشف مبللة، تذكروا كنت في الثانية عشرة من عمري، ولا شيء يدعو للخجل إن بللت الشراشف!

سألتني والدتي مراراً عن رغبتي في زيارة فتاة والتزر في المستشفى، وكنت أجيبها دائماً: "لا أرغب"- أمي الطبيبة النسائية تحمل في قلبها حناناً وعطفاً وتسامحاً قل نظيره لدى الناس. أنا لا أقول ذلك لأنها أمي فالقادم من الأيام سيثبت لكم صحة ما أقوله- لم أرغب في رؤيتها مجدداً، لم أرغب في النظر إلى وجهها المشوه، ولم أعدْ أرغب في التحديق إلى تينك العينين البنيتين، فقد كنت أظن أنه ما إن تلتقي عينيّ بعينيها ستقول لي: "*كنت أعلم أنك ستهرب يا إيلدي. لو لم يمسك بك السيد هالوران. كنت ستتركني هناك ألاقي مصيري*".

أعتقد أن السيد هالوران زارها كثيراً بخلافي، فقد كان لديه وقت فراغ لذلك، فهو لم يكن ليبدأ العمل قبل أن تفتح المدرسة أبوابها في شهر سبتمبر. ويبدو أنه انتقل إلى كوخه الذي استأجرته له المدرسة مبكراً لكي يرتب أموره ويعتاد على البلدة وسكانها وأجوائها.

كانت فكرة جيدة حسب اعتقادي، منحت الجميع فرصة للاعتياد على رؤيته في الأرجاء، فمظهره الغريب، تسبب بطرح كم كبير من الاسئلة، وحصلت كل الأسئلة على أجوبة قبل أن يدخل الصف:

ما خَطبُ جلده؟ كان أمهق، هكذا شرح لنا البالغون الأمر بصبر. هذا يعني أنه يفتقد لما يسمى الصّباغ والذي أعطى جلد معظم الناس اللون الزهري أو البني. *وعيناه!؟* ينطبق الأمر نفسه عليهما، تفتقدان الصباغ. *إذاً لم يكن مسخاً أو وحشاً أو شبحاً؟* لا، مجرد رجلٍ عادي، لديه حالة طبية خاصة.

كانوا مخطئين، صحيح أن السيدٍ هالوران لم يكن مسخاً أو وحشاً، ولكنه كان يمتلك صفات ومميزات يفتقر إليها كثير من الناس العاديين ممن لا يعانون من حالة طبية خاصة، ومن المؤكد أن صفة عادي لم تكن تنطبق عليه.

2016

عندما وصلت الرسالة، لم يكن هناك أي شيء يميزها عن أي رسالة أخرى، فلم تكن مزخرفة، و لم يبدُ أنها نذير شؤم. لقد كانت رسالة كغيرها من الموجودات في صندوق البريد ملقاة إلى جانب ظرفٍ خيريٍ لجمعية ماكميلان ومنشور إعلاني لمطعم بيتزا جديد.

بحَقِّ السماء من لا يزال يرسل الرسائل هذه الأيام؟ حتى والدتي البالغة ثمانية وسبعين عاماً أصبحت تستخدم البريد الإلكتروني وتويتر وفيس بوك.

-نعم، ألم أقل لكم أن أمي مميزة- في الواقع إنَّها متمرسة بالتكنولوجيا أكثر مني. أنا أميل قليلاً لأكون من جماعة لوديت (العمال الذين دمروا الآلات التي هددت عملهم). إن حالي يجعل أصدقائي مذهولين من جهلي شبه التام بهذه التطبيقات والبرامج، فهم يتحدثون عن تطبيق سناب شات والمواقع المفضلة والتاغات وتطبيق انستغرام بلغة تبدو غريبة بالنسبة إليَّ. أخبرهم أحياناً بأسف *أني أظن معرفتي باللغة الإنكليزية، لكنّي لا أملك فكرة لعينة عمَّا تتحدثون عنه.*

لم أتعرف إلى خط الكتابة على الظرف، لا عجب فأنا نادراً ما أتعرف إلى خطي حتى هذه الأيام. فمعظم الناس أصبحوا يكتبون عبر لوحات المفاتيح، وشاشات اللمس في الوقت الحالي.

فتحت الرسالة، وتفحصت المحتويات، وأنا جالسٌ إلى طاولةِ المطبخ، أرتشف كوباً من القهوة. في الحقيقة لم يحصل ذلك... جلست إلى الطاولة أتفحص المحتويات، بينما كان هناك كوب من القهوة مهمل بجانبي.

"ما هذا؟".

نقلت نظري في الأرجاء. دخلت كلوي المطبخ، مشتتة تتثاءب مستيقظةً من النوم. شعرها -المصبوغ باللون الأسود- مفرود، غرتها الشعثاء مرفوعة إلى

الأعلى. ارتدت قميصاً لفرقة كيور وكانت بقايا تبرج اليوم السابق لا تزال على وجهها.

قلت رافعاً الرسالة: "هذه رسالة، كان الناس يستخدمونها للتواصل في الأيام الماضية".

نظرت إليّ بازدراء، ورفعت لي إصبعها الوسطى بحركة مهينة. وقالت: "أعلم أنّك تتحدث، ولكن كل ما أسمعه هو بلا بلا بلا".

فرددت عليها: "هذه مشكلة الشباب هذه الأيام، أنّهم لا ينصتون".

فخاطبتني وسألتني "إيد، أنت بالكاد كبير بما فيه الكفاية لتكون والدي، لماذا تتحدث مثل جدي؟".

إنها محقة، أنا بعمر الثانية والأربعين، وكلوي في أواخر العشرينيات -كما أعتقد- فهي لم تصرح يوماً عن عمرها، وأنا كنت لبقاً ولم أسألها. الأعوام التي بيننا ليست كثيرة، ولكنني في بعض الأحيان أشعر وكأن الفرق بيننا دهر كامل.

كلوي شابة رائعة، ويمكن للمرء أن يخالها مراهقة. أنا لست كذلك، وأبدو كالمتقاعدين. يمكن أن تصف مظهري بالمهموم، رغم أنني اكتشفت أن الاهتمام لا يرهقك، بل الهموم والندم.

لا يزال شعري كثيفاً ولم يغزه الشيب إلا قليلاً، لكن ضحكتي فقدت حيويتها منذ زمن بعيد وبدأت الأخاديد تظهر عند ملتقى شفتيّ، وبالرغم من أنني لست فارع الطول إلا أنني أخفض رأسي مثل كثير من الناس الطويلين، أما ملابسي المفضلة فتصفها كلوي بسخرية بأنها ملابس "المتجر الخيري" (بدلات وصدريات وأحذية أنيقة). أمتلك بعض بناطيل الجينز، ولكنني لا أرتدي أياً منها عندما أذهب إلى العمل – مظهري وملابسي ليسا نسخة طبق الأصل عن أبي- فقد ارتديها عندما أكون في مكتبي الخاص، وأنا شخص أعمل على الدوام – بعكس والديّ أيضاً- وأعطي دروساً إضافية في العطل.

إيدي، بالله عليك أوقف هذه المقارنات بأبيك فنحن أصبحنا نعرف أنك نسخة مختلفة عن أبيك.

مهلاً إنني أشك في ذلك.

لعلّي أفعل ذلك لشغفي بالتدريس، ولكن لا أحد يحب عمله حقاً. أفعل ذلك لحاجتي إلى المال. هذا السبب أيضاً وراء إقامة كلوي هنا، إنَّها مستأجرة لديَّ، وأحبُّ اعتبارها صديقة.

كهل وتقيم معه فتاة في العشرينات وتقول صديقة! على رسلك يا إيدي. ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

صحيح، معكم حق، لعنة الله عليه ذلك الشيطان فهو لم يكن ثالثنا فقط.

لا يمكنني أن أنكر أننا ثنائيٌ غريبٌ، كلوي ليست من نوعية المستأجرين الذين أقبل بهم عادةً. كنت قد أُحبطت من مستأجر، حين أخبرتني ابنة أحد معارفي، أنها تعرف فتاة بحاجة إلى غرفة بشكل اضطراري. بدا الأمر جيداً، والإيجار يساعدني، والرفقة جيدة أيضاً.

يبدو الأمر غريباً! معكم حق، فأنا أعمل دائماً حتى في العطل، بعكس والدي، عذراً أعرف أنكم أصبحتم تعرفون- وراتبي جيد مقارنة بالآخرين، والمنزل الذي أعيش فيه وهبتني إيَّاه أمي، وأنا متأكد أن معظم الناس يعتبرون أنه يفترض بي أن أعيش رغد الحياة؛ عمل جيد وبيت وهبتني إياه أمي ولا حاجة للتفكير باستحقاق الإيجار أو بتأمين أقساط التأمين.

لكن الحقيقة المرة أننا اشترينا المنزل حين كان سعر الفائدة مضاعفاً، وأُعيد رهنه مرَّة لتأمين نفقات التجديدات، ومرَّة أخرى من أجل نفقات رعاية والدي الطبية، حين أصبح مرضه أصعب من أن يُعالج في المنزل - اطمئنوا لن أقول إنني بعكس والدي-.

عشنا أنا ووالدتي هنا سويةً، حتى التقت منذ خمس سنوات جيري، وهو مصرفيٌّ سابقٌ ومرحٌ، قرر أن يدفع كلَّ شيءٍ ليعيش حياةً مكتفيةً ذاتياً في منزلٍ صديق للبيئة بناه بنفسه في ريف ويلتشاير.

لا أملك شيئاً ضد جيري. وبالمقابل لا أملك أي مشاعر اتجاهه أيضاً، ولكن يبدو أنَّه يسعد والدتي، وهذا- مع أننا نكذب كثيراً- هو الأمر الأهم. مع بلوغي الثانية والأربعين من العمر، أعتقد أنه يوجد جزء مني لا يريد لأمي أن تكون سعيدة مع أي رجل غير والدي. إنه إحساسٌ طفوليٌّ، غير ناضجٍ وأناني،

لكني راضٍ بذلك.

علاوةً على ذلك، أمي البالغة من العمر ثمانية وسبعين عاماً لا تكترث البتة؛ قالت لي حين قررتْ الانتقال للعيش مع جيري ما فحواه:

"عليَّ الابتعاد عن هذا المكان يا إيد، أملك كثيراً من الذكريات هنا".

"تريدين بيع المنزل؟".

"لا إيد، أريد أن تأخذه. ومع قليل من الحب، قد يتحول إلى منزل عائلة رائع".

"أمي، أنا لا أملك حتى شريكة، فما بالك بعائلة".

" لم يفت الأوان بعد".

لم أرد.

"إن كنت لا تريدين المنزل، يمكنك بيعه ببساطة".

"كلا، أنا فقط... أريدك أن تكون سعيداً".

سألتني كلوي وهي تمشي باتجاه آلة صنع القهوة، وتسكب كوباً منها: "ممن هذه الرسالة؟"

وضعتها في جيب ردائي: "لا أحد مهم".

تأففت قائلة: "يا لك من رجل غامض".

فأجبتها نافياً ما تتهمني به من غموض: "لا، لا شيء... فقط أحد معارفي القدماء".

رفعتْ حاجباً وقالت: "واحدٌ آخر؟ واو. إنهم يظهرون من العدم، لم أعتقد أنك ذو شعبية كبيرة".

عبستُ، أذكر أنني أخبرتها عن ضيفي على العشاء تلك الليلة.

زجرتها قائلاً: "لا تكوني متفاجئةً هكذا".

فردت بتحدٍ: "لكني متفاجئة، بالنسبة إلى شخصٍ انطوائي مثلك، إنَّه مذهل أنك تملك أي أصدقاء".

قلت مدافعاً عن نفسي: "لديّ أصدقاء، هنا في أندربوري تعرفينهم: غاف وهوبو".

فقالت: "لا يُعدوّن أصدقاء".

فسألتها: "لماذا؟".

فكان ردها منطقياً: "لأنهم ليسوا أصدقاء حقيقيين. مجرد أشخاصٍ عرفتهم طيلة حياتك".

سألتها متعجباً: "أليس هذا تعريف الأصدقاء؟".

فردت شارحة: "كلا، هذا تعريف تقليدي. إنَّهم أشخاص تشعر أنك ملزم بالتسكع معهم بسبب العادة والتاريخ، بدلاً من الرغبة برفقتهم".

لديها وجهة نظر مقنعة قليلاً.

غيرتُ الموضوع: "أياً يكن، عليّ الذهاب لارتداء ملابسي. عليَّ الذهاب إلى المدرسة اليوم".

فسألتني مستهجنة: "أليس الآن موسم العطل؟".

شرحت لها: "على عكس الاعتقاد السائد، عمل المدرس لا ينتهي حين تغلق المدارس في فصل الصيف".

فردت ساخرة: "لم أعتقد أنكَ من معجبي أليس كوبر[1]".

قلت، دون أدنى تعبير: "أحب موسيقاه".

ابتسمت كلوي ابتسامة غريبة وغير متوازنة، حولت وجهها الخالي من التعابير بشكلٍ ما إلى شيءٍ مذهل. بعض النساء غريبات، بل عجيبات أيضاً، هذا الانطباع الأول، لكن بعد ابتسامةٍ أو إمالةِ حاجب يتغير ذلك، وهذا ينطبق تماماً على كلوي.

أعتقد أني معجبٌ بكلوي نوعاً ما، ولكنني لم أصرح لها بإعجابي أو ربما لم أجرؤ. أعلم أنها تراني –على الأغلب– عمَّاً حريصاً أكثر من حبيب محتمل. لا أريد أن تشعر بالارتياب عبر اعتقادها أنني أعاملها بطريقة أخرى غير الاهتمام الأبوي. أعلم أنني في وضعي الحالي، وأنا أعيش في بلدة صغيرة، قد يُساء فهم علاقتي بامرأة أصغر مني بكثير.

---

(1) أليس كوبر مواليد 1948 في ديترويت، ميشيغان، الولايات المتحدة، مغنٍ وممثل وكاتب غنائي بدأ مسيرته الفنية عام 1964. (المترجم).

يا للذكريات، تحفر وتحفر عميقاً، ولكنها لا تصل بالحفر إلى مكان تثقب فيه الوعاء الحافظ للذكريات. في الحقيقة، هذه الفكرة عن الذكريات تحمل وجهات نظر أخرى، فبعض الذكريات ولدى بعض الناس تتبخر، وبعضها يترسب في القعر ويبقى.

سألتني وهي تضع القهوة على الطاولة: "متى سيصل *صديقك القديم* الآخر؟".

دفعت كرسي ووقفت: "حوالي السابعة... انضمامك إلينا مرحّب به".

"لا أعتقد ذلك، لا أريد أن أخرب تبادلكما الأخبار والذكريات".

"حسناً".

"ربما مرة ثانية، مع أنه يبدو مثيراً للاهتمام، حسب ما قلت عنه".

ابتسمت بصعوبة: "نعم، إحدى صفاته الكثيرة أنّه مثير للاهتمام".

تبعد المدرسة عن منزلي مسافة ربع ساعة مشياً على القدمين. في يومٍ مثل اليوم، صيفي دافئ بشكلٍ لطيف، وفي ظل لمحات من اللون الأزرق بين طبقات الغيوم الخفيفة، أعتبر أن المشي مريح. فالمشي هو إحدى الطرق لترتيب أفكاري قبل الشروع بالعمل.

يمكن أن يكون هذا في الفصل الدراسي مفيداً. يمكننا أن نصف العديد من الأطفال الذين أدرسهم في أكاديمية أندربوري بأصحاب مراس صعب. عندما كنت شاباً كنا نسمي هذه النوعية من الأولاد *كومة من البراز*. في بعض الأيام، أحتاج لأحضر نفسي ذهنياً للتعامل معهم، وفي أيام أخرى، يكون التحضير الوحيد المساعد هو كأس من الشراب مع قهوتي الصباحية.

مثل باقي البلدات الصغيرة التجارية، تبدو أندربوري لِعين المشاهد مكاناً رائعاً للعيش، شوارع مرصوفة لطيفة، مقاهي الشاي، وكاتدرائية معروفة نوعاً ما. تقام السوق مرتين في الأسبوع، وهناك العديد من الحدائق الجميلة،

والمتنزهات المطلة على النهر. تبعد شواطئ بورنماوث الرملية، ومروج نيو فوريست مسافة رحلة قصيرة بالسيارة.

ولكن إذا نظرت بشكل أكثر عمقاً، ستجد أن ذلك كل ما في الأمر من ناحية السياحة. معظم الوظائف هنا موسمية ونسبة البطالة عالية. تتسكع مجموعات الشباب الضجرين في المتاجر والحدائق، وتدفع الأمهات المراهقات عربات أطفالهن الباكين على الطريق السريع. هذا ليس جديداً، إلا أنَّه أصبح شائعاً، أو ربما هذه نظرتي للأمور فقط. في معظم الأحيان، لا تأتي الحكمة مع التقدم بالعمر، بل فقدان الصبر.

وصلتُ إلى بوابة حديقة أولد ميدوز، المكان الذي قضيت فيه جلَّ أيامِ مراهقتي، لقد تغير كثيراً منذ تلك الأيام على نحو جليٍّ. هناك حديقة جديدة للتزلج على الألواح، وسُحقت أرض الألعاب التي كنا نتسكع فيها (أنا ومجموعتي) واستبدلت بها منطقة ترفيهية جديدة وحديثة في الجهة المقابلة من الحديقة. هناك أراجيحُ معلقة بحبال، ونفقُ تزحلق كبير، وأسلاك للتأرجح، والكثير من الأشياء الرائعة التي لم نستطع حتى تخيلها حين كنَّا صغاراً.

الأمر الغريب أن منطقة اللعب القديمة تبقى مهجورة ومنسية؛ أصيبت عارضات التسلق بالصدأ، الأراجيح متدلية من العوارض، فقد الطلاء زهوه القديم على لعبة الدوران الخشبية، وأصبح بالياً ومصاباً بالتشققات، ملطخاً بالرسوم القديمة التي رسمها الناس الذين نسوا منذ زمن طويل لَم *هيلين ساقطة* و لَم بحق السماء- كانوا يحبون آندي دبليو.

وقفت فترة من الزمن، أحدق إليها وأتذكر.

صرير أرجوحة الأطفال الخافت، برد الصباح المبكر القارص، هشاشة الطباشير البيض على الإسفلت.

رسالة أخرى، ولكن هذه المرة كانت مختلفة، ليست من رجل الطبشور... بل شيءٌ آخر.

استدرت بشكل مفاجئ؛ ليس الآن، ليس مجدداً، لن أنجذب إلى ذلك مرة أخرى.

عملي في المدرسة لا يستغرق وقتاً طويلاً، ينتهي بحلول وقت الغداء. أجمع كتبـــي، وأقفل المكتب، وأمشي مرة ثانية باتجاه مركز البلدة.

يقع *ذا بول* عند ناصية الطريق السريع، إنه آخر الأماكن المحلية المتبقيـــة. في ماضي الأيام، كان هناك حانتان أخريان في أندروبري *ذا دراغون وذا ويتشيف*، ومن ثم بدأت السلاسل بالتوافد. اضطرت المحال المحلية للإغلاق، واضطر والـــدا غاف -كي يكسبا قوتهما- لتخفيض أسعارهما، وإقامة أمســيات للســيدات، وساعات تخفيض وترحيب بالعائلات.

في النهاية، لم يستطيعا الاحتمال، وانتقلا إلى مايوركا، حيث يــديران الآن حانة تدعى بريتز. عمل غاف في الحانة بدوام جزئي، منذ أن كان في السادســة عشرة، ومن ثمّ عمل في مضخات الجعة، وبقي هناك منذ ذاك الحين.

دفعت الباب الثقيل ودخلت. كان هوبو وغـــاف جالســين إلى طاولتنــا المعتادة، في الزاوية بالقرب من النافذة. لا يزال غاف ضخماً من الخصر وصعوداً، حجمه كبير بما يكفي لأتذكر لِمَ كنا ندعوه غاف السمين. ولكـــن أصــبحت كتلته الآن مكونة من العضلات أكثر من الترهلات. ذراعاه مثل أغصان الشجر، وشرايينه واضحة مثل الأسلاك الزرق المشــدودة، ووجهـــه محـــدد، وشـــعره المقصوص رمادي وخفيف.

لم يتغير هوبو كثيراً، لا يزال يرتدي بزة السمكري. إذا أغمضت عينيـــك نصف إغماضة، يمكنك أن تحسبه فتىً في الثانية عشرة يرتدي ملابس الكبار.

كانا منغمسَين في الحديث، كأساهما المتقاربتان موضوعتان على الطاولـــة، هوبو يحتسي بيرة غينيس وغاف كولا دايت، إذ نادراً ما يشرب الكحول.

طلبت بيرة تيلورز ميلد من فتاة تبدو فظّة خلف البار، عبست في وجهي، ثم عبست أمام المضخة وكأنها أهانتها على نحو قاتل.

تمتمت: "علينا أن نغير البرميل".

"حسناً".

انتظرت بينما أدارت عينيها.

قالت: "سأجلب لك الكأس".

فقلت لها: "شكراً".

استدرت، ومشيت. عندما نظرت إلى الخلف، لم تكن قد تحركت بعد.

جلست على مقعد متداعٍ بجانب هوبو.

وقلت لهما: "طاب مساؤكما".

نظرا إلى الأعلى، وعلمت على الفور أنَّ هناك خطباً ما، شيءٌ ما قد حصل. تحرك غاف عن كرسيه ذي العجلات خلف الطاولة. عضلات ذراعيه تبدو ضخمة مقارنة برجليه النحيلتين اللتين تستريحان دون حراك على كرسيه.

لففت مقعدي. "غاف؟ ماذا..."

طارت قبضته اتجاه وجهي ولكمني، شعرت بألم رهيب في وجنتي اليسرى، ووقعت على الأرض.

حدَّق إليّ نحو الأسفل: "منذ متى كنت تعرف؟".

1986

رغم كونه الأضخم، وقائد مجموعتنا غير المعلن، إلا أنه كان الأصغر سناً.

عيد ميلاد غاف، بداية شهر أغسطس؛ أي مع بداية العطلة المدرسية. كنا جميعاً نغار منه بسبب ذلك، وتحديداً أنا. كنت الأكبر، وعيد ميلادي أيضاً خلال العطلة، قبل ثلاثة أيام من الكرسمس. وعنى ذلك أنَّه بدل حصولي على هديتين منفصلتين، أحصل دائماً على هدية واحدة كبيرة، أو اثنتين عاديتين.

كان غاف السمين يحصل دوماً على كثير من الهدايا. ليس فقط لأن والديه ثريان، بل لأنَّه يملك الكثير من الأقارب (العمات، الأعمام، أولاد العم، الأجداد وأجداد الآباء).

كنت أغار من ذلك أيضاً، فأنا لا أملك سوى أمي وأبي وجدتي فقط، والتي لا نراها كثيراً حيث تقطن على بُعدِ أميال، ولأنها أيضاً كانت تتحول إلى مختلةٍ حسب قول والدي. في الحقيقة، لم أكن أرغب بزيارتها، لأن غرفة معيشتها دوماً حارة، وتفوح منها الروائح، وكلما زرناها كنا نرى الفيلم نفسه يعرض على تلفازها.

كانت تتنهد وتقول بعينين ضبابيتين: "أليستْ جولي أندروز[1] جميلة؟"، ولزاماً علينا جميعاً أن نومئ برأسنا ونقول "نعم"، وأن نأكل المقبلات التي تساعد على الهضم، من علبة بسكويت صدئة وقديمة، مرسوم على جوانبها حيوانات رنة راقصة.

كان والدا غاف السمين يقيمان له حفلة عيد ميلاد كبيرة كلَّ عام. هذا العام أقاما حفلة شواء، وسيأتي ساحرٌ ويقامُ حفلٌ راقصٌ بعد ذلك.

---

(1) جولي أندروز ممثلة سينمائية ومسرحية ومؤلفة بريطانية قدمت العديد من الأفلام. من أفلامها صوت الموسيقى (the sound of music) حاصلة جائزة غولدن غلوب. (المترجم).

أدارت أمي عينيها حين رأت بطاقة الدعوة، علمتُ أنَّها لا تحبُّ والـدَي غاف السمين كثيراً. سمعتها ذات مرة تقول لوالدي أنَّهما كانا "معديين في معظم الأحيان"، حين كبرت أدركت أنَّها في الواقع تقول "مدَّعين"، ولكن ظننت لسنوات أنها تعني إصابتهما بمرض غريب.

قالت لأبـي بنبرة غريبة: "حفل راقصٌ، جيف؟". لم أستطع أن أقـرر إن كان ذلك أمراً جيداً أو سيئاً. "ما رأيك بذلك؟" توقعت أن يرفضا الدعوة.

ابتعد والدي عن المكان الذي كان يغسل فيه الأطباق، ونظر إلى الـدعوة وقال: "يبدو الأمر مسلياً".

هنا تدخلت وقلت: "لا يمكنك أن تأتي أبـي، إنَّها حفلة للأطفال، أنتما غير مدعوّين".

فوضحت أمي الأمر بقولها: "في الواقع نحن مدعوان"، وأشارت إلى الدعوة. وقرأت "الأمهات والآباء مدعوون، اجلبوا معكم بعض السجق".

نظرت إليها مجدداً وعبست، الأمهات والآباء في حفلة للأطفال؟ لم أعتقد أنَّها فكرة سديدة. ليست كذلك على الإطلاق.

سألنا هوبو: "إذاً ما الذي ستجلبونه لغاف السمين في عيد ميلاده؟".

كنا جالسين في الحديقة على عارضات التسلق، أرجلنا متدليـة، ونمـص مصاصات بنكهة الكولا. كان كلب هوبو المسن الأسود مورفي مستلقياً علـى الأرض تحتنا غافياً في الظلال.

كان هذا في نهاية شهر يوليو تقريباً، بعد شهرين مـن اليـوم المـروع في المعرض، وقبل عيد ميلاد غاف السمين بأسبوعين. بدأت الأمور تعود إلى حالتها الطبيعية، وكنت مسروراً، إذ لم أكن حقاً طفلاً يحب الإثارة أو الدراما المفاجئة. كنت – وما زلت – شخصاً يحب الروتين. حتى في الثانية عشرة من عمـري، كان درجُ جواربـي مرتباً بشكلٍ دقيقٍ دوماً، وكتبـي وأشرطتي مخزنة بترتيب أبجدي.

لعلّ ذلك لأن كلّ شيء في منزلنا كان فوضوياً بشكل ما، مثلاً، لم يكـن بناؤه منتهياً. هذا طبيعيٌّ بسبب الفرق بين والداي وباقي الأهالي الذين عرفتهم،

عدا هوبو الذي عاش مع أمه في منزلٍ قديمٍ مزودٍ بمصاطب. عاش معظم الأطفال في مدرستي في منازل عصرية، ذات حدائق مرتبة بدت كلها متماثلة.

عشنا في منزل قديم وبشع، مبني على النمط الفيكتوري، بدا دوماً محاطاً بالسقالات. في الخلف، هناك حديقة نمت فيها النباتات أكثر من اللازم، لدرجة أنّي لم أستطع يوماً أن أبعدها لأصل إلى نهايتها. في الطابق العلوي، غرفتان، على الأقل يمكنك رؤية السماء من خلال سقفيهما.

اشتراه والداي كمنزل بحاجة إلى ترميم حين كنت صغيراً جداً. كان ذلك منذ ثماني سنوات، وحتى الآن لا تزال هناك أشياءٌ كثيرةٌ تحتاج إلى ترميم. جميع الغرف الأساسية شبه مناسبة للعيش، اكتست جدران الرواق والمطبخ بجصٌ ظاهرٍ للعيان، وخلا المنزل من السجاد في جميع أرجائه.

في الطابق العلوي، كنا نستخدم الحمام القديم، ويحوي حوض استحمام قديماً مصنوعاً من المينا مع عنكبوت نسج بيته في زاويته، ومغسلة تسرب الماء، ومرحاضاً عتيقاً مزوداً بسلسلة طويلة لدفق المياه، ولا دوش فيه.

وجدت ذلك مثيراً جداً للإحراج، كفتى بعمر الثانية عشرة، لم نكن نمتلك حتى مدفأة كهربائية. كان على والدي أن يحتطب في الخارج، ويدخل ما احتطب لإشعاله، وكأننا نعيش في سالف العصر والزمان.

لا، لم أقل إننا ننتمي إلى إنسان الغابة

وكثيراً ما سألته: "متى سننهي بناء المنزل؟".

وغالباً ما أجابني: "حسناً، إنّ أعمال البناء تستغرق وقتاً، وتتطلب مالاً".

وكنت بدوري أسأله: "ألا نملك المال؟ أمّي طبيبة. قال غاف السمين إنّ الأطباء يجنون كثيراً من المال".

أذكر أن والدي تنهد عندما قلت ذلك وأجابني: "لقد ناقشنا هذا من قبل يا إيدي. غاف لا يعرف كلّ شيء عن كلّ شيء، وعليك التذكر أنّ مدخول عملي ليس كبيراً أو منتظماً كالآخرين".

ناقشنا ذلك أكثر من مرة ولأكثر من مرة كنت على وشك القول: "لمَ لا تذهب وتحصل على عملٍ حقيقيٍ إذاً؟" ولكن كنت على يقين أن مثل هذا

السؤال سيزعجه، فاحتفظت بسؤالي، فأنا أحبه ولا أريد أن أزعجه.

علمتُ أنَّ والدي يشعرُ عادةً بالذنب اتجاه المال، لأنَّه لم يجنِ قدر ما تجنيه أمي. ولكنه وإلى جانب ما كان يكتبه في المجلات والصحف، كان يسعى لتأليف كتاب.

وغالباً ما كنت أسمعه يقول: "ستتغير الأوضاع حين أصبح كاتباً مشهوراً"، مع ضحكة متبوعة بغمزة. كان يحاول أن يظهر نفسه بمظهر المازح، ولكنني كنت أعتقد بل أؤمن أنه سيصبح كاتباً مشهوراً يوماً ما.

في الحقيقة، لم يصبح أبي كاتباً مشهوراً، بالرغم من أنه كان على وشك ذلك. فأنا أعلم أنه أرسل مسوّدات للعملاء، ولاقى بعض الاهتمام من أحد الناشرين لفترة بسيطة، ولكن لم ينتج عن ذلك شيئاً، بشكلٍ ما، ربَّما كان ليحقق حلمه لولا مرضه، لكن المرض بدأ بالتأثير على ذهنه، والشيء الأول الذي تدمَّر هو كلماته.

مصصت مصاصتي المثلجة بشكلٍ أقوى، وقلت لهوبو: "لم أفكر بالهدية بعد".

لم أكن صادقاً في ما قلته، فقد فكرت بالهدية، بشكلٍ مطول ومعمق. كانت تلك مشكلة غاف السمين، فهو يملك كل شيءٍ تقريباً، وشراء هديةٍ تعجبه أمر في غاية الصعوبة.

سألته: "ماذا عنك؟"

فهزَّ كتفيه وقال: "لا أعلم بعد".

غيّرت السؤال: "هل ستأتي والدتك إلى الحفلة؟".

تغيرت تعابير وجهه: "لست متأكداً، قد تكون في العمل" تعمل والدة هوبو في مجال التنظيفات، وكثيراً ما كنت أراها تقود سيارتها القديمة التي هاجم الصدأ أماكن كثيرة منها، التي كانت من نوع ريلاينت روبن، وكنت أرى بوضوح أن صندوق سيارتها مملوءٌ بالمماسح والدِلاء.

في السر كان ميكي ميتال القميء يدعوها بالغجرية ولا أعتقد أن هوبو علم بما يقوله، لأنه لو كان يعلم لربما كان غيّر له معالم وجهه. كنت أرى أنَّ هذا

قاسٍ قليلاً، ولكن كانت حقاً تبدو قليلاً كالغجر، بسبب شعرها المبعثر، وفساتينها الواسعة. ولكن ماذا يمكن لعاملة في مجال التنظيف أن ترتدي.

لستُ متأكداً أين كان والد هوبو، فلم يتحدث عنه قط، ولكني توقعت أنّه تركهم حين كان صغيراً. لدى هوبو أخٌ أكبر منه أيضاً التحق بالجيش أو بشيء من هذا القبيل. حين أفكر بالماضي، أرى أن أحد أسباب تسكعنا سويةً، هو أن عائلاتنا لم تكن طبيعية بكل ما للكلمة من معنى. فوالدي يعمل في البيت، ووالد هوبو بعيد عنه، ووالد غاف مشغول بالحانة ووالد نيكي مشغول بالدعوة إلى طريق الله.

سألني هوبو: "هل سيأتي والداك؟".

أجبته متشككاً: "أعتقد ذلك، أرجو فقط ألا يجعلا من الأمر مضجراً" فاستهجنَ جوابي.

وحاول أن يجعل الأمر مثيراً: "سيكون الأمر جيداً، هناك ساحر".

فأجبت: "أعلم ذلك".

ضحكنا، وقال بعدها: "يمكننا أن نزور المتاجر الآن إن كنت ترغب، ونبحث عن شيءٍ ما لغاف السمين؟".

ترددت، أحببت التسكع معه. لم يكن عليَّ التصرف بذكاء طوال الوقت أو التأهب، كان الأمر بسيطاً.

لم يكن هوبو من أذكى الأولاد، لكنه كان من النوع الذي يمكنك وصفه بالمحنك الذي يجيد التصرف. لم يسعَ هوبو وراء نيل إعجاب الجميع، مثل غاف السمين، أو أن يغير وجهه ليندمج مع الآخرين، مثل ميتال ميكي، لقد احترمته بعضَ الشيء لأجل ذلك.

ولذلك شعرت ببعض السوء، حين قلت: "أعتذر، لا أستطيع، عليَّ العودة فقد وعدت والدي بمد يد المساعدة له أثناء قيامه ببعض الأشياء في منزلنا".

عادة ما أنسحب بهذه الحجج، ولم يشك أحد في صدق كلامي، فهنالك الكثير من الأشياء عليّ القيام بها في المنزل.

أومأ هوبو، وعندما أنهى مصاصته المثلجة، ورمى غلافها على الأرض. قال: "حسناً، إذاً سأخذ مورفي في نزهة".

فقلت له: "حسناً. أراك لاحقاً".

"أراك".

مشى بعيداً على مهل، كانت أجزاءٍ من غرته تتمايل على وجهه، وكان مورفي يقفز بجانبه. رميت غلاف مصاصتيَ في سلة المهملات، ومشيت في الاتجاه المعاكس نحو منزلي. وبعدها، حين تأكدت من أنني تواريت عن الأنظار، استدرت وبدأت بالسير عائداً إلى البلدة.

لم أرغب بالكذب عليه، ولكن يوجد بعض الأشياء التي لا يمكنك مشاركتها مع الآخرين، حتى مع أفضل أصدقائك. لدى الأطفال أسرار أيضاً، وأحياناً تكون أسرارهم أكثر من أسرار البالغين.

من بين مجموعتنا، كنت أعلم أني أكثرهم هوساً بالأمور العلمية، وأكثرهم رزانة وحباً للدراسة. فقد كنت من الأولاد الذين يهوون جمع الأشياء (الطوابع، العملات المعدنية، السيارات المصغرة، وغيرها) أيضاً (الصدف، جماجم الطيور من الغابة والمفاتيح). من المدهش كم تجد من المفاتيح الضائعة. أحببت فكرة أنني أستطيع التسلل إلى منازل الناس، حتى لو لم أعلم لمن يعود المفتاح، أو أين عاش أصحابه.

كنت حريصاً للغاية على مجموعة مقتنياتي، أخبئها جيداً في مكان آمن، أعتقد أنني -بطريقة ما- أحب أن أشعر أنني مسيطر. فالأولاد لا يملكون في أحيانٍ كثيرة السيطرة على حياتهم، ولكني كنت الوحيد الذي يعرف ما في صناديقي، والوحيد الذي يمكنه أن يضيف شيئاً أو يزيل آخر.

منذ حادثة المعرض، بدأت أجمع المزيد والمزيد من الأشياء التي وجدتها، أشياء تركها الناس في الأرجاء، بدأت ألاحظ كم يبدو الناس مستهترين، إذ لا يدركون قيمة الأشياء ولا يتشبثون بها ولا يعرفون أنها قد تفقد إلى الأبد. دعوني هنا ألفت نظركم إلى أنها ليست الأشياء وحدها من تفقد إلى الأبد.

وأحياناً - إذا رأيتُ شيئاً لا بدَّ لي من الحصول عليه - كنت آخذ الأشياء التي كان يتوجب عليَّ الدفع مقابلها.

لم تكن أندربوري بلدةً كبيرة، ولكنَّها كانت تعج صيفاً بكم هائل من السُّياح، معظمهم أمريكيون. كانوا يتمشون في الأرجاء، يتزاحمون على الأرصفة الضيقة، مرتدين فساتين مزهرة وشورتات واسعة، يتبعون الخرائط ويشيرون إلى المباني.

إضافةً إلى الكاتدرائية، هناك ساحة تجارية فيها متجر دبنهامز كبير، والعديد من المقاهي الصغيرة وفندق فاخر. كانت المتاجر المملة مثل (سوبر ماركت، صيدلية، مكتبة) كثيرة على طول الطريق السريع، حيث يوجد أيضاً متجر وولورث الهائل.

عندما كنت صغيراً، كان متجر وولورث - أو كما يدعوه الجميع ووليز - المتجر المفضل لديّ على الإطلاق. يحتوي على كل شيء ترغب فيه، رواق بعد رواق من الألعاب الكبيرة باهظة الثمن، إلى كميات كبيرة من الهراء البلاستيكي الرخيص، الذي كان يمكنك أن تشتري طناً منه، ويبقى معك فكة من أجل متجر الحلوى.

في هذا المتجر كان هناك حارس لئيم جداً يدعى جيمبو، كنا جميعاً نهابه. كان جيمبو حليق الرأس، وسمعت أن وشوماً كثيرة تغطي شتى أنحاء جسمه ولكننا لا نرى لأن الثياب تغطيها، من بينها وشم صليب معقوف كبير على ظهره. ولحسن الحظ، كان عديم الفائدة في عمله. فقد يمضي معظم وقته متسكعاً في الخارج، يدخن وينظر إلى الفتيات- أعتقد أن كل الحراس عديمي الفائدة مثله، وعملهم الحقيقي هو استراق النظرات إلى الفتيات والتباهي بعضلاتهم البارزة- وهذا يعني: إنْ كنت ذكياً وسريعاً، يمكنك بسهولة شديدة تجنب انتباهه وإشغاله بشيءٍ ما.

كان حظي سعيداً اليوم، فهناك مجموعة من المراهقات يتسكعن بالقرب من الهاتف العمومي في الشارع. كان الجو دافئاً، وكن يرتدين التنانير القصيرة والشورتات. وإن اجتمعت التنانير القصيرة مع سيقان المراهقات فمن المنطقي أن

تتوقع أن يكون جيمبو متكئاً على شيء ما عند زاوية المتجر، يحدق إلى سيقانهن البضّة الجميلة مع سيجارة متدلية من بين أصابعه، ولسانه أيضاً متدلٍّ- لا أقصد بالتأكيد أن أصفه بالكلب - لقد كانت المراهقات أكبر مني قليلاً، ولكن يبدو أن جيمبو كان يشعر يومها بإثارة كبيرة.

جريت مسرعاً على الطريق، ونفذت من المدخل. وهناك شعرت بالنسمات الباردة المنبعثة من مكيفات الهواء، ومتعت عيني بالنظر إلى يساري حيث الصفوف الطويلة والمنسقة بعناية من الحلوى حيث أشير إليها بعبارة اختر ما تشاء، أما على الجهة اليمنى فكان قسم الأشرطة والأسطوانات، أمَّا أمامي فكان رواق الألعاب، وهذا كان مقصدي فشعرت بقشعريرة من الحماس، إلا أنني لم أستطع المكوث فيه لفترة طويلة وإلا كنت سألفت النظر إليّ، وهذا ما كان سيستدعي قدوم أحد العاملين لمساعدتي، وهذا كان سيفسد مخططاتي.

سرت متيقناً من هدفي نحو الألعاب، بحثت بين الصفوف، وقيمت خياراتي: غالٍ، كبير، رخيص، ممل، ومن ثم رأيتها، كرة سحرية تحمل الرقم 8. كان ستيفن جيميل يملك واحدة. لقد جلبها معه إلى المدرسة ذات مرة، وأذكر أنها أعجبتني. كنت شبه متأكدٍ أن غاف السمين لا يملك واحدة، هذا ما جعلها مميزة، إضافةً لكونها الأخيرة على الرف، وبما انه لم تكن هناك كاميرات مراقبة، حملتها ونظرت حولي، وبحركة واحدة سريعة، وضعتها في حقيبة ظهري. *لا تسيئوا الظن بي. لا، أنت لست كما تظنون. إنه غاف، ويجب أن أجلب له هدية، ولكن المشكلة في أنه لديه الكثير من الألعاب.*

مشيت ببطء نحو ممر الحلوى، وبدت الخطوة التالية صعبة. كنت أستطيع أن أشعر بثقل ما اقترفته يداي على ظهري. أمسكت كيساً مكتوباً عليه *اختر ما تشاء*، وأجبرت نفسي على المماطلة، اخترت قليلاً من حلوى الكولا، والفئران البيضاء، والصحون الطائرة[1]. ثم مشيت إلى الصندوق.

وزنت سيدة ذات شعرٍ مجعدٍ جداً وكثيف الحلوى، وقالت لي مبتسمة: "43 بنساً عزيزي".

---

(1) white mice and flying saucers نوعا حلوى للأطفال في بريطانيا. (المترجم).

"شكراً".

عددت بعض الفكة من جيبي، وأعطيتها إياها. بدأت بوضعها في الصندوق، ثم عبست "ينقصك بنس عزيزي".

"أوه، تباً".

بحثت في جيبي مجدداً، لم يكن معي المزيد. قلت: "ممم، من الأفضل أن أعيد شيئاً ما" بوجنتين متوردتين ويدين متعرقتين، شعرت أنَّ الحقيبة على ظهري أثقل من قبل.

نظرت إليّ السيدة ذات الشعر المجعد للحظة، ثم مالت باتجاهي وغمزتني. كانت جفونها مجعدة مثل الورق. "لا تقلق عزيزي، تظاهر أنني لم أنتبه أو أنني أخطأت بالحساب".

حملت كيس الحلوى وشكرتها، يا لي من ماكر، كرة في حقيبتي مجاناً، وتعاطف من السيدة، وغض النظر عن بنس ناقص. هل أنا ماكر حقاً، ونفدت بفعلتي، أم أن من تغاضت عن البنس الناقص تغاضت عن أخذي للكرة.

قالت لي: "هيا. اخرج من هنا".

لم تحتج أن تعيد كلامها. خرجت بسرعة، وتجاوزت جيمبو، الذي شارف على إنهاء سيجارته، لم ينظر إليّ، فقد كان مشغولاً بالسيقان، مشيت مسرعاً في الشارع، ثم بدأت أزيد من سرعة خطواتي، وترافق ذلك مع مزيد من الإثارة وربما ارتفاع الأدرينالين، جراء شعوري بأنني أنجزت ما أتيت لأجله بنجاح، هذه الإثارة دفعتني إلى أن أركض كل المسافة الباقية التي تفصلني عن المنزل، وكنت واثقاً أن من شاهدني لم يعرف سبب الابتسامة التي كانت مرتسمة على شفتي.

لقد فعلتها، ولم تكن المرة الأولى. أعتقد أني لم أكن طفلاً سيئاً بخلاف ذلك. حاولت أن أكون طيباً، وألا أفضح رفاقي، أو أتحدث بالسوء عنهم. حتى إنّي حاولت أن أنصت لأمي وأبي. وللدفاع عن نفسي، لم أسرق المال مطلقاً. لو وجدت حقيبة أحد ما على الأرض كنت سأعيدها وكل المال فيها (ولكن قد تكون إحدى الصور العائلية مفقودة).

كنت أعلم أن ذلك خطأ، ولكن كما قلت، الجميع يملكون أسراراً، أشياء يعرفون أنه يجب عليهم عدم القيام بها لكنهم يفعلونها. جمع الأشياء أو سرقتها كان أمراً سريّاً للغاية، والشيء السيئ هو أنني عندما كنت أحاول إعادة شيء ما كنت أفشل. يا لها من معضلة نجاح تام في السرقة وفشل تام في إعادة المسروقات.

كان يوم الحفلة حاراً، بالرغم من أن كل أيام الصيف تكون حارة إلا أن يوم عيد ميلاد غاف ربما كان أكثرها حرارة، أنا متأكد أنه لم يكن كذلك في الواقع. متأكد أن مذيع النشرة الجوية - الحقيقي وليس والدي - كان ليقول إنّ هناك كثيراً من الأيام الماطرة والغائمة والكئيبة أيضاً، ولكن الذاكرة غريبة، والوقت يبدو مختلفاً أثناء طفولتك. تبدو ثلاثة أيامٍ حارة متتالية كشهر من الأيام الحارة بالنسبة إلى بالغ.

كانت حفلة عيد ميلاد غاف السمين حارة بالتأكيد. الملابس ملتصقة على جسدك، ومقاعد السيارة تحرق رجليك، والإسفلت يذوب على الرصيف الحار.

قال والدي مازحاً ونحن نغادر المنزل: "لسنا بحاجة إلى نار الشواء لنطهو الطعام بهذه الحرارة المرتفعة".

فردت عليه أمي: "أنا متفاجئة أنك لم تطلب منا أن نأخذ معاطف المطر معنا" وأغلقت الباب، ودفعته عدة دفعات قوية للتأكد من أنه مغلق بإحكام، هذه هي حال السيارة القديمة يجب التأكد من أن كل شيء فيها على ما يرام.

في ذلك اليوم، بدت أمي الجميلة عادة أكثر جمالاً وتألقاً، فقد ارتدت فستاناً أزرق يصل إلى الركبة، وانتعلت صندلاً رومانياً. كان اللون الأزرق يليق بها، ووضعت مشبكاً لامعاً صغيراً على طرف غرتها الداكنة، ورفعتها عن وجهها.

أما والدي -الوسيم دائماً- فلم يبدُ مظهره مختلفاً فهو لم يتكبد عناء التأنق فاكتفى بشورت من الجينز، وقميص "تي شيرت" كتب عليه غريتفول ديد وانتعل صندلاً جلدياً. الشيء الوحيد الذي بدا مختلفاً فيه، وذلك بفضل أمي وإلحاحها، كانت لحيته المشذبة.

كان منزل غاف السمين أحد أحدث المنازل في أندربوري، فقد انتقلوا إليه العام الماضي، حيث كانوا يقيمون فوق الحانة. رغم أن المنزل كان جديداً تقريباً، إلا أنَّ والد غاف السمين قام بتوسعته، لذا كان فيه بعض الأجزاء الإضافية التي لم تتطابق مع المنزل الأصلي، وكانت لافتة تلك الأعمدة البيضاء الكبيرة أمام المدخل، ما منح المنزل طابعاً يونانياً شبيهاً بالذي تراه في صور الآثار اليونانية.

البالونات كانت منتشرة في كل مكان، وكان مطبوع عليها الرقم 12، وكان هناك يافطة كبيرة لامعة عند مدخل البيت مكتوب عليها "عيد ميلاد سعيد، غافين".

قبل أن تتمكن أمي من التعليق أو التذمر أو حتى رن الجرس، انفتح الباب على مصراعيه، ووقف عنده غاف السمين، بدا متألقاً بشورت عليه رسوم من هاواي، وقميص تي شيرت أخضر، وقبعة قرصان وبادر إلى القول: "أهلاً سيد وسيدة آدامز، أهلاً إيدي".

قلنا جميعاً وفي آن معاً: "عيد سعيد، غافين" مع أني اضطررت إلى كبح نفسي عن قول غاف السمين.

قال غاف السمين لأمي وأبي: "الشواء في الخارج"، وأمسك بذراعي وقال: "لا، هيا أسرع، تعال شاهد الساحر إنَّه رائع".

كان غاف السمين محقاً، فالعرض الذي قدمه الساحر كان رائعاً بل أكثر من رائع فقد أبهرنا بمهاراته وخدعه، والشواء كان لذيذاً وممتعاً أيضاً، وكان هناك كثير من الألعاب: دلوان كبيران مملوءان بالماء، ومسدسات مائية. بعد أن فتح غاف السمين هداياه، قال: "إن الكرة التي تحمل الرقم 8 رائعة"، خضنا قتالاً مائياً هائلاً مع أولاد آخرين من المدرسة. وبما أن الجو كان حاراً للغاية، كانت ملابسنا سرعان ما تجف بعد أن تتبلل، وهذه كانت قمة المتعة.

في منتصف اللعبة، شعرت أنه يتوجبُ عليَّ استخدام المرحاض. عبرت الحديقة والماء ينقط منِّي، اجتزت تجمع الراشدين الواقفين في مجموعات صغيرة، حاملين الأطباق، ويشربون البيرة والشراب في أكواب بلاستيكية.

أتى والد نيكي، وهذا ما فاجأ الجميع ومنهم أنا، فلم أكن أعتقد أن الكهنة يحضرون الحفلات، أو يستمتعون بوقتهم. كان يرتدي ياقته البيضاء، ويمكنك رؤيته من على بعد ميل، حيث كانت بارزة تحت أشعة الشمس. أذكر أنّي فكرت يومها أنها تشعره بالحر الشديد، وربما ذلك كان سبباً في شربه كثيراً.

رأيته يتحدث مع أمي وأبي، وهذا ما فاجأني أيضاً، فوالدي ووالدتي لم يكونا متدينين. عندما لمحتني أمي، ابتسمت لي وسألتني: "هل أنت على ما يرام إيدي؟"

"نعم أمي، رائع".

أومأت لي برأسها، ولكن لم تبدُ سعيدة للغاية، حين مررت بالقرب منهم، سمعت أبي يقول: "حضرة الكاهن، لا أعتقد أنّ حفلة للأطفال مناسبة لطرح مثل هذا الموضوع".

سمعت رد الأب مارتن من بعيد: "ولكن الأمر يتعلق بحيوات الأطفال هنا".

لم يعنِ لي ما سمعته شيئاً، فأنا لم اسمع الحديث كاملاً، بل مقتطفات منه، أضف إلى ذلك أنه كان كلام بالغين، كما أنني كنت مشغولاً بأمر أكثر أهمية، كنت ابحث عن المرحاض. كان هناك شخصٌ مألوفٌ آخر، طويل ونحيل، مغطى بالملابس الداكنة، بالرغم من الحر الشديد، ويعتمر قبعة كبيرة. إنه لا شك السيد هالوران، كان يوقف في الجهة المقابلة من الحديقة، بالقرب من تمثال طفلٍ صغير يبول في حوض العصافير[1]، يتحدث مع مجموعة من الآباء والأمهات.

فكرت أنه من الغريب أن يقوم والدا غاف السمين بدعوة مدرس إلى حفلته، وعلى وجه الخصوص مدرس لم يبدأ عمله في المدرسة بعد، ولكن ربَّما كانا يحاولان الترحيب به في البلدة. كانا يقومان بمثل تلك الأشياء. إضافةً لذلك، أخبرني غاف السمين ذات مرة: "تحرص والدتي على معرفة الجميع، بتلك الطريقة تعرف عن أعمالهم التجارية أيضاً".

بتلك الطريقة التي تشعر بها أن أحداً ما يحدق إليك، نظر السيد هالوران في الأرجاء ورآني، رفع يده للتحية. رفعت يدي نصف رفعة، كان الأمر غريباً

(1) حوض مزخرف في الحديقة تنهل الطيور من مياهه أو تغتسل بها. (المترجم).

قليلاً. نعم، أنقذنا حياة فتاة والتزر سويةً، ولكنَّه لا يزال مدرساً، ولم يكن من الرائج أن تلقي التحية على المدرس.

وكأنه علم بما كنت أفكر، أومأ لي السيد هالوران قليلاً واستدار مجدداً. لحسن حظي – وليس فقط بسبب مثانتي الممتلئة – أسرعت عبر الفناء، ودخلت من الباب الفرنسي.

في غرفة المعيشة، كان الظلام سائداً والجو لطيف، تركت عيني تتأقلمان. كان الآباء مبعثرين في كل مكان، وكان هناك عشرات الألعاب، ألعاب كنت أتمنى الحصول عليها في عيد ميلادي، ولكني علمت أن ذلك مستحيل. نظرت حولي بحسد... وكانت تلك هي اللحظة التي رأيته فيها. صندوقٌ متوسط الحجم في وسط الغرفة، مغلفٌ بورق هدايا عليه شخصيات المتحولين[1]، وغير مفتوح. لا بدَّ أن أحداً ما وصل متأخراً، وتركه هنا. عدا ذلك من المستحيل أن يترك غاف السمين أي هدية دون فتح.

فعلت ما عليَّ فعله في الحمام، بأسرع ما يمكن، فلم أكن أريد أن يفوتني شيء من المتعة، ثم نظرت إلى الهدية مجدداً، وأنا في طريق عودتي عبر غرفة المعيشة. بعد تردد دام لحظة، حملتها وأخذتها معي إلى الخارج.

كان هنالك مجموعات من الأولاد متفرقين في الأرجاء، وكان غاف السمين ونيكي وميتال ميكي وهوبو جالسين سويةً في شبه دائرة على العشب، يشربون الشراب الفوار، وقد تحول لونهم للأحمر، كانوا متعرقين وسعيدين. شعرُ نيكي لا يزال رطباً قليلاً ومعقداً. تلألأت قطرات الماء على ذراعيها. يومها ارتدت فستاناً بدت فيه متألقة، كان طويلاً مطرزاً بالزهور، غطّى بعض الكدمات على ساقيها. نيكي دوماً تحمل كدمات، لا أذكر أنّي رأيتها دون كدمة بنفسجية، أو بنية في مكان ما، وذات يوم أتت لتلعب معنا وكان محيط عينها مزرقاً.

قال غاف السمين: "مرحبا مونستر!"

فرددت له التحية: "مرحباً، خمن ماذا؟".

فسألني: "توقفت أخيراً عن كونك فاشل؟".

---

(1) شخصيات رسوم متحركة Transformers. (المترجم).

فتظاهرت بالسرور وقلت له: "وجدت هدية لم تفتحها بعد".

فقال: "مستحيل صديقي. فتحتها كلها".

حملت الصندوق.

حمله غاف السمين وقال: "رائع!".

سألته نيكي: "ممن هو؟".

هزه غاف السمين، وتفحص ورق التغليف. لا يوجد اسم.

"من يهتم؟" بدأ بتمزيق الورق، ثم تغيرت معالمه.

وقال: "ما هذا بحق السماء؟".

حدقنا جميعاً إلى الهدية، دلو كبير مليء بالطباشير الملونة.

ضحك ميكي ملء شدقيه وبجذل: "طباشير؟ من جلب لك طباشير؟".

فرد عليها غاف السمين حانقاً: "لا أعلم، ليس هناك من اسم يا عبقري".

فتح الغطاء وسحب بضع طباشير.

سأل: "ماذا سأفعل بهذا الهراء؟".

فرد هوبو: "ليس الأمر بذلك السوء".

فقال: "إنها كومة من رعاة البقر النتنين يا رجل".

اعتقدت أن قوله كان قاسياً بعض الشيء. ففي النهاية، تكبد أحدٌ ما عناء جلب هدية وتغليفها وما شابه ذلك. لكن غاف السمين كان مفعماً بالطاقة قليلاً، بسبب الشمس والسُكر حينها. كنا جميعاً كذلك.

رمى الطباشير على الأرض بقرف: "انسوا الأمر. لنذهب لجلب المزيد من مسدسات الماء".

عندما نهضنا، تباطأت قليلاً، تاركاً المجال لرفاقي لكي يسبقوني، وأخذت خلسة قطعة من الطباشير، ووضعتها في جيبي.

كنت قد وقفت لتوي حين سمعت صوت تكسر وصراخ. استدرت، و لم أكن متأكداً مما رأيته. ربما أحد ما أوقع شيئاً! أو تعثر.

ما رأيته تطلب وقتاً مني لاستيعابه. كان الأب مارتن مستلقياً على ظهره بين كومة من الأكواب والأطباق المبعثرة وزجاجات الصلصة والتوابل

المكسورة. يحاول جاهداً التنفس من أنفه، وهو يصدر صوت نـــواحٍ غريـــب. وقف شخصٌ طويل وغير مرتب يرتدي شورت وتي شيرت ممزقاً فوقه، رافعـــاً قبضته.

إنه أبـــي!!!

يا للهول، والدي أسقط الكاهن مارتن أرضاً.

وقفت وقد شلت الصدمة حركتي، وسمعت صـــوتاً يصـــرخ بحـــدة: "إذا تحدثت مع زوجتي مجدداً، أقسم إنني..."

لم يتمكن من إكمال جملته، فقد تدخل والد غاف السمين وجذبـــه إليـــه مبعداً إياه عن الكاهن. ساعد أحد ما الكاهن مارتن على الوقوف. كان محمـــر الوجه، أنفه ينزف، وتلطخت ياقته البيضاء بالدم، بالمختصر، كان حالته مزرية.

أشار إلى والديّ وقال: "سيعاقب الله كل مسيء، لن تهربـــا مـــن عدالـــة السماء".

عاد والدي إلى الهجوم مجدداً، ولكن والد غاف السمين أمسكه بقوة. "دع الأمر يا جيف".

رأيت شيئاً أصفر اللون يمر بالقرب مني، وأدركت أن نيكي ركضت أمامي نحو أبيها. أمسكت ذراعه وقالت: "هيا أبـــي، لنذهب إلى البيت".

نهرها بعنف شديد لدرجة أنّها تعثرت قليلاً. ثم أخذ منديلاً، وجفف أنفـــه وقال لوالدة غاف السمين: "شكراً لدعوتي". ومشى بتثاقل إلى داخل المنزل.

التفتت نيكي نحو الحديقة. أحب أن أعتقد أن عينيها الخضـــراوين التقتـــا عينيّ، وحصل بيننا بعض الود والتفاهم، في الواقع أعتقد أنها تنظر لتـــرى مـــن لاحظ الفوضى - بالطبع الجميع - قبل أن تنظر إلى الأمام، وتتبع والدها.

للحظة، بدا كل شيءٍ متوقفاً. الحركة والمحادثات. ثم صفق والـــد غـــاف السمين، وحرك يديه بطريقةٍ لافتة وقال: "من يرغب بالمزيد من النقانق الكـــبيرة التي أُعدها؟".

لا أعتقد أن أحداً ما رغب في ذلك، لكـــن النـــاس أومـــأوا برؤوســـهم مبتسمين، ورفعت والدة غاف السمين صوت الموسيقى قليلاً.

ربتَ أحد ما على ظهري، فقفزت في مكاني. كان ميتال ميكي.

قال ميكي وبدا متحمساً: "يا إلهي لا أصدق أن والدك لَكَمَ الكاهن للتو".

فقلت له: "ولا أنا". شعرت بوجهي يتوهج خجلاً.

نظرت إلى غاف السمين وقلت: "أنا متأسفٌ حقاً".

فما كان منه إلا أن قال: "لا تتأسف، كان هذا رائعاً. هذه أفضل حفلة عيد ميلاد على الإطلاق!"

اقتربت أمي، وابتسمت ابتسامة غريبة، وقالت: "إيدي، سأعود ووالدك إلى البيت".

فقلت: "حسناً".

وأردفت: "يمكنك البقاء إن أردت ذلك".

في الحقيقة، كنت أرغب بشدة أن أبقى، لكن من دون أن ينظر إليَّ الأولاد الآخرون وكأني مسخٌ، وأن يتحدث ميتال ميكي عمَّا حصل طوال الوقت، ولذا قلت: "لا، لا بأس" مع أنه لم يكن كذلك. "سأذهب معكما".

ربتت على رأسي وقالت: "حسناً".

لم أسمع والديَّ من قبل يعتذران من أحد، لم أتخيل أن يقوما بذلك، فهما راشدان والاعتذار عادة يترافق مع كون الإنسان غير بالغ. ولكنهما ذاك اليوم اعتذرا مراراً لوالدَي غاف السمين اللذين كانا في غاية اللطف، وطلبا منهما ألاَّ يقلقا بشأن ما حصل، ولكن تبيَّن لي أنَّهما غاضبان قليلاً. ومع ذلك، أعطتني والدة غاف السمين كيس حلوى، فيه بعض الكعك والمصاصات وغيرها.

حالما أُغلق الباب الأمامي خلفنا، التفتُّ إلى والدي وسألته: "ما الذي حصل يا أبي؟ لِمَ ضربته؟ ما الذي قاله لأمي؟".

وضع أبي ذراعه حول كتفي، وقال: "لاحقاً إيدي".

أردت مناقشته والصراخ عليه، ففي النهاية هذه حفلة صديقي التي أُفسدت لتوها، إلا أنَّني لم أفعل شيئاً من ذلك. في الواقع كنت أحبُّ والديَّ، وشيءٌ ما على وجهيهما أوضح لي أن الوقت لم يكن مناسباً.

لذا تركتهما يضمانني، وأمسكت أمِّي بإحدى ذراعيَّ، ومشينا في الطريق سويةً. وحين قالت أمي: "هل ترغبان ببعض رقائق البطاطا؟" تصنعت الابتسام وقلت: "نعم، هذا رائع".

لم يخبرني أبي ما حصل، ولكني اكتشفت لاحقاً، بعد أن أتت الشرطة لاعتقاله بتهمة محاولته ارتكاب جريمة قتل.

2016

قلت: "منذ أسبوعين، أُرسل إلي بريدٌ. أنا آسف". مد هوبـــو يـــده إليّ. أخذتها، ورميت ثقلي كلَّه على المقعد.

"شكراً"

كان عليَّ إخبار غاف وهوبو أنَّ ميكي عاد إلى أندربوري، وجب علـــيَّ ذلك بمجرد معرفتي. لمْ أدرِ لمَ لم أفعل؟

لعلَّ الفضول هو السبب، أو لأن ميكي طلب مني ذلك. ربَّمـــا لأنـــي -فقط- أردت أن أكتشف بنفسي ما الذي كان ينوي فعله.

كنت أعلم القليل عن قصة حياة صديقنا القديم، بحثت عنه على الإنترنـــت قبل بضعة أعوام، بسبب الملل واحتسائي جرعات شراب أكثر من الـــلازم. لم يكن الاسم الوحيد الذي بحثت عنه من خلال محرك البحث غوغـــل، ولكنَّـــه الوحيد الذي أعطى نتائج.

لقد قام بالكثير من الأمور الجيدة، فهو يعمل لدى وكالة إعلانات مـــن النوع الذي يملك حرفاً غريباً في اسمه وغير ضروري. وكانت لديـــه صـــورٌ كثيرة مع العملاء، في حفلات إطلاق المنتجات الجديـــدة، حـــاملاً كـــأس شراب، ومبتسماً ابتسامة يبدو أنها كلفته لـــدى طبيـــب الأســـنان ثـــروة كبيرة.

لم يكن ذلك مفاجئاً، فميكي من الأولاد الذين يحصلون على ما يريـــدون بذكائهم. فمنذ الصغر كان موهوباً، وتحديداً في قول الحقيقة، ما سيكون مفيداً له في مجال عمله.

ذكر في بريده الإلكتروني مشروعاً يعمل عليه. شيئاً ما قد يكون "مفيـــداً لكلينا" على حدِّ قوله. أنا متأكد أنه لا يخطط لجمع شمل طلاب المدرســـة، في الواقع، لا أستطيع سوى التفكير بسبب واحد لاتصال ميكي بـــي بعد كل هذا

الوقت، وهذا لأنه يريد غرس سكينه الحادة في علبة صدئة ومنحنية من الـدود العفن.

لم أقل هذا لغاف وهوبو. فركت وجنتيَّ المرتجفتين، وجلت بعينيَّ في أرجاء الحانة، كانت شبه فارغة. أشاح الزبائن القلائل بنظرهم على الفور، ونظروا مجدداً إلى الكؤوس والصحف. حسناً، إلى من كانوا سيشتكون على أية حال؟ فلن يرمي غاف نفسه خارج حانته لتسببه بإثارة المشاكل.

سألتهما: "كيف علمتما؟"

قال غاف: "رآه (هوبو) في الطريق السريع، شاحباً، وأبشع مما كان عليه بمرتين".

"حسناً".

"كان لديه الحياء الكافي حتى ليقولَ مرحباً. قال إنه أتى لزيارتك، وكان متفاجئاً لأنك لم تذكر الأمر".

شعرت بغضبي يتزايد. ميكي القديم ذاته، يسبب المشاكل كما كان يفعل دوماً.

جلبت النادلة كأسي، ووضعته بعناية على الطاولة، والشراب ينسكب من حافتها.

قلت لغاف: "فتاة لطيفة... مزاج جيد" ابتسم غاف ببرودة.

قلت له مجدداً: "أنا آسف، توجب عليَّ إخباركما".

تمتم غاف: "نعم بحق الجحيم، نحن أصدقاء".

سأل هوبو: "لماذا لم تفعل؟".

أجبته: "طلب مني ألا أفعل، قبل أن نتحدث سوية".

فسألني مجدداً: "ووافقت على ذلك؟".

أعتقد أنّي أردت منحه ميزة الشك.

عندئذ قال غاف: "لم يجدر بي ضربك" وأخذ رشفةً من كأس الكولا دايت "لقد فقدت السيطرة على أعصابي، إنَّ عودته ستتسبب بعودة كل الذكريات".

حدقت إليه، لم يكن أيٌّ منا معجباً حقاً بميكي كوبر، إلا أنَّ غاف كان يكرهه بشدَّة، وأظن أن أسبابه كانت وجيهة.

عندما كنّا في السابعة عشرة من العمر، وفي إحدى الحفلات التي لم أكن مدعواً إليها، لا أذكر سبب ذلك. تودد ميكي من فتاة كان هوبو يواعدها، فتشاجرا. وعندما ثمل غاف تم إقناع ميكي بإيصاله إلى المنزل... ولكنهما لم يصلا، لأنَّ ميكي انحرف عن الطريق المستقيم تماماً، واصطدم بشجرة.

بأعجوبة، اقتصرت معاناة ميكي على ارتجاج في المخ وبعض الجروح والكدمات لا غير، أما غاف السمين فقد سُحقت عدة فقرات من عموده الفقري، و لم يعد بالإمكان إصلاحها. وأصبح جليسَ كرسيٍ مدولب منذ ذلك الحين.

اتضح أنَّ ميكي تجاوز حدود السرعة بقدر كبير، رغم ادعائه أنَّه لم يشرب سوى كولا دايت طوال الليل. منذ ذلك الحين لم يتحدث ميكي مع غاف، وكنت وهوبو نعلم أنَّه من الأفضل عدم ذكر الموضوع.

هناك بعض الأمور في حياتك يمكنك تغييرها (وزنك، مظهرك، وحتى اسمك) إلاَّ أنَّ أموراً أخرى يستحيل تغييرها بالأمنيات والمحاولات الجاهدة والكد بالعمل، هذه الأمور هي ما يصقلنا. الأشياء التي يمكننا تغييرها لا تحدث شيئاً، بل الأشياء التي لا يمكننا تغييرها هي رأس الحربة.

هنا سأل غاف: "إذاً، لَم عاد؟".

فأجبته: "لم يقل السبب تماماً".

فعاود السؤال: "ماذا قال؟".

فأجبته: "ذكر مشروعاً كان يعمل عليه".

سأل هوبو: "أهذا كل شيء؟".

أجبت: "نعم".

سأل غاف: "لكن هذا ليس السؤال الحقيقي، أليس كذلك؟".

نظر إلينا، وعيناه الزرقاوان تتقدان: "السؤال الحقيقي ما الذي سنفعله حيال ذلك؟".

كان المنزل فارغاً عندما عدت، كلوي إمَّا في العمــل وإمـا مـع أحـد الأصدقاء. فأنا لم أستطع حفظ جدول عملها، فقد كانت تعمل في متجر مـا للملابس الغربية في البلدة، وتتبدل أيام عطلتها. لقد أخبرتني على الأغلب، إلا أنَّ ذاكرتي تخذلني في كثير من المرات، وهذا يقلقني، أكثر من اللازم.

بدأت ذاكرة والدي تخذله في أواخر أربعيناته. أشياء نميل كلنـا لنسـيانها، ينسى أين وضع مفاتيحه، أو يضع الأشياء في أماكن غريبة، مثل جهاز الـتحكم في البراد، وموزة على الرف الجانبـي، حيث كنا نضع أجهزة التحكم. أحيانـاً يتلعثم في منتصف الجملة، أو يخلط بين الكلمات. كنت أراقبه، وهو يعاني ليجد الكلمة المناسبة، ومن ثم يستبدلها بواحدة مماثلة.

بعد أن تفاقمت حالة الزهايمر، بدأ يخلط ما بين أيام الأسبوع. في النهاية، ما أخافه حقاً، أنه لم يستطع تذكر اليوم التالي للخميس. كان نسيان لآخـر يـوم عمل في الأسبوع يشكل له إرباكاً كبيراً، وما زلت أذكر نظرة الذعر في عينيه. فقدان أمر أساسي، شيءٌ كنا نعرفه منذ الطفولة، حينها اضطر أخيراً للإذعـان، إنَّه لم يكن فقط مشتت التفكير؛ كانَ أمراً أكثر جدية بكثير.

كنتُ مصاباً قليلاً بالوسواس لهذا السبب. بدأتُ أقرأ كثيراً لأبقي ذهـني متيقظاً، وألعب السودوكو، مع أنِّي لم أكن أستمتع بها كثيراً. في الحقيقة الزهايمر ورائي، وكنت أعلم ما يخبئه لي المستقبل، كنت مستعداً للقيـام بـأي شـيء لأتفادى ذلك، حتى وإن عنى ذلك أن أموت قبل أواني.

رميت مفاتيحي على الطاولة المتداعية القديمة في الرواق، ونظرت إلى المرآة الصغيرة المغبرة المعلقة فوقها. هناك كدمة باهتة تظهر على الجانب الأيسر مـن وجهي، ولكنها متماهية مع تجويف خدي. "جيد، لا يتوجب علـيَّ تبريـر أنَّ رجلاً مقعداً في كرسيٍّ مدولب ضربني".

مشيت إلى المطبخ، وفكرت بإعداد القهوة، لكنِّي أحسست أنِّي ما زلـت ممتلئاً بالسوائل منذ وقت الغداء. بدلاً من ذلك صعدت إلى الأعلى.

تستخدم كلوي الغرفة التي كانت في ما مضى غرفة والديّ. أنام في غرفتي القديمة في الخلف، وتحول مكتب والدي وباقي المساحة الفارغـة إلى مكـان

أخزن فيه الأشياء، كثيراً من الأشياء.

لا أحب التفكير في أنّي ممن يكدس ويخزن الأشياء. إنّ "مجموعاتي" مخزنة بشكلٍ مرتبٍ في صناديق، ومعرَّفة بعناية، وموضوعة على رفوف. لكنَّها بالفعل تملأ معظم المساحة العلويَّة، ولولا ملصقات التعريف، لنسيت معظم ما جمعت.

مررت إصبعي على بعض الملصقات: أقراط، خزف، ألعاب... هناك عدة صناديق من الألعاب، الألعاب العتيقة من الثمانينات، وبعضها من الطفولة، بعضها مشترى - بأسعار مرتفعة عموماً - على موقع "إي بيه". على رفٌ آخر بضعة صناديق كتب عليها "*صور*"، ليست جميعها لعائلتي. صندوقٌ آخر يحوي أحذية، أحذية النساء اللامعة والبراقة. هناك ستة صناديق من الصور. رسوم الألوان المائية والباستيل، العديد من الصناديق معرَّفة بكلمة *منوعات*، حتى لو كنتُ حتى تحت التحقيق، لن أعرف -على الأغلب- ما بداخلها. هناك صندوقٌ واحدٌ فقط أعرف محتوياته عن ظهر قلب، مجموعة من الورق المطبوع، زوج من الصنادل القديمة، تي شيرت متسخ، وآلة حلاقة كهربائية غير مستعملة. هذا الصندوق معرف فقط بكلمة *أبي*.

جلست إلى المكتب، كنت متأكداً تماماً أنّ كلوي ليست في المنزل ولن تعود قريباً، ولكنّي أغلقت الباب من باب الاحتياط، فتحت الظرف الذي وصلني هذا الصباح، ونظرت إلى محتوياته مجدداً. ما من كتابة، ولكن الرسالة واضحة جداً، رسمٌ بسيطٌ لهيئة إنسان حول رقبته مشنقة.

مرسومٌ بقلم شمع، ربَّما كنت مخطئاً، ربما كان هذا السبب وراء إضافة المرسل لشيءٍ آخر ليزيل اللبس. قلبت الظرف فوقعت قطعة طبشور على المكتب في كومة من الغبار.

1986

لم أرَ السيد هالوران بشكلٍ مطول منذ يوم المعرض "اليوم المروع في المعرض"، كما أفكر به. أعني لقد رأيته حين التقطت الصحف صورتنا، وفي أرجاء البلدة، وفي حفلة غاف السمين - لكننا لم نتبادل الحديث.

قد يبدو هذا غريباً نوعاً ما، ولكن إن شاءت الصدف أن نكون مشتركين في إنقاذ إنسانة، فهذا لا يعني أبداً أننا أصبحنا مرتبطين برابط وثيق. على الأقل لم أعتقد ذلك.

كنت أقود دراجتي عبر الحديقة، وفي طريقي للقاء الآخرين في الغابة فرأيته. كان جالساً على مقعد، وكان هناك لوح رسم على حضنه، ومجموعة صغيرة من أقلام الرصاص، أو ما شابه ذلك إلى جانبه. يرتدي بنطال جينزٍ أسود وينتعل حذاءً كبيراً، وقميصاً أبيض واسع مع ربطة عنق سوداء، وكالعادة، مع قبعة كبيرة على رأسه لتحميه من أشعة الشمس. ومع ذلك كنت مدهوشاً أنه لم يَذبْ بعد، فالجو حارٌّ جداً. كنت أرتدي سترة وشورت، وأنتعل حذائي الرياضي القديم.

حِمت للحظة مرتبكاً، ولم أعلم ما عليَّ قوله، ولكنّي لم أستطع المرور بالقرب منه وتجاهله أيضاً. بينما كنت متردداً، رفع نظره عن لوح الرسم، ورآني.

حياني قائلاً: "مرحباً إيدي".

فرددت التحية: "مرحباً سيد هالوران".

سألني: "كيف حالك؟"

أجبته: "جيد، شكراً سيدي".

عقّب قائلاً: "جيد".

سكتنا لوهلة، شعرت أنَّ عليَّ قول شيء ما، لذا سألته: "ماذا ترسم؟".

قال وهو يشير إلى اللوح: "الناس" وابتسم. بدت أسنانه دائماً صفراً نوعاً ما، لأن وجهه شديد البياض.

سألني: "أترغب بإلقاء نظرة؟"

في الحقيقة، لم أكن أرغب، ولكن رفضي سيبدو فظاً، لذا قلت: "لمَ لا".

وضعت دراجتي على الأرض، مشيت نحوه، وجلست على المقعد بجانبه. قرّب اللوح مني لأرى ما رسم.

لهثت قليلاً.

وقلت: "واو، هذا رائع".

لم أكن أجامله (مع أنني شعرت أنّه عليَّ امتداحها وإن لم تكن جيدة). كما قال، كانت رسوماً تصور الناس في الحديقة. ثنائيٌّ متقدمٌ في السن يجلسان على مقعد، رجلٌ مع كلبه، وفتاتان تجلسان على العشب. شيءٌ ما يميز هذه الرسوم. رغم أنّي مجرد فتى، ولكنِّي أدركت أنَّ السيد هالوران كان موهوباً للغاية، هنالك شيءٌ ما يميز رسوم شخصٍ موهوب عن غيره. يمكن لأيٍّ كان أن ينسخ شيئاً ما، ويجعله يبدو كالمنسوخ عنه تماماً، ولكن الأمر يتطلب ما هو أكثر من ذلك لخلق مشهد، أو ناس يضجون بالحياة.

بدا خجلاً وقال: "شكراً". وسألني: "هل ترغب برؤية المزيد؟".

أومأت برأسي. قلّب السيد هالوران بعض الصفحات. هنالك صورة لرجل كبير في السن يرتدي معطفاً مطرياً، ويدخن سيجارة، كان رسماً متقناً لدرجةٍ تتخيل فيها أنّك تشم رائحة الدخان المتصاعد. ومجموعة من النساء يتحدثن في الشارع المرصوف قرب الكاتدرائية. وصورة للكاتدرائية ذاهّا، لم أحبها بقدر البقية و...

قال السيد هالوران: "لا أريدك أن تشعر بالملل" وأبعد اللوح فجأة قبل أن أستطيع النظر إلى ما يليها. ولكنِّي لمحت شعراً أسود طويلاً، وعيناً بنية واحدة.

فقلت: "لم أمل لقد أعجبتني الرسوم حقاً". وسألته: "هل ستعلمنا الفنون في المدرسة؟".

أجابني: "لا، سأعلمكم اللغة الإنكليزية. أمَّا الفن فهو مجرد هواية".

فأومأت وقلت: "حسناً".

لم أكن أهوى الرسم، كنت أخربش أحياناً صوراً لشخصياتي الكرتونية المفضلة، ولكنها لم تكن جيدة، أما كتاباتي فكانت بعكس رسومي، وكانت حصة اللغة الإنكليزية هي المفضلة لديَّ.

سألته: "بمَ ترسم؟".

قال: "بهذه" حمل دلواً فيه أشياء شبيهة بالطبشور. "إنها ألوان الباستيل".

فقلت: "تبدو كالطباشير".

عقب قائلاً: "نعم إنهما الشيء نفسه تقريباً".

أخبرته قائلاً: "حصل غاف السمين على بعض الطباشير كهدية في عيد ميلاده، ولكنها لم تعجبه".

تغيرت ملامحه، وسألني متعجباً: "حقاً لم تعجبه؟".

لسببٍ ما، شعرت وكأنّي قلت شيئاً سيئاً.

فحاولتُ تلطيف الجواب: "ولكن غاف كما تعلم..."

أكمل سائلاً: "مدلل؟".

رغم أنَّ ذلك بدا غير مخلص، إلا أنّي أومأت برأسي: "نوعاً ما حسبما أعتقد". فكرَ بالأمر.

وشرع يخبرني قائلاً: "أذكر عندما كنا صغاراً ونحصل على الطباشير، كنا نرسم على الرصيف أمام منزلنا".

سألته متعجباً: "حقاً؟".

فرد قائلاً: "نعم، ألم تقم بذلك؟".

فكرت... لا أعتقد أني فعلت ذلك، فأنا لم أهوَ الرسم كثيراً كما ذكرتُ سالفاً.

وأدرف: "أتعلم ما كنت أفعل أنا وأصدقائي عندما كنا أطفالاً صغاراً؟ اخترعنا رموزاً سرية، وكنَّا نستخدمها لنترك رسائل مشفرة لبعضنا في كل الأماكن، لا يستطيع غيرنا فهمها. فعندما كنت أريد الذهاب إلى الحديقة كنت

أرسم بالطبشور رمزاً أمام بيت صديقي، فيعرف أين أنا، و لم يستطع أحد آخر فك شيفرة هذه الرموز".

فسألته متعجباً: "ألم يكن بإمكانك قرع بابه ببساطة؟".

فرد، والثقة تشع من عينيه: "نعم كان بإمكاني ذلك، ولكن لم يكن ذلك ممتعاً بالقدر ذاته".

فكّرت بالموضوع، رأيت جاذبية الفكرة، مثل الأدلة في البحث عن كنز (شيفرة سرية).

بعد أن ترك لي الوقت لأفكر بما قاله، وترسخت الفكرة في ذهني، بحيث لا أنساها، غطى علبة ألوان الباستيل وقال: "عليَّ الذهاب لمقابلة أحد الأشخاص".

فقلت له: "حسناً، وأنا عليَّ الذهاب أيضاً لرؤية أصدقائي".

ابتسم وقال لي: "من الجيد رؤيتك مرة جديدة إيدي. ابقَ شجاعاً".

كانت تلك المرة الأولى التي يذكر فيها شيئاً يتعلق بيوم المعرض، أعجبني بسبب ذلك. كان العديد من البالغين ليذكروا الأمر من البداية: *كيف حالك؟ هل أنت على ما يرام؟* وتلك الأشياء.

بادلته الابتسام وقلت: "وأنت أيضاً سيدي".

ابتسم مظهراً أسنانه الصفر مرَّة أخرى. "أنا لست شجاعاً، إيدي... أنا مجرد أحمق".

أمال رأسه لما رآه من ارتباك ظاهرٍ عليَّ: "يهرع الحمقى إلى حيث يخشى الملائكة الدخول. هل سمعت هذا القولً من قبل؟".

بدا عليّ الاستغراب وقلت له: "لا سيدي، ماذا يعني؟".

فهز رأسه وقال: "حسناً، أعتقد أنه يعني من الأفضل أن تكون أحمق على أن تكون ملاكاً".

فكرت بما قاله، لم أكن متأكداً تماماً من ترابط مقولته. أمال قبعته وقال: "أراكَ إيدي".

فودعته قائلاً: "إلى اللقاء، سيدي".

نهضت عن المقعد قفزاً، وركبت دراجتي. كنت من معجبي السيد هالوران، رغم أنّه غريب الأطوار. *من الأفضل أن تكون أحمق على أن تكون ملاكاً*... غريبٌ ومخيفٌ بعض الشيء.

كانت الغابات تحيط بأندربوري، حيث كانت الضواحي تتماهى مع المزارع والحقول. لكن كما هي حال حضارة الإسمنت في كل مكان، أخذت البلدة تتمدد على حساب الغابة، فقد قطعت مساحات شاسعة من الغابات، وكنت تجد مكان الأشجار تلال الحصى وحجارة البناء المتكدسة فوق بعضها، بالإضافة إلى خلاطات الإسمنت والسقالات. هذه هي الحضارة المزعومة حضارة اقطع ولا تزرع، الحضارة التي ثقبت الأوزون وستثقب بعدها رئاتنا جميعاً، ما من كائنات مثلنا، ما من كائنات جاحدة بمقدارنا، ما من كانت تجهل مصالحها بقدرنا، نحن الذين خلقنا من تراب، ونحن الذين نتنفس من هواء تنقيه نباتات تنمو من التراب ذاته، نستبدل صحتنا، وسلامتنا، بمكعبات من الإسمنت نشيدها مكان رئة الكوكب ونبذل الغالي والنفيس من أجلها قبل أن نتركها ونموت، لنتحول إلى تراب تنغرس في نبتة أو شجرة ليأتي أحمق آخر ويقتطعها.

كتب على لوحة كبيرة بأحرف سود "منازل هولمز... نبني المنازل، ونكسب القلوب لمدة ثلاثين عاماً". أحاط سياجٌ من الأسلاك بالموقع. كنت أستطيع رؤية أشكال الآلات الكبيرة من خلفه، مثل الديناصورات الآلية الكبيرة، لكنها لم تكن تعمل حينها. وقف رجال ذوو بنية متينة، يرتدون معاطف برتقالية، وسراويل الجينز في الأرجاء، يدخنون ويشربون. وصدح الراديو بأغنية شيكين ستيفينز. عُلقت عدة لوحات على السياج "ابقَ خارجاً، منطقة خطرة".

اقتربت بدراجتي من الموقع، في مسار ضيق بالقرب من الحقول. في النهاية وصلت إلى سياجٍ خشبي صغير ذي قائمة، قفزت عن دراجتي ورميتها إلى الجهة الأخرى أولاً، ثم تسلقت إلى أحضان الغابة الدافئة.

لم تكن غابة كبيرة، لكنها كانت غابة كثيفة ومظلمة. ركبت دراجتي مجدداً حتى منتصف الطريق، وحملتها إلى نهايته وأنا أتوغل في الغابة، استطعت

سماع صوت رقرقة خافتة لتيار صغير، وقد اخترقت أشعة الشمس مظللة الأغصان والأوراق.

بعد مسافة قصيرة، سمعت همهمة أصوات، ولمحت اللونين الأزرق والأخضر، ولمعة مقود فضي. كان كل من غاف السمين وميتال ميكي وهوبو يجلسون القرفصاء في مساحة خالية صغيرة، محاطة بأوراق الأشجار والشجيرات. كانوا قد بنوا بالفعل نصف وكر مثير للإعجاب من الأغصان المتشابكة المربوطة حول بروزٍ متشكل من فرع شجرة مكسور.

صاح غاف السمين: "هيه! إيدي مونستر هنا! الذي لكم والده والدي أنا".

كانت هذه طريقة غاف السمين الجديدة لترفيهنا هذا الأسبوع، نظم القوافي.

نظر هوبو إلى الأعلى ولوَّح بيده، أمَّا ميتال ميكي فلم يصدر أي ردة فعل. سلكت طريقاً من خلال الأشجار المتشابكة، ورميت دراجتي إلى جانب دراجاتهم، حيث علمت أنَّه يمكنني تمييزها بسهولة لأنها الأقدم ويكسوها الصدأ.

سألت: "أين نيكي؟".

هزَّ ميتال ميكي كتفيه. "لا أدري ربَّما تلعب بالدمى" ضحك على دعابته.

قال هوبو: "لست متأكداً من حضورها".

تأوهت.

لم أرَ نيكي منذ الحفلة، مع أنِّي أعلم أنها ذهبت إلى المتجر مع هوبو وميتال ميكي. بدأت أشعر أنَّها تريد تجنبي، ولم ألمها في ذلك، فلقد أساء والدي إلى والدها وأهانه أمام الجميع، لا بل طرحه أرضاً، كنت آمل رؤيتها اليوم، على أمل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها.

قال هوبو: "لابدَّ أن والدها كلفها ببعض المهام المنزلية" وكأنه خمن بماذا كنت أفكر.

"نعم، أو أنَّها غاضبة كثيراً من فعل والدك. خذ!" صدر هذا من ميتال ميكي مجدداً، الذي لا يستطيع أن يقاوم إثارة المشاكل.

فرددت عليه قائلاً: "لابدَّ أنه يستحق ذلك".

قال هوبو: "نعم، كان يبدو ثملاً".

فقلت في محاولة غير مبررة لتبرير تصرف الكاهن: "لم أعتقد أن الكهنة يشربون الكحول".

"ربما، يشرب في السر" قال غاف السمين وأمال رأسه إلى الخلف، وتظاهر أنه يشرب الكحول ودور عينيه وتمتم: "أنا الكاهن مارتن، سبحوا الله".

قبل أن يتمكن أي منا الرد، خشخشت الأشجار المتشابكة، واندفع سربٌ من الطيور من بين الأشجار. قفزنا مثل مجموعةٍ من الأرانب المذعورة.

فجأة انبثقت نيكي عند طرف التجويف، وكانت تمسك بكلتا يديها مقود الدراجة. شعرت أنها هناك منذ فترة من الزمن.

نظرت إلينا وسألت: "إذن لِمَ أنتم جالسون هنا؟ ظننت أننا سنبني وكراً؟"

بوجود خمسة أشخاص، لم يستغرق بناء الوكر وقتاً طويلاً. أمرٌ رائعٌ، كان كبيراً بما يكفي لنحشر أنفسنا جميعاً فيه، بالرغم من أنه كان علينا أن نحاول تقليص كتلة جسمنا قدر المستطاع، كما بنينا باباً من الأغصان المورقة لتغطية المدخل. لعلَّ أهم ميزة في هذا الوكر أنه محجوب عن النظر، ولا يمكن لأيٍّ كان تمييزه ما لم يدنُ منه كفاية.

جلسنا متربعين في الخارج. كان الطقس حاراً، ما أثار الحكة، ولكن كنا سعداء. كنا جائعين أيضاً فبدأنا بتناول شطائرنا. لم تقل نيكي شيئاً عن الحفلة، ولم أفتح الموضوع بدوري، تابعنا حياتنا بشكل طبيعي. هكذا تكون الأمور في الطفولة، يمكنك أن تنسى الأشياء ببساطة، لكن الأمر يغدو أصعب حين تكبر. هذه مشكلة الكبار فالصغار يتناسون بمحض إرادتهم ليحافظوا على أوثق العلاقات بينهما، بينما الكبار يتذكرون بكل ما أوتوا من قدرة ليدمروا أوثق العلاقات التي تجمع بينهم.

سأل غاف السمين نيكي: "ألم يصنع لك والدك شطيرة؟".

أجابته بخجل: "إنه لا يعلم أنني هنا. اضطررت للتسلل خارجاً".

قال هوبو: "خذي" كان قد أخرجَ شطيرتَي جبن من غلافهما، وأعطاهـا إياهما.

كنت أحب هوبو، ولكنّي كرهته تلك اللحظة، لأنه سبقني.

قال غاف السمين: "يمكنك أن تأخذي موزتي أيضاً، لا أحبُّ الموز".

فقلت بسرعة: "شاركيني عصيري" لأنّي لم أرد أن أبدو بخيلاً.

حشر ميتال ميكي شطيرة زبدة الفستق في فمه، ولم يعرض على نيكي أي شيء.

هزت نيكي رأسها وقالت: "شكراً، عليَّ العودة، سيلحظ والدي غيابـي إن لم أكن موجودة وقت الغداء".

فقلت: "ولكننا انتهينا للتوِّ من بناء الوكر".

فردت بوداعة الملائكة: "آسفة، لا أستطيع".

رفعت كمَّها وفركت كتفها. لاحظتُ حينها وجود كدمة كبيرة عليه.

سألتها: "ماذا حصل لكتفك؟".

أنزلت كمها مجدداً: "لا شيء، ارتطمت بالباب". وقفت بسـرعة "علـيَّ الذهاب".

وقفت أيضاً وسألت: "هل هذا بسبب الحفلة؟".

هزت كتفيها وقالت: "لا يزال والدي غاضباً كثيراً، ولكنه سينسى الأمر".

قلت: "أنا آسف".

فقالت لي وبدت خجلة مما ستقوله: "لا تأسف، يستحق ما حصل له".

أردت أن أقول شيئاً آخر، ولكني لم أكن متأكداً، وما أن فتحت فمي وقبل أن أتفوه بأي كلمة. ضرب شيءٌ ما جانب رأسي بقوة، شعرت بالعالم يهتـز حولي، وفجأة لم تعد ساقاي قادرتين على حملـي، فجثـوت علـى ركـبتيّ، وأمسكت رأسي بكلتا يدي، ويا للهول، شعرت بشيء لزج على أصابعي.

ثم حلق شيء آخر في الهواء، وكاد يصيب رأس نيكي. صرختْ وانحنتْ. قطعة أخرى كبيرة من الحجارة وقعت أمام هوبو وميتال ميكي، متسببة بتطـاير زبدة الفستق والخبز. زعقوا وهرعوا إلى الخلف، نحو غطاء الأشجار.

وما لبثت المقذوفات الحجرية أن أخذت بالتساقط، قطع من الصخور، وحجارة صغيرة، وبعض القرميدات، سمعت صراخاً وصياحاً من أعلى المنحدر فوق التجويف المشجر، نظرت إلى الأعلى، وتمكنت من رؤية ثلاثة فتية أكبر سناً على قمته. اثنان داكنا الشعر، وواحد أطول وأشقر. علمت من كانوا على الفور.

شقيق ميتال ميكي شون وصديقاه دنكن وكيث.

أمسك غاف السمين ذراعي وسألني: "هل أنت بخير؟".

شعرت بالدوار والغثيان قليلاً، ولكني أومأت بالإيجاب. دفعني نحو الأشجار وقال: "اختبئ".

التف ميتال ميكي وصرخ للفتية الأكبر سناً: "دعونا وشأننا، شون!".

صاح الشاب الأشقر (شقيقه): "اتركونا وشأننا.. اتركونا وشأننا" بصوت حادٍّ وأنثوي.

فرد عليه شون: "لِمَ؟ أتريد البكاء؟ هل ستذهب وتشكوني للماما؟".

فأجابه ميكي: "ربما".

صاح دنكن: "نعم، حاول ذلك بأنف مكسور. أيها المعتوه!".

فأجابه شون: "أنتم في غابتنا!".

صاح غاف السمين راداً عليه: "إنها ليست غابتكم، من قال إنها غابتكم؟".

عندها ظهرت نية شون عندما أجابه قائلاً: "حقاً؟ لنتقاتل عليها".

تمتم غاف السمين: "تباً".

صرخ كيث: "هيا لنلقنهم درساً!".

بدؤوا بنزول المنحدر، واستمروا بإلقاء الحجارة علينا.

طارت قطعة كبيرة أخرى من الحجارة في الهواء، وضربت دراجة نيكي وسحقتها.

فصرختْ: "هذه دراجتي يا أوغاد!".

فقال أحدهم: "هيه، إنها ذات الرأس النحاسي".

وقال آخر بطريقة مقرفة وبذيئة كوجهه: "يا ذات الرأس النحاسي، هل نما شعر عانتك أم بعد؟".

فما كان من نيكي إلا أن قالت: "اغربوا عن وجهي يا سفهاء".

فوصفها أحدث الثلاثة بما لا يليق بها وقال: "عاهرة".

اخترقت قطعة من القرميد مظلة الغصون وأصابتها في الكتف، فصاحتْ وترنحتْ.

عند هذا الحدّ، شعرت بمراجل غضبي تغلي، فالاعتداء الغاشم علينا، تقبلناه ورددنا عليه، ولكن ضرب فتاة برفقتنا غير مقبول، ولا تقبل به رجولتنا التي كانت براعمها على وشك التفتح، من الخطأ أن ترمي القرميد على الفتيات. أرغمت نفسي على الوقوف. حملت أكبر حجرة من الأرض، ورميتها باتجاه المنحدر بكل ما أوتيت من قوة.

لو لم تكن بذاك الثقل، ومحمولة بقوة دفعها، ولو لم يكن شون نزل نصف المنحدر وليس على قمته، لكنت أخطأت الإصابة بميل.

سمعت صرخةً، ليست صرخةً عاديةً. بل صرخةُ ألمٍ: "آه... عيني... أصابني اللعين في عيني".

كانت واحدة من تلك اللحظات التي تشعر فيها أن الزمن قد توقف للحظة. حدقنا بعضنا (أنا، غاف السمين، هوبو، ميتال ميكي، ونيكي)

صاح أحد الآخرين: "أيها الملاعين، سننال منكم عاجلاً أم آجلاً!"

قال هوبو: "لنخرج من هنا".

ركضنا إلى دراجاتنا. كنت أستطيع سماع صوت احتكاكٍ ولهاثٍ حين كانت العصابة تنزل المنحدر.

ذلك سيستغرق منهم بعض الوقت، ولكن كان لدينا نقطة ضعف، حيث علينا دفع دراجاتنا إلى خارج الغابة قبل الوصول إلى الطريق، فركضنا ونحن ندفع دراجاتنا بسذاجة عبر الأشجار المتشابكة. كنت أسمع الشتائم والخشخشة خلفنا، وليس على بُعد مسافة كافية. حاولت الإسراع. هوبو وميتال ميكي في المقدمة، نيكي سريعة أيضاً، أمَّا غاف السمين كان سريعاً بشكل مفاجئ بالنسبة إلى فتى ضخم، أضف إلى ذلك أنه بدأ قبلي. كانت رجلاي الأطول لكني لم أكن متناسقاً حركياً، وبشكلٍ ميؤوس منه، و لم أكن

جيداً بالركض. تذكرت نكتة قديمة كان والدي يلقيها عن مجاراة أسد "ليس مهماً أن تسبق أسداً، وإنما المهم أن تسبق أبطأ شخص... لسوء الحظ، كنت أنا الأبطأ".

خرجنا من ظلال الغابة إلى الشمس الحارقة. كنت أستطيع رؤية القائمة أمامنا، نظرت إلى الخلف، كان شون قد خرج من الغابة خلفنا بالفعل. عينه اليسرى متورمة وحمراء، والدم يسيل على خده. ولكن لم يتسبب ذلك في إبطاء سيره، يبدو أن الغضب والألم كانا يمنحانه مزيداً من السرعة بدلَ ذلك. كان وجهه غاضباً "سأقتلك أيها السافل".

استدرت إلى الخلف، ونبضات قلبي قوية وسريعة لدرجة أنِّي أحسست أنه سينفجر، رأسي ينبض، والعرق ينهمر على جبهتي، والملح يحرق عينيّ.

وصل هوبو وميتال ميكي إلى القائمة، ورميا دراجتيهما من فوقها، وقفزا بعدهما. تبعتهما نيكي، رمت دراجتها وتسلقت خلفهما مثل قرد رشيق. تسلق غاف السمين ورفع دراجته وجسده. كنت التالي، رفعت دراجتي ولكنها كانت قديمة، وأقدم من دراجات البقية، فعلقت؛ علق الدولاب بالقائمة، وعلق بعض الخشب بالمكابح.

"تباً".

دفعت الدراجة، سحبتها إلا أنها علقت أكثر. حاولت سحبها إلى الأعلى، ولكنِّي صغير، والدراجة ثقيلة، وكنت متعباً -بالفعل- من بناء الوكر والركض.

صرخ غاف السمين: "اتركها!"

كان ذلك عادياً بالنسبة إليه، مع دراجته السريعة اللامعة. لا بدَّ أنَّ دراجتي بدت مثل دلو من الهراء.

قلت وأنا ألهث: "لا أستطيع، إنَّها هدية عيد ميلاد".

استدار غاف السمين، ركض هوبو ونيكي عائدَين، بعد جزء من الثانية تبعهما ميتال ميكي. سحبوا من الجهة الأخرى ودفعت من الثانية، انحنى المكبح

وتحرر. ترنح غاف السمين للخلف، وجلجلت الدراجة على الأرض. رفعت رجلي على السور، وشعرت بأحد يجذبني بعنف من قميصي.

كدت أقع، ولكني تمكنت من إمساك عامود السياج. استدرت.

وقف شون خلفي، أمسك قميصي بقبضته، وابتسم من خلال تيارات الدماء والعرق، بدت أسنانه بيضاً من بين الدم الأحمر، واتقدت عينه السليمة بالغضب وقال: "ستموت أيها التافه".

بسبب الذعر الفطري، ركلته برجلي بكل ما أوتيت من قوة، فارتطمتْ بعضلة معدته النحيلة، فصاح من الألم وتلوى. ارتخت قبضته عن قميصي، فرفعت رجلي الثانية على القائمة وقفزت. سمعت صوت تمزق قميصي، لم يكن ذلك مهماً فأنا طليقٌ الآن. امتطى الآخرون دراجاتهم مسبقاً، حين وقفت على قدمي، ركضت بعيداً. أخذت دراجتي وقدتها، سرت على طول الجانب، ثم رميت نفسي على المقعد بسرعة، ودست بأسرع ما يمكن. هذه المرة لم أنظر إلى الخلف.

كانت حديقة الألعاب فارغة. جلسنا على لعبة الدوار، ورمينا دراجاتنا على الأرض. بدأ الأدرينالين بالانخفاض، كان رأسي ينبض، وشعري مبللٌ بالدم.

قالت لي نيكي بصراحة: "تبدو بحال سيئة".

فقلت لها: "شكراً، لقد رفعت معنوياتي".

كانت يدها مكشوطة الجلد في أكثر من مكان، وقميصها ملطخاً بالتراب. وأجزاء من الغصينات والنباتات عالقة في خصلات شعرها.

قلت: "وأنتِ أيضاً".

نظرت إلى نفسها: "تباً" وقفت وقالت: "سيقتلني أبـي".

اقترحتُ عليها: "يمكنك أن تأتي وتنظفي نفسك في منزلي؟".

قبل أن تجيب، قاطع غاف السمين: "لا، منزلي أقرب".

قالت نيكي: "أظن ذلك".

تذمر ميتال ميكي: "ما الذي سنفعله إذاً؟ لقد أفسدوا النهار".

تبادلنا جميعاً النظرات، مكتئبين قليلاً. كان محقاً، مع أنّي أردت القول: "إنّ أخاك الغبـــي كان سبب ذلك". ولكنّي لم أفعل. بدلاً من ذلك رن شـــيءٌ في ذهني، وسمعت نفسي أقول فجأة: "لدي فكرة رائعة لما سنفعل".

2016

لم أكن طاهياً جيداً، أنا مثل أمي في هذه الناحية. ولكن من يعيش بمفرده يجدر به امتلاك بعض مهارات الطبخ. يمكنني شي الدجاج والبطاطا، وطهي شرائح اللحم والباستا، ومختلف أنواع السمك، أما الكاري فما زلت أعمل عليه، لا يزال لدي متسع من الوقت، خصوصاً وأنني أعزب.

توقعت أن يكون ميكي قد أصبح من رواد المطاعم الراقية، ولكنه فاجأني عندما اقترح أن نلتقي في مطعمٍ في البلدة، ولكني أردت أن أراه في منزلي، لكي تكون لي الأفضلية. من الصعب رفض دعوة إلى العشاء دون أن يبدو المرء فظاً، مع أنّي متأكد أنّه قبلَ على مضض.

قررت أن أعدَّ السباغيتي بالفرن، إنها سهلةٌ ولذيذةٌ، والجميع يحبها عادةً. لدي زجاجة جيدة من الشراب، وبعض الخبز بالثوم في الثلاجة. سأحضر اللحم المفروم والصلصة حين تأتي كلوي قبل السادسة بقليل، فميكي لن يأتي قبل السابعة.

استنشقتْ بعمق "ممممم، ستجعل من امرأة ما زوجةً سعيدةً يوماً ما".

أجبتها بتحدّ: "على عكسك".

تظاهرت وكأنها الضحية، مشيرةً إلى نفسها "وكل ما أردته هو أن أكون ربة منزل".

ابتسمت، عادة ما تتمكن كلوي من جعلي ابتسم. إنّها تبدو جميلة... ليست كلمة مناسبة، إنّها تبدو ككلوي كثيراً هذه الأمسية. شعرها الداكن موزع على جديلتين، ترتدي بلوزة سوداء عليها صورة شخصية "جاك سكيلينغتون"، وتنورة زهرية قصيرة فوق بنطال أسود ضيق، وتنتعل حذاءً عسكرياً ذا أربطة ملونة. يبدو هذا مثيراً للضحك في ما لو كان على نساء أخريات، ولكنه بدا لائقاً بكلوي.

مشت نحو البراد وجلبت زجاجة بيرة.

سألتها وبدا سؤالي غير لائق: "ستخرجين هذا المساء؟".

أجابت بثقة: "لا، ولكن لا تقلق سأخفي نفسي حين يأتي صديقك".

فقلت لها: "لا داعي لذلك".

فردت قائلة: "لا، الأمر عادي، إضافةً إلى أنّي سأشعر بالضآلة حين ستتحدثان عن الأيام الخوالي".

فقلت لها مستسلماً: "حسناً".

كان الأمر كذلك، فكلما فكرت بالأمر أكثر، أرى أنه من الأفضل عدم وجود كلوي هنا. لست متأكداً أنّها تعلم بخصوص ماضينا أنا وميكي في أندربوري، ولكن مستحيل ألا يكون لديها فكرة فالصحافة غطت الأمر بشكل واسعٍ على مدى الأعوام. إنّها إحدى الجرائم التي تثير اهتمام الناس دوماً، فيها كلُّ شيء على ما أظن. بطل غريب، ورسوم طباشير غريبة، وجريمة قتل مروعة. لقد تركنا جميعاً بصمتنا في التاريخ، والتي أرى -بمرارة- أنّها أتت على شكل رجلٍ مرسومٍ بالطباشير. بالطبع، زُخرفت الوقائع على مدى الزمن، وتغيرت الحقيقة بشكلٍ كبير. ليس التاريخ سوى قصة، يرويها أولئك الناجون.

شربت كلوي البيرة بسرعة: "سأكون في غرفتي إذا احتجتني".

سألتها: "هل تريدين أن أدع لكِ بعض السباغيتي".

أجابت: "لا شكراً، تناولت الغداء في وقت متأخر، لذا لا أشعر بالجوع".

أجبتها: "حسناً".

ولكنها عادت وتراجعت قائلة: "أوه، حسناً. قد أكون جائعة لاحقاً".

تأكل كلوي أكثر مما يبدو عليها، فهي نحيفة جداً بحيث يمكنها الاختباء خلف عامود إنارة، كما أنها تأكل في ساعات غريبة. لطالما وجدتها في المطبخ، تتناول الباستا أو شطيرةً ما أو في بعض الأحيان والمقالي في ساعات مبكرة من الصباح. ولكني لست أفضل حالاً منها لأحكم على تصرفاتها بأنها غريبة فأنا أعاني من الأرق، وأمشي في نومي بعض الأحيان، لذلك لست الشخص المناسب لأحكم على عادات أحدٍ ما الليلية.

وقفت كلوي عند الباب، وعلى وجهها ملامح القلق.

وقالت: "إيدي إنني جادة في ما اقوله، إذا احتجت للتهرب، يمكنني أن أتصل بك على هاتفك المحمول، وألفق لك قصة تتيح لك التملص؟".

حدقت إليها: "إنّ صديقي القديم قادم لتناول العشاء معي، ليس موعداً مدبراً".

فردت عليّ: "نعم، ولكن كلمة (قديم) هي الكلمة الفعالة هنا. لم ترَ هذا الرجل منذ عقود".

قلت لها: "شكراً لتذكيري".

فعادت وطرحت نقطة أخرى أتبعتها بسؤال: "النقطة هي أنّكما لم تبقيا على تواصل، كيف تعرف أنه سيكون لديكما شيءٌ تتحدثان عنه؟".

فأجبتها كيفما اتفق: "حسناً، بعد كل هذا الوقت علينا أن نخبر أحدنا الآخر بالتطورات".

فعادت وطرحت سؤالاً جديداً: "ولكن لو كان لديكما شيءٌ يستحق الذكر، كنتما لتتحدثا به من قبل، أليس صحيحاً؟".

أستطيع تفهمها، ولكنها جعلتني أشعر بعدم الارتياح. بالرغم من صغر سنها تبدو كلوي خبيرة بالحياة، كما أنها تتمتع بقدرة رهيبة على طرح الأمور بطريقة منطقية يصعب تجاهلها.

أجبتها: "لا يفترض أن يكون هناك سبب وراء كل شيء يقدم عليه المرء، ولا أعتقد أن هذا اللقاء يشذ عن المبدأ الآنف الذكر".

أمسكت كوب الشراب، وسكبت القليل لتنكيه ما كنت أطبخه، وبعدها شربت نصف الكوب. كنت أشعر أنّها تراقبني. وهذا ما كان بالفعل، كانت تعد لإطلاق قنبلتها المدوية، التي كنت أتوقعها، ولكني لم أكن متأكداً من معرفتها بها.

قالت بتحدٍّ: "أعلم ما حصل قبل ثلاثين عاماً، جريمةُ قتلٍ".

ركّزت على تحريك السباغيتي: "حسناً. فهمت".

وتابعت تقول بثقة: "الأولاد الأربعة الذين وجدوا جثتها. لقد كنتَ أحدهم".

أجبتها من دون أن أنظر إليها: "لقد بحثتِ جيداً".

فقالت وقد جمعت بصوتها وداعة الحمل ومكر الثعلب: "إيد، أتيت لأعيش مع رجل غريب وحيد في بيت كبير ومخيف، بالطبع سألت بعض الناس عنك".

استرخيت قليلاً: "لم تذكري الأمر من قبل".

فقالت مبررة: "لم أرَ ضرورة لذلك، لا أعتقد أنك ترغب بالحديث عن ذلك".

استدرت وابتسمت بصعوبة: "شكراً لك".

فقالت: "لا داعي للشكر".

أنهت زجاجة البيرة، وقالت وهي ترميها في صندوق إعادة التدوير، بالقرب من الباب الخلفي: "أياً يكن الأمر، امضِ وقتاً جيداً. لا تفعل شيئاً لم أكن لأفعله".

فقلت لها: "مجدداً، إنه ليس موعد".

قالت بمرح: "نعم، أعلم أنه ليس موعداً، لأنه لو كان كذلك لكنت استأجرت طائرة، ودليت منها بفرح لافتة كتب عليها: أيها الناس إيد الأعزب لديه موعد ابتهجوا". قلت لها: "صدقيني، أنا سعيد كما أنا، شكراً لك".

فأجابتني كما لو أنها حكيمة هذا الزمان وتريد أن تسدي لي نصيحة: "كل ما أقوله هو أنَّ الحياة قصيرة".

قلت لها مهدداً: "إذا قلت لي مجدداً أن أنتهز اليوم، سأصادر كل البيرة".

فردت عليّ بشقاوة لا أظن أحداً غيرها يمتلكها: "لا تنتهز اليوم، بل حاول عن تبهج نفسك". غمزتني وتمايلت إلى خارج المطبخ، وصعدت السلالم.

مخالفاً لمنطقي الحكيم، سكبت لنفسي مزيداً من الشراب. كنت أشعر بالتوتر، وكان ذلك طبيعياً على ما أعتقد، إذ لم تكن لديَّ فكرة عما ينتظرني الليلة. نظرت إلى الساعة (6:30 مساءً). عليَّ أن أبدو بمظهر لائق عندما أقابل الناس، وخصوصاً إن كان من أقابله صديق الطفولة.

صعدت إلى الأعلى، استحممت وبدلت ملابسي، وارتديت بنطالاً رمادياً، وقميصاً أعتبره غير رسمي. مررت مشطاً في شعري، فعاد شعري للخلف بقوة

أكبر. بالنسبة إلى الشعر، شعري لديه مقاومة لجميع أشكال التصفيف. تخيلوا أنه حدثت معي معجزة فذات يوم قصصته أقصر ما يمكن، ونما بأعجوبة عدة إنشات في ليلة واحدة!!. بالرغم من كل مساوئ شعري، لا بدَّ من شكر الله على وجوده، فمن الصور التي رأيتها لميكي، لم يكن محظوظاً مثلي.

تركت المرآة ونزلت الدرج. في الوقت المناسب رن الجرس، وترافق الرنين مع قرعٍ عنيفٍ على طارقة الباب.

وقف الشعر التخيلي على ظهري. أكره أن يرن الناس جرس الباب، ويستخدموا الطارقة في الوقت نفسه، وكأنني لا أسمع، أو أن حاجتهم للدخول طارئة للغاية.

هدأت من روعي، ومشيت في الرواق. توقفت للحظة، ومن ثم فتحت الباب...

مثل هذه اللحظات تبدو أكثر درامية في الكتب، ولكن في الحقيقة الأمر مختلف. لا، ليس مختلفاً، بل مخيب للآمال بسبب تفاهته.

ما إن فتحت الباب حتى رأيت قبالتي رجلاً نحيلاً قصيراً في منتصف العمر- يا لغرابتي وكأنني أنا لا أزال في ريعان الشباب- اختفى شعر مقدمة رأسه، وكان شعره مقصوصاً قصة قصيرة جداً على الجوانب. ارتدى قميصاً يبدو غالياً، وبنطال جينز غامقاً، وانتعل حذاء من دون جوارب. لطالما اعتقدت أن الرجال يبدون سخيفين حين ينتعلون أحذية دون جوارب، وكأنهم ارتدوا ملابسهم على عجل في الظلام، وهم مصابون بدوار اليوم التالي بعد الثمالة. أعلم ما رآه، رجلٌ أطول من الطول الاعتيادي ونحيل، يرتدي قميصاً تظهر خياطته، وبنطالاً واسعاً مع شعر أشعث، وتجاعيد أكثر مما يملك الرجل العادي في الثانية والأربعين. ولكن في النهاية، عليك أن تتعب لتظهر تلك التجاعيد. ما من شيء تحصل عليه بسهولة في الحياة حتى التجاعيد، فأنت تحتاج لسنوات من الكد والتعب لتحصل عليها، ولكن الجيد بالأمر، أنك بمجرد أن تحصل عليها، لا تعود وتفقدها مجدداً، لذا فهي تستحق كل الجهد المبذول لاكتسابه؛ يا لك من أحمق كبير يا إيدي.

بادر قائلاً: "إيد. أنا مسرور بلقائك".

في الحقيقة، وددت أن أقول له الشيء نفسه، ولكنني لم أستطع، فاكتفيت بأن أومأت برأسي. قبل أن يتمكن من مدِّ يده، وأضطر لمصافحته، تنحيت جانباً وقلت: "أرجوك، تفضل بالدخول".

فقال بوداعة: "شكراً".

أرشدته قائلاً: "من هنا".

أخذت سترته، وعلّقتها على شماعة المعاطف في الرواق، وأشرت إلى الطريق نحو غرفة المعيشة، مع أنّي متأكد تماماً أن ميكي يتذكر موقعها.

أنا مصدوم -ربما بالمقارنة مع اللمعان العريق الذي يملكه ميكي- بسبب مظهر الغرفة المهترئ والمظلم. غرفة قديمة، يكسوها الغبار، يعيش فيها رجل لا يهتم كثيراً بالديكور.

سألته: "هل يمكنني أن أحضر لك مشروباً؟ لديَّ زجاجة ظريفة مفتوحة من شراب بارولو، وهنالك بيرة أو...".

فأجاب بسرعة: "البيرة جيدة".

قلت بفخر: "حسناً، لدي بيرة هاينكن".

أجاب: "أي شيء، أنا لا أحتسي الكحول عادةً".

فقلت: "حسناً".

بما أنه لا يشرب الكحول، يمكننا زيادة شيء آخر على قائمة الأشياء غير المشتركة بيننا.

قلت بسرعة بينما كنت أتوجه صوب المطبخ: "سأجلب زجاجة من البراد".

قفلت عائداً إلى المطبخ، جلبت بيرة هاينكن وفتحتها. ثم أخذت كأس الشراب خاصتي، وارتشفت رشفة كبيرة قبل أن أعيد ملأها من الزجاجة، التي أصبحت نصف فارغة بالفعل.

"لقد أجدتَ تحسين هذا المكان القديم".

تنبهت إلى أن ميكي كان واقفاً عند المدخل، وينظر في الأرجاء وتساءلت إن كان قد رآني وأنا أرتشف من الكأس وأعيد ملأها مجدداً، لا أدري لماذا يهمني الأمر.

قلت: "شكراً"، مع أنه يعلم أنّي قد فعلت القليل لهذا "المكان القديم".

قدمت إليه البيرة.

سألني وبدا أن سؤاله يخفي في طياته شيئاً ما: "لا بدَّ أنَّ مكاناً قديماً كهذا يستنزف كثيراً من المال؟".

فأجبته: "صحيح، ولكن ليس بالقدر الذي تتخيله، فأنا لا أقوم سوى بالأشياء الضرورية".

عبّر عما يريده بقوله: "أنا متفاجئٌ أنك لم تبعه".

فرددت عليه موضحاً: "صحيح إنه كبير وقديم ويحتاج إلى كثير من الصيانة المكلفة، ولكن هناك روابط عاطفية لا يمكن للإنسان أن يتخلى عنها بسهولة لا لشيء إلا لأنه يريد توفير بعض المال".

أخذت رشفة من شرابي، وارتشف ميكي من البيرة. وصمتنا وطال الصمت أكثر من اللازم، وتحول الصمت إلى إرباك، فصديقان مر وقت طويل على آخر لقاء بينهما، يجلسان أحدهما قبالة الآخر ولا يتكلمان بالرغم من أن أحدهما هو من طلب اللقاء.

قطع ميكي الصمت وسألني مستفسراً: "سمعت أنَّك مدرس؟" أومأت بالإيجاب. "نعم، لأكفر عن أخطائي".

فسألني مستغرباً: "هل تستمتع بذلك؟".

فرددت من دون مبالاة: "معظم الوقت".

في الحقيقة، وبالرغم من كل ما يقال عن مهنة التدريس، إلا أنني أحبها، فانخراطي بهذه المهنة، لم يكن عن عبث، صحيح أنه كانت لديّ خيارات أخرى إلا أنني أردت أن أعمل في التدريس وأترك بصمة في حياة الطلاب، أردت أن أدرسهم، وأن يشعروا بالاستمتاع وهم يدرسون، وأن يغادروا صفي وقد تعلموا أشياء يستفيدون منها في حياتهم، ربما يذكرونني بالخير يوماً.

ولكنني مثل كل البشر، لا أتمتع بالمثالية دائماً، وخصوصاً في الأيام التي أكون فيها متعباً، وربما مصاباً بالدوار الذي يلي ليلة من الثمالة، فتراني أتبرع بتوزيع العلامات الجيدة على الطلاب فقط حتى أسكتهم، ويبتعدون عني

ويتركوني وشأني ريثما أرتاح.

هزَّ ميكي رأسه: "مضحك، ظننت أنك ستصبح كاتباً مثل والدك. كنت جيداً في اللغة الإنكليزية".

مجدداً إن لم أقم بالمقارنات مع أبي يأتي أحدهم ويطرح الموضوع، فهذه المرة لا علاقة لي بالمقارنات

أجبته وأردت أن أمتدحه قليلاً: "وأنت دوماً تجيد اختلاق الأشياء، أعتقد أن هذا السبب وراء عملك في الإعلان".

ضحك بشيء من الامتعاض... صمتٌ آخر... أتظاهر بتفقد السباغيتي.

قلت له قاطعاً الصمت: "أعددت بعض السباغيتي، أرجو أن يكون ذلك مناسباً؟".

فأجابني بسرور مصطنع: "نعم، رائع!".

تقدم إلى الطاولة، وأصدر الكرسي صوتاً عندما جلس عليه.

بدا ممتناً لما قمت به من إعداد للطعام وقال: "شكراً لتكبدك هذا العناء، كان بإمكاننا تناول وجبة في الحانة".

سألته بحذق: "لا تعني حانة ذا بول، أليس كذلك؟".

تغضّن وجهه، عندما رنت عبارة ذا بول في أذنيه: "أفترض أنك أخبرهما عن زيارتي" وما يقصده بـ "هما" أي هوبو وغاف على ما أظن.

فرددت عليه بحذر: "في الواقع لا، لم أفعل، ولكن هوبو قال إنَّه التقى بك منذ أيام في البلدة، لذا...".

هز كتفيه. "حسناً، لم أكن لأبقي الأمر سراً".

فسألته وأنا أكظم حنقي: "إذن لم طلبت مني ألا أخبرهما؟".

فأجابني بما ظننتها إجابة صادقة: "أنا جبان. بعد الحادثة، وكل ما حصل... جعلني أعتقد أن أياً منهما لا يريد التواصل معي".

قلت: "ألا تعرف، الناس يتغيرون، كان ذلك منذ زمن بعيد".

هذه أيضاً كذبة، ولكنها أفضل من قولي:

أنت محق، لا زالا يكرهانك كثيراً، وتحديداً غاف.

"أعتقد ذلك" ارتشف رشفات من البيرة. بالنسبة إلى شخص لا يشرب كثيراً بدا متمرساً.

أحضرت له قنينة أخرى من البراد، ووضعتها على الطاولة أمامه. "ما أقوله هو أنّنا جميعاً قمنا بأشياء لا نفتخر بها في الماضي".

فرد ممتدحاً إياي: "عداك أنت".

قبل أن أتمكن من الرد، سمعت صوت صفيرٍ خلفي، كانت السباغيتي تغلي، فهرعت لإطفاء الغاز.

سألني ميكي: "هل تحتاج إلى مساعدة؟"

فأجبته: "لا، الأمور على ما يرام".

رفع البيرة وقال: "شكراً، أرغب في التحدث معك، لديّ عرض لك".

وبدأت تتكشف الغاية من وراء هذه الزيارة، فلم يكن من المنطقي أن يتجشم ميكي عناء العودة إلى البلدة، وأن يعرّض نفسه لعدائية غاف لو لم يكن الأمر يستحق.

"أوه؟".

وميكي الذكي قرأ في عيني السؤال الذي لم أطرحه وقال: "لا بدَّ أنَّك تتساءل عن سبب عودتي؟".

فأجبته بمرح: "ربما طبخي الأسطوري!؟".

قال بصوت خافت وإنما حازم: "سيكون مضى ثلاثون عاماً هذا العام، إيد".

فأجبته باقتضاب: "أدرك ذلك".

تابع بصوت بدا وكأنه يسعى من خلاله لإقناعي: "هناك بالفعل اهتمام من وسائل الإعلام".

فأجبته بغير مبالاة: "لا أهتم كثيراً بوسائل الإعلام".

قال مجارياً إياي: "معك حق، فمعظم ما يتداول في وسائل الإعلام لا يعدو كونه إشاعات وترهات وفي أحسن الأحوال أخباراً غير دقيقة. وهذا ما يجعل ما أتيت من أجله ضرورياً، يجب أن يخبر أحد القصة الحقيقية. واحد عاش التجربة".

سأله: "أحد مثلك؟".

فأومأ وقال: "وأحتاج مساعدتك".

سألته مستفسراً: "بمَ تحديداً؟".

فأجابني قائلاً: "أريد تأليف كتاب يتناول الموضوع، وربما شيء له علاقة ببرنامج تلفازي يتحدث عن الأمر، لديّ معارف كثيرون في عالم الإعلام، وستتمكن من تحقيق نتائج منقطعة النظير، فضلاً عن أنني قمت بأبحاث كثيرة عن الأمر وكشفت كثيراً من الأشياء الغامضة".

حدَّقت إليه وهززت رأسي وقلت بحزم: "لا، لن أساعدك، ولا علاقة لي بما تريد القيام به".

فقال محاولاً تغيير رأيي: "فقط، اسمعني".

أجبته بحزم أكثر: "لست مهتماً، لا رغبة لدي بنبش القصة مجدداً".

فقال وقد بدأ صبره ينفد: "ولكني أرغب" رمى زجاجة البيرة. "انظر، حاولت لسنوات ألا أفكر بما حصل. كنت أتفادى الموضوع، وأبعده عني، ولكني قررت أن الوقت قد حان لمواجهة كل ذلك الخوف والذنب، والتعامل مع الأمر".

بالنسبة إليّ، كان الأمر محسوماً ومنذ وقت طويل، فقد توصلت إلى قناعة تامة، أنه لكي أشعر بالراحة والطمأنينة لا بد من وضع كل المخاوف في صندوق وإحكام إغلاقه، وإيداعه في أعمق زاوية من الدماغ وأكثرها ظلمة، ونسيان أمره. ولكن يتبين لي من خلال ما يقوله ميكي أن لدى البعض رأياً مختلفاً حول الأمر.

سألته مستوضحاً: "وماذا عنا؟ هل فكرت إن كنا نريد مواجهة مخاوفنا، وأن نعيد كل ما حصل؟".

فأجابني: "أعلم ما تقوله، أعلم حقاً، وهذا سبب رغبتي بمشاركتك، ليس فقط من ناحية الكتابة".

سألته محاولاً فهم ما يرمي إليه: "ماذا تعني برغبتك مشاركتي ليس بالكتابة فقط؟".

فأجابني موضحاً، وبدا أنه يشعر بالارتياح لأنه تمكن من استدراجي إلى ما يريد: "لم أعد إلى هذا المكان منذ أكثر من عشرين عاماً، عدت كالغريب، ولكنك ما زلت تعيش هنا. أنت تعلم، الناس يثقون بك...".

سألته: "تريدني أن أمهد للأمر مع غاف وهوبو؟".

فوضح لي قائلاً: "لن تقوم بذلك من دون مقابل. سيكون لك حصة من العائدات".

ترددت، اعتبر ميكي ترددي تحفظاً، وبطريقة خبير الإعلانات ظن أن الوقت مناسب ليشدد الضغط عليّ.

وقال: "وهنالك أمر آخر".

فسألته: "ما هو؟".

ابتسم، وأدركت في لحظة أن كل ما قاله حول العودة، ومواجهة المخاوف مجرد هراء، كومة من رعاة البقر النتنين.

لكنه ألقى بما لم أظن أنني سأسمعه يوماً: "إنّي أعلم من قتلها".

1986

كانت العطلة الصيفية توشك على الانتهاء، وشأن كل الأولاد، كانت العودة إلى المدرسة كابوساً.

قال غاف السمين بإحباط: "بقيَ ستة أيام فقط".

فقلت بعفوية أعلم أنها زادت من إحباطه: "وهذا يشمل عطلة نهاية الأسبوع التي لا تحتسب، ولذا في الواقع هي أربعة أيام فقط".

شاركته إحباطه، ولكنِّي حاولت جاهداً إبقاء فكرة العودة إلى المدرسة خارج ذهني. ستة أيام، كانت بالفعل ستة أيام، وكنت أتكل على هذا لأكثر من سبب واحدٍ. إلى الآن، لم ينفذ شون كوبر تهديداته.

منذ الشجار في الغابة، التقيت بشون كوبر عدة مرات في البلدة، وتمكنت في كلٍ منها من التواري عن الأنظار قبل رؤيته لي. لا تزال الكدمة الكبيرة ظاهرةً حول عينه اليمنى، وبدا الجرح سيئ المظهر. مثل تلك الجروح التي سترافقه حتى سنوات رشده، إذا تمكن شون حقاً من الوصول إلى مرحلة الرشد.

اعتقد ميتال ميكي أنه نسي أمري، لكنِّي لم أعتقد ذلك. كان تجنبه خلال عطلة المدرسة سهلاً، فالبلدة كبيرة بما فيه الكفاية. ولكن عند عودتنا جميعاً إلى المدرسة، سيغدو تجنبه كل يوم -في وقت الغداء، في الباحة، في طريق الذهاب والعودة من المدرسة- صعباً للغاية.

كنت قلقاً حيال أمور أخرى أيضاً، إذ يعتقد الناس أن حياة الأطفال خالية من الهموم، ولكن هذا ليس حقيقياً، فهموم الأطفال أكبر لأننا أصغر. كنت قلقاً حيال أمي، فمزاجها أصبح حاداً مؤخراً، تغضب بسرعة أكثر من المعتاد. قال والدي إنَّ ذلك بسبب توترها من افتتاح العيادة الجديدة.

كانت أمي تسافر للعمل في ساوثمبتون، ولكنها قررت أن تفتتح عيادة لها في أندربوري، بالقرب من كلية التكنولوجيا. كان المبنى يُستعمل لشيء آخر -

نسيت ما هو- ولكنَّه من المباني التي يسهل نسيان أمرها، أعتقد أن هــذه هــي النقطة، إذ لم يكن هناك لوحةٌ حتَّى. في الواقع، لو مشيت بالقرب منـه سـتمر دون أن تلحظ وجوده، لولا وجود ناس يتسكعون خارجه.

كنت أقود دراجتي عائداً من السوق حين رأيتهم. كان هنالـك مجموعـة مؤلفة من حوالي خمسة أشخاص، يمشون في دائرة حاملين لوحـات، يغنـون ويرددون الشعارات. كُتب على لوحاتهم "اختـاروا الحيـاة"، "أوقفـوا قتـل الأطفال"، "الأطفال يعانون".

تعرفت إلى عدد منهم؛ امرأة كانت تعمل في السوبر ماركت، وصـديقة فتاة والتزر الشقراء في المعرض. بشكل مثير للدهشة، لم تصب الفتاة الشـقراء بأي أذى ذاك اليوم. جزءٌ صغير من دماغي - جزءٌ غير لطيف جداً - اعتقـدَ أن ذلك غير منصف. لم تكن جميلة مثل فتاة والتزر، و لم تكن لطيفة كما تبين لي. حملتْ إحدى اللوحات، ومشت خلف الشخص الآخر الـذي عرفتـه؛ الكاهنِ مارتن. كان يرنم بصوت عالٍ، وهو يحمل إنجيلاً مفتوحاً، ويقرأ منـه سطوراً.

أوقفت دراجتي لأشاهدهم. بعد الشجار الذي حصل في حفلـة غـاف السمين، تحدث والدي معي قليلاً، وعرفت المزيد عمَّا حصل في عيـادة أمـي. ولكن مع ذلك -بعمر الثانية عشرة- لا يمكنك اسـتيعاب شـناعة موضـوع كالإجهاض. كنت أعلم أن أمي تساعد النساء اللواتي لا يستطعن أو لا يـرغبن بإتمام الحمل لسبب أو لآخر، ولا أظن أنِّي أردت معرفة المزيد.

ولكن، حتى كطفل، استطعت الإحساس بالغضب الذي شعر به هـؤلاء المتظاهرون. هناك شيءٌ ما في أعينهم، وفي البصاق الذي تطاير من أفواههم، وفي الطريقة التي لوَّحوا بها بلوحاقم، وكأنها أسلحة. كانوا ينشدون كثيراً من الأمور حول الحب، ولكنَّهم بدوا مليئين كرهاً.

قدت دراجتي إلى المنزل بسرعة. كان المنزل هادئاً، ووالدي ينشر شيئاً مـا في مكان ما، وأمي في الطابق العلوي تعمل. أخرجت المشتريات ووضعتها بعيداً، تركت الفكة على الجانب. أردت التحدث معهما حول ما رأيت، ولكنهما كانا

مشغولين. تمشيت خارجاً دون وجهة معينة، عبر الباب الخلفي. حينها لاحظت الرسم بالطباشير في ممر السيارة.

كنا نرسم الأشكال الطباشيرية، وغيرها من الرسوم لفترة من الزمن حينها. عندما تكون طفلاً، تشبه الأفكار إلى حد ما البذور المنثورة في الهواء: قد لا يصل البعض منها، ويحملها النسيم بعيداً، وتُنسى ولا تُذكر بعدها مجدداً. والبعض الآخر مثل الجذور، تحفر طريقها للأسفل وتنمو وتنتشر.

كانت رسوم الطباشير مثل تلك الأفكار الغريبة التي تراود الجميع. أعني، من الواضح أن أول الأشياء التي كنا نرسمها كانت أشكال الرجال البسيطة، مع أعضاء ذكرية كبيرة في الحديقة، ونكتب "اغربْ عن وجهي" كثيراً، ولكن خطرت لي مرة فكرة أن نستخدمها لنترك رسائل سرية بيننا. حسناً، أعتقد أنه حينها نما للرجال الطباشيريين أرجلاً خاصة بهم.

كان لكلٍّ منا لونه الخاص من الطباشير، وهكذا نعلم من ترك الرسالة. كانت الرسوم المختلفة تعني أموراً مختلفة، فشكل إنسانٍ مع دائرة، كان يعني لنلتقِ في حديقة الألعاب، أما عندما نرسم مثلثاً مع عدد من الخطوط فكان يعني الغابة، وهناك رموز للقاء في المتاجر، ومراكز الترفيه، كما لدينا إشارات للتحذير من شون كوبر وعصابته. أعترف أن معظم الإشارات كانت تعني كلمات نابية أيضاً، ولذا كنا نكتب: *اغرب عن وجهي* وأشياء أسوأ خارج منازل الناس الذين نمقتهم.

هل أصبحنا مهووسين قليلاً بذلك؟ نعم، ولكن هذا ما كان الأولاد يفعلونه. يُصابون بالهوس بأشياء لعدة أسابيع أو أشهر، ثم يستهلكون الفكرة كثيراً حتى تصبح بالية، ولا يمكن اللعب بها مجدداً على الإطلاق.

أذكر الذهاب إلى ووليز ذات يوم لشراء المزيد من الطباشير. كانت سيدة الشعر المجعد خلف الصندوق، نظرت إليّ نظرة غريبة، وتساءلت إن كانت تشك بأني كنت أحمل علبة أخرى من الطباشير مخبأة في حقيبتي، ولكنها قالت: "أنتم أيها الأولاد تحبون الطباشير، أليس كذلك؟ أنت ثالث فتى يأتي اليوم. ظننت أن الرائج في هذه الأيام ألعاب مثل دونكي كونغ وباك مان".

كانت الرسالة في ممر السيارة مكتوبة باللون الأزرق، وهذا يعني أنها من ميتال ميكي. رجل وإلى جانبه دائرة، وعلامة تعجب (والتي تعني تعالَ بسرعة). فكرت أنه من الغريب أن يطلب ميتال ميكي لقائي، فعادةً ما يختار غاف السمين أو هوبو أولاً، ولم أرد المكوث في المنزل ذاك اليوم، لذا أبعدت شكوكي، وصرخت من الباب: "أنا ذاهب للقاء ميتال ميكي". أطبقت الباب، وانطلقت بدراجتي.

كانت حديقة الألعاب فارغة. مجدداً، لم يكن ذلك غريباً، فهي معظم الأحيان فارغة. كان هنالك كثير من العائلات في أندربوري والكثير من الأطفال الذين قد تعتقد أنّهم يرغبون بركوب الأرجوحة، ولكن معظم الأهالي يأخذون أطفالهم إلى حديقة ألعاب أخرى أبعد.

كان ميتال ميكي يعزو عدم رغبة أحد بالذهاب إلى حديقة الألعاب إلى أن هناك شائعة متداولة على نطاق واسع بين الناس أنها حديقة مسكونة. فقد حدث أن قتلت فتاة فيها ولا تزال روحها تسكن أرجاء الحديقة، لقد تركت هذه الشائعة حديقة الألعاب شبه فارغة. وللأسف لم يحاول أحد التأكد من صدق هذ الشائعة، ولكن هذه حال الشائعات دائماً، ما أن تسري بين الناس لا يعود أحد ليهتم إن كانت حقيقية أم لا.

وحسبما تفيد الشائعة فقد عثر على فتاة بالقرب من لعبة الدوار، وكانت مذبوحة، ويبدو أن القاتل أعمل السكين برقبتها حتى كاد يفصل الرأس عن الجسد، كما أنه قام ببقر بطنها، وبدت أحشاؤها متدلية مثل النقانق. للحقيقة، لم أجد شبح هذه الفتاة في الحديقة يوماً، فجماعتنا غالباً ما كانت تلتقي في الحديقة وتحديداً عند لعبة الدوار.

يجيد ميتال ميكي إلقاء القصص، عليك أن تعترف بذلك، وكلما كانت أكثر قرفاً كانت أفضل، لكنها مجرد قصص في النهاية. كان دائماً يختلق الأمور، مع وجود بعض الحقيقة في ذلك في مكان ما.

من المؤكد أن هناك شيئاً غريباً بشأن حديقة الألعاب، فهي مظلمة دائماً، حتى في الأيام المشمسة، لعلَّ ذلك بسبب أغصان الأشجار المتدلية، وليس بسبب

شيء له علاقة بالشائعة، ولكن كنت أصاب بقشعريرة حين جلوسي على لعبة الدوار أو أشعر بحاجة ملحة للنظر خلفي، وكأنّ شخصاً ما ينظر من وراء كتفي. عادة، لم أكن أذهب إليها وحدي.

اليوم، فتحت البوابة الصدئة، وشعرت بالانزعاج لأن ميتال ميكي لم يكن هنالك بعد. وضعت دراجتي على السياج، وشعرت بأولى بوادر عدم الارتياح. عادة لا يتأخر ميتال ميكي، وكأن هناك خطباً ما. حينها سمعت صرير البوابة مجدداً، وقال صوت من خلفي: "مرحباً أيها الأحمق".

نظرت حولي، وأتت قبضة ولكمتني على جانب رأسي.

فتحت عينيَّ. وإذ بشون كوبر يقترب مني، كان وجهه مظللاً، فلم أستطع إلا رؤية خياله، ولكني كنت متأكداً من أنه يبتسم، وليس بطريقة جيدة، إذ لم يكن أي من هذا جيداً.

سألني والغضب بادٍ عليه: "هل كنت تتجنبنا؟".

تتجنبنا؟ من موقعي وأنا مستلقٍ على الأرض، حاولت أن أدير رأسي لليسار واليمين. لم أرَ سوى زوجين من أحذية الكونفرس المتسخة، لم أحتج لأن أرى وجهيهما لأعرف أنهما دنكن وكيث.

نبضت عروق رأسي، وشعرت بقلبي يغور. لاح وجه شون بالقرب، فشعرت بيده وهي تمسك قميصي، وتشده حول عنقي: "لقد أذيت عيني اللعينة يا تافه". هزني مرة أخرى وارتطم رأسي بالإسفلت. "لم أسمع اعتذارك بعد؟".

فلم يكن أمامي إلا أن أسرع بالاعتذار عل ذلك ينقذني فقلت: "أنا... آااسف" خرجت العبارة بشكل غريب ومشوه. فقد كنت أتنفس بصعوبة.

سحبني شون نحوه، فارتفع رأسي عن الأرض، وضاق قميصي حول عنقي.

"آااسف!" قالها بصوت متذمر وحاد. نظر نحو دنكن وكيث، اللذين رأيتهما الآن، متكئين على إطار التسلق. "هل سمعتما هذا التافه؟ قال آااسف!".

ضحكا. قال كيث: "لا يبدو أنه آااسف حقاً".

وافقه دنكن الرأي: "لا، يبدو أنه تافه صغير".

اقترب شون أكثر، حتّى استطعتُ شمَّ رائحة السجائر من أنفاسه. "لا أعتقد أنك تعني ذلك يا تافه".

فأجبته قبل أن ينهي جملته: "لكنّي أفعل..."

قال ساخراً: "لا، لكن لا بأس، لأننا سنجعلك آااسفاً بالفعل".

شعرت بمثانتي ترتخي. كنت محظوظاً أنه يوم حار، وكنت أتعرق، فلو كنت أملك أونصة من الماء الزائد في جسدي لتدفقت وغطت سروالي.

جذبني شون بعنف من قميصي لأقف على رجلي. حككت حذائي الرياضي لأثبت نفسي على الإسمنت كيلا أختنق، ثم دفعني إلى الخلف، باتجاه إطار التسلق. شعرت بدوار وكدت أقع، ولكن قبضته الحازمة أبقتني واقفاً.

حدقت بيأس إلى الحديقة، ولكنّها كانت فارغة عدا شون وعصابته، ودراجاتهم الجبلية اللامعة، المتروكة قرب الأراجيح. يمكنك التعرف بسهولة إلى دراجة شون. كانت حمراء زاهية، مع جمجمة سوداء مطبوعة على الجانب. عبر الشارع، هناك سيارة وحيدة زرقاء، مركونة في موقف السيارات الصغير، ولا دليل على وجود أحدٍ في داخلها.

وبعدها رأيت شيئاً؛ شكلاً ما في الحديقة، لم أستطع تماماً معرفة ماهيته، ولكنه بدا...

قال بحدة: "هل تسمعني يا تافه؟".

دفعني شون بقوة نحو قضبان إطار التسلق، فارتطم رأسي بالمعدن، وزاغ نظري. اختفى الشكل، اختفى كل شيء للحظة. رأيت ستائر رمادية تنسدل أمام عيني، رجفت ساقاي، اقتربت هوة من الظلمة، وشعرت بصفعة قوية على خدي، وواحدة أخرى. اهتز رأسي جانبياً، ولسعني جلدي. انفتحت الستائر مجدداً.

كان شون يتبسم أمام وجهي. أراه بشكلٍ واضح الآن، شعره الأشقر الكثيف، الندبة الصغيرة فوق عينه، عيناه الزرقاوان مثل عيني أخيه، ولكنهما لمعتا لمعة مختلفة، لمعة باردة، قاسية، وجنونية.

قال: "جيد، الآن أملك انتباهك الكامل".

سدد لكمة قوية نحو معدتي، فخرج كل الهواء من داخلي. ترنحتُ و لم أستطعِ حتى الصراخ. لم أُضرب من قبل بشكلٍ حقيقي، وكان الألم رهيباً وهائلاً. شعرت و كأن أحشائي تتمزق.

أمسكني شون من شعري، وجذب رأسي إلى الأعلى. تدفقت السوائل من عينيَّ ومن أنفي.

"أوه، هل آذيتك يا تافه؟ المسألة كالتالي: لن أضربك مجدداً إن أريتنا كم أنت آااسف؟".

حاولت أن أومئ برأسي، مع أن ذلك كان مستحيلاً، لأن شون يمسكني بقوة من شعري، لدرجة أن جذوره كانت تؤلمني.

فسألني بتشفٍ: "هل تعتقد أنك تستطيع فعل ذلك؟".

أومأت مرة أخرى بشق الأنفس.

فقال آمراً: "حسناً، اركع على ركبتيك".

لم يكن لديَّ خيار، أجبرني على الركوع ضاغطاً على رأسي. تقدم كل من دنكن وكيث ليمسكا ذراعي.

احتكت ركبتاي بإسمنت أرضية الحديقة. لسعني الألم، ولكن لم أتجرأ على الصراخ، إذ كنت خائفاً أكثر من قدرتي على ذلك. حدَّقت إلى الأسفل بحذاء شون الرياضي من نوع نايكي، سمعت صوت فك حزام وسحاب، وعلمت فجأة إلى أين كان يتجه الأمر، فغلبني الخوف والذعر والاشمئزاز دفعة واحدة.

صارعت وأنا أقول: "لا"، ولكن دنكن وكيث أمسكاني بقوة.

أمسك شون برأسي وجذبني بقوة وقال: "أرني كم أنت آسف يا تافه. العق". ضاقت بي الدنيا، ووجدت نفسي ارتجف من القرف وكنت أحدق إليه، بدا كبيراً، وزهرياً ومتورماً وذا رائحة أيضاً، رائحة العرق، وشيء ما متعفن. هناك شعر أشقر مجعد ومتشابك في الأسفل.

للحظة حزمت أمري، لن أخضع وليفعلوا ما شاؤوا، أنا ألقيت حجراً على عينه فليلقِ حجراً ونصبح متساوين، أما ما يريدني أن أقوم به فمستحيل، الموت أرحم، لن أدعه، يحطمني، فما يريده ليس اعتذاراً بل تحطيم كامل لي.

أطبقت أسناني بقوة، وحاولت أن أهز رأسي مجدداً. لكن شـون كـان مصمماً، فدفعه نحوي، ووضعه على شفتيَّ، فسرت الرائحة في فتحتي أنفي. أطبقت فكي بشكل أقوى.

أمرني: "العقه".

أمسك دنكن ذراعي ولفها إلى الأعلى خلف ظهري. فصرخت من الألم، فاستغل شون الوضع وأدخله في فمي.

وقال بغضب ممزوج بنشوة الانتصار: "العق أيها اللعين الصغير".

لم أستطع التنفس. كدت أتقيأ، وسالت الدموع والمخاط على ذقني. ظننت أنِّي سأتقيأ، ولكن حينها سمعت صوت رجل يصرخ من بعيد:

"هيه! ماذا تظنون أنكم تفعلون؟"

شعرت بالقبضة على رأسي ترتخي. ابتعد شون، وأخرجه من فمي، وأعاده إلى مكانه، وأُفلتت ذراعي.

صرخ الصوت الذي بدا لي أنه صوت رجل: "سألتكم ما الذي تفعلونه بحق الجحيم!"

أغمضت عينيَّ، وفتحتهما بسرعة. استطعت أن أرى من بين الدموع والغشاوة، رجلاً طويلاً شاحباً، واقفاً عند جانب حديقة الألعاب، إنَّه السيد هالوران.

قفز عن السياج، واتجه نحونا. كان يرتدي زيه المعتاد المؤلف من قميص كبير وفضفاض، مع سروال جينز ضيق، وحذاء طويل الساق. اليوم كان لون القبعة التي يعتمرها رمادياً، وشعره الأبيض يتدلى من الخلف. تحتها، كان وجهه مثل الحجر أو الرخام. وعيناه تتقدان بالغضب، بدا مخيفاً للغاية.

سمعت شون يقول بغطرسة أقل الآن: "لا شيء. لم نكن نفعل شيئاً، كنا نعبث فقط".

فسأله والشرر يتطاير من عينيه: "تعبثون فقط؟".

فأجابه وقد اختفت الغطرسة من نبرة صوته: "نعم سيدي".

وقعت عينا السيد هالوران عليَّ، وفجأة أصبحتا ألطف، اقترب مني ووضع يده على كتفي بلطف، وسألني مطمئناً: "هل أنت على ما يرام؟".

وقفت وأومأت بالإيجاب: "نعم".

سألني بطريقة استجوابية: "إيدي، قل ولا تخشَ أحداً، هل صحيح أنكم كنتم تعبثون فقط؟".

نظرت إلى شون، فرمقني بنظرة، علمت مغزاها؛ فقد قالت عيناه ما لم يتفوه به لسانه: أنت تعلم اليوم أنك وقعت بأيدينا وأتى هذا الرجل وأنقذك، ولكن إن قلت أي شيء الآن، ستقع مرة أخرى بين يدينا ولن تجد من سينقذك، هذه المرة اعتذرت بهذه الطريقة، ولكن في المرة التالية لن يكفيني اعتذاراً إلا أن أجدك مسجى في صندوق خشبي في صالة الكنيسة. في الحقيقة، كان تهديده يعني إن تفوهت بكلمة واحدة فلن تغادر منزلك مرة أخرى، وإن غادرت فإلى المقبرة فوراً. فوجدت بعد تحليل سريع للوضع أن السكوت أفضل فربما ينهي الأمر. ولكن كرامتي كانت قد أهينت، وكانت بقة سوداء بدأت تتكون في قلبي، وكنت قد عزمت الأمر على الانتقام، عندما تحين الفرصة.

أومأت مجدداً: "نعم سيدي، نعبث فقط".

استمر بالتحديق إليّ. نظرت إلى الأسفل، شعرت بالجبن والغباء والضآلة.

في النهاية، استدار وخاطب شون وصحبه: "حسناً، لست متأكداً مما رأيته، وهذا هو السبب الوحيد الذي يمنعني من أخذكم إلى مركز الشرطة. اخرجوا من هنا حالاً، قبل أن أغير رأيي".

بتلعثم قالوا معاً: "حاضر سيدي". يا لوداعتهم ولطفهم، كأن براءة الأطفال في أعينهم. وتكونت لدى الطفل عديم الخبرة القناعة التالية: كل قوي هناك أقوى منه.

شاهدتهم، وهم يركبون دراجاتهم، ويقودونها مبتعدين سريعاً. استمر السيد هالوران بالنظر إليهم، ظننت للحظة أنه نسي وجودي، ثم استدار نحوي من جديد. وسألني محاولاً الاطمئنان عليّ وبعث الطمأنينة في نفسي: "إذن هل أنت حقاً على ما يرام؟".

شيءٌ ما في ملامحه، في عينيه، حتى في صوته، منعني من الكذب مرة أخرى.

هززت رأسي، وشعرت بالدموع تهددني بالانهمار.

زمَّ شفتيه، وقال مبرراً صمتي، وشارحاً في الوقت عينه أنني لست الولد الوحيد الذي يتعرض لمثل هذا النوع من الاعتداء: "علمت ذلك، لا أكره شيئاً أكثر من المتنمرين. ولكن هل تعلم حقيقة المتنمرين؟".

هززت رأسي. شعرت بالضعف والصدمة، فقد كان رأسي ومعدتي يؤلمانني، وشعرت أنني ارتدي زياً من الخزي يستطيع الجميع رؤيته، وشعرت أنه عليَّ غسل فمي بالمطهر، وفرك نفسي حتى يتشقق جلدي.

قال السيد هالوران: "إنَّهم جبناء، ومفترون. والمفترون دائماً ينالون عقابهم العادل، إنها الكارما، هل تعرف ما هي؟".

هززت رأسي مجدداً، متمنياً مغادرته.

لكنه اقترب مني، وبصوت ملائكي حدثني شارحاً: "تعني أنك تحصد ما تزرع. إن فعلت أشياء سيئة ستعود وتتمكن منك في النهاية. سيصلى ذاك الفتى نار أعماله، تأكد من ذلك".

وضع يده على كتفي وشدَّ، فأرغمت نفسي على الابتسام.

نظر في الجوار وسألني: "هل تلك دراجتك؟".

فأجبته: "نعم سيدي".

فسألني مستفسراً بالرغم من أنه كان يعلم الجواب: "هل تستطيع ركوبها، والعودة إلى البيت؟".

أردت أن أقول نعم، ولكن في الواقع حتى الوقوف منتصباً أرهقني. ابتسم السيد هالوران بتعاطف، عندما قرأ في عيني ما لم يقله لساني.

فقال بطريقة أبوية لا يمكنك معها التشكيك بالنية الكامنة خلفها: "سيارتي هناك، اجلب دراجتك، وسأقلك إلى المنزل".

عبرنا الشارع وصولاً إلى سيارته الزرقاء من نوع برينسيس، ما من ظل في موقف سيارات سبار. حين فتح الباب، اندفعت حرارة رهيبة إلى الخارج. لحسن الحظ، كانت المقاعد مغطاة بالقماش، وليس بالبلاستيك مثل سيارة والدي، فلم

تحترق رجلاي حين جلست في الداخل، فأنا أعاني بما يكفي ولا حاجة لي بمزيد من المعاناة جراء حرق ناتج عن مقاعد ألهبتها الشمس حرارة، ولكني شعرت أن قميصي ملتصق بجلدي.

جلس السيد هالوران في مقعد السائق، خلف المقود وقال:

"أوف. الجو حار قليلاً، أليس كذلك؟".

أنزل زجاج النافذة، وفعلت الشيء نفسه. دخل نسيمٌ خفيف حين تحركنا.

مع ذلك، في مكان مغلق وحار، كنت مدركاً بشكل رهيب لرائحة عرقي، والتراب والدم العالق بـــي.

فكرت أن أمي ستقتلني. أستطيع تخيل نظرتها بالفعل:

ماذا حصل بحق السماء إيدي؟ هل خضت قتالاً؟ أنت متسخ. انظــر إلى وجهك، هل اعتدى أحدهم عليك؟

وكعادة الأمهات، ستعرف مني بطريقة أو بأخرى من المعتدي، وستذهب إلى أهله، وستثير صخباً، وربما هذا الصخب سيؤدي إلى معرفة وصمة العار التي لحقت بـــي، وما كان سراً سيتداول على نطاق واسع. ما إن فرغت من التفكير بالأمر حتى شعرت بانقباضٍ في معدتي.

نظر السيد هالوران إلى الخلف، وكأنه أحس بما أفكر به وسألني: "هل أنت على ما يرام؟".

تمتمتُ بصوت مرتجف: "أمي، ستكون غاضبة للغاية، وستثير كثيراً مـــن الصخب".

فأجابني مبرراً أي تصرف قد تقدم عليه أمي: "ولكنك لم تقترف خطـــأ، أنت شخص مسالم تعرض لاعتداء لا ناقة لك فيه ولا جمل".

فقلت له: "أنت محق، ولكن هذا لن ينفع، فالبلبلة لن تكـــون في صـــالحي وستشوه سمعتي، وأنت تعرف كيف تصبح الأمور عندما تتداول الألسنة القصة".

فحاول حثي على إخبارها وشرح حقيقة موقفي، ووجهة نظري حيـــال الأمر وسألني "إن أخبرتها..."

قاطعته فوراً وقلت بشكل حازم: "لا أستطيع".

عندها أدرك ما أمر به واكتفى بالقول: "حسناً".

فبررت له أكثر، ليكون بالصورة وقلت: "إنها تتعرض لضغوط كبيرة حالياً، بسبب أمور...".

فقال: "آه". بدا أنه على علم بشأن تلك الأمور، وأنه يدرك حجم تلك الضغوطات.

اقترح عليّ، ما ظننت أنها فكرة ممتازة: "حسناً، لَمَ لا نعود إلى منزلي حيث تنظف نفسك، وبعدها أعيدك إلى المنزل؟".

عند التقاطع خفف من سرعة السيارة، وبدلاً من أن يتجه إلى اليسار إلى شارع منزلي، اتجه إلى اليمين. وبعد أن انعطف بالسيارة عدة مرات، توقف أمام كوخ أبيض.

ابتسم حاثاً إياي على النزول: "هيا إيدي".

عندما فتح الباب بدا لي التناقض الصارخ بين الداخل والخارج، فقد بدا الدخل مظلماً بسبب الستائر المسدلة، دخلنا غرفة معيشة. لم يكن هنالك كثير من الأثاث: كرسيان وطاولة للقهوة وتلفاز صغير على مقعد، كانت هناك رائحة تعبق في أرجاء المكان، بدت لي كأنها رائحة أعشاب أو أشياء غريبة.

كان هنالك منفضة على طاولة القهوة فيها أعقاب سجائر.

التقطها السيد هالوران وقال: "سأتخلص من هذه، الحمام في نهاية السلالم".

فابتسمت وقلت: "حسناً".

صعدت السلالم الضيقة. في نهاية الممر هنالك حمام صغير ذو أرضية خضراء. توجد مماسح برتقالية باهتة بالقرب من حوض الاستحمام، وعند قاعدة المرحاض، كما توجد خزانة ذات مرآة مثبتة على الجدار فوق المغسلة.

أغلقت باب الحمام، ونظرت إلى المرآة وآلمني ما رأيت. كان التراب يغطي وجنتي، والمخاط يلوث أنفي. شعرت بالسعادة لأنّ أمي لن تراني بهذه الحال. كنت سأمضي بقية العطلة محبوساً في غرفتي، وفي الحديقة الخلفية. بدأت بمسح وجهي بالمنشفة التي كانت بالقرب من المغسلة، غمستها بالماء الدافئ الذي أصبح قاتماً بعد غسل التراب.

نظرت إلى نفسي مجدداً، بدوت أفضل وطبيعياً تقريباً. جففت نفسي بمنشفة كبيرة وخرجت من الحمام.

كان يجدر بي النزول إلى الأسفل، ولو فعلت ذلك لكان كل شيء على خيرِ ما يرام، وكنت بعدها غادرت إلى منزلي وانتهى الأمر. لكنّي وجدت نفسي أحدق إلى البابين الآخرين في الطابق العلوي، إذ كانا مغلقين. وجدت نفسي أتساءل: "تُرى ما خلفهما!؟". نظرة صغيرة خاطفة، إنه فضول الصغار، أدرت المقبض وفتحت الباب الأقرب.

لم تكن غرفة نوم، لم يكن هنالك أثاثٌ على الإطلاق. وجدت حاملِاً لقماش الرسام في وسط الغرفة، كانت اللوحة مغطاة بقماش متسخ. علقت على جدران الغرفة لوحات كثيرة، بعضها رسم بالطبشور، أو بتلك الألوان التي ذكر السيد هالوران اسمها الغريب عندما التقينا سابقاً، ولكن بعضها الآخر كان بالألوان الزيتية السميكة، ولكن الأمر المهم لم يكن بالألوان المستخدمة في الرسم.

بدا وكأن معظم اللوحات عن فتاتين. إحداهما شاحبة وشقراء، تشبه السيد هالوران كثيراً، جميلة ولكنها بدت لي حزينة بعض الشيء، وكأن أحداً ما أخبرها شيئاً لم ترغب بسماعه، ولكنها كانت تتحمل ما سمعت.

تعرفت إلى الفتاة الأخرى على الفور، إنها فتاة والتزر. في اللوحة الأولى، كانت تجلس بشكلٍ جانبيٍ مرتدية فستاناً أبيض بالقرب من نافذة. أمكن رؤيتها من الجانب فقط، ولكني عرفت فوراً أنها هي وبدت جميلة. اللوحة التالية مختلفة قليلاً، تجلس في حديقة مرتدية فستاناً صيفياً جميلاً وطويلاً، وتنظر أكثر باتجاه الرسام. شعرها البني الحريري متموجٌ فوق كتفيها، ويمكنك رؤية حدود ذقنها الدقيقة، وعيناً بنية واحدة.

أظهرت اللوحة الثالثة المزيد من وجهها، أو بالأحرى جانب وجهها الذي مزقته قطعة المعدن. لكن لم يبدُ مشوهاً، لأن السيد هالوران خفف من لون الندبات، فبدت كتطريزٍ ملونٍ، وغطّى شعرها عينها المصابة بشكل جزئي. بدت شبه جميلة مجدداً، ولكن بطريقة مختلفة.

نظرتُ إلى اللوحة المعلقة على الحامل، وجدت نفسي أمشي باتجاهها. رفعت طرف القماش، وسمعت حينها صرير أحد أخشاب الأرضية.

فناداني صوت من الأسفل قائلاً: "إيدي؟ ماذا تفعل؟".

استدرت، شلّني الخزي للمرة الثانية يومها.

فأجبت مرتبكاً: "أنا آسف، كنت فقط... أردت النظر".

ظننت للحظة أن السيد هالوران سيطردني، ثم ابتسم. "لا بأس إيدي، كان يجدر بي إغلاق الباب".

كدت أفتح فمي لأقول إنّه كان مغلقاً، ولكني أدركت حينها أنّه يمنحني عذراً، يا له من رجل دمث.

فقلت مادحاً ما شاهدت: "إنّها رسوم جميلة".

فرد بلباقة: "شكراً لك".

"من هذه؟". سألت وأنا أشير إلى لوحة الفتاة الشقراء.

فأجابني، وشعرت بالأسى في نبرة صوته وتعابير وجهه: "شقيقتي جيني".

فسَّر هذا وجه الشبه.

فقلت بسرور: "إنها جميلة للغاية".

فردت عليّ ولم تغب تعابير الأسى عن وجهه: "نعم كانت كذلك، لقد توفيت قبل عدة أعوام... سرطان الدم".

فأدركت حينها أنني رششت من دون قصد الملح على جرح غير مندمل وقلت: "أنا متأسف".

لم أعلم لمَ اعتذرت، ولكن هذا ما كان الناس يقولونه دوماً حين يموت أحد ما.

فأجابني وهو ينظر إلى البعيد، إلى أبعد من جدار الغرفة وربما أبعد من البلدة، وربما أبعد من ذلك بكثير: "لا بأس، بطريقةٍ ما، تساعدني اللوحات على إبقاء ذكراها حية... أعتقد أنك عرفت إليزا؟".

"فتاة والتزر". أومأت برأسي.

فقال شارحاً: "لقد زرتها كثيراً في المستشفى".

فاستفسرت منه عن وضعها: "هل هي على ما يرام؟".

فوضح ليّ قائلاً: "ليس تماماً إيدي، لكنَّها ستكون كذلك. إنها قوية، أقوى مما تعتقد".

بقيت صامتاً. راودني شعورٌ بأن السيد هالوران أراد قول شــيءٍ آخــر. وبالفعل أردف قائلاً:

"آمل أن تساعدها اللوحات على الشفاء. فتاة مثل إليزا، سمعــت طــوال حياتها أنها جميلة، وحين تجد نفسها بالحالة التي هي عليها، ستشعر أنها لا تملــك شيئاً آخر، ولكنها في الحقيقة تملك كثيراً من الأشياء الجميلة في داخلــها عــدا مظهرها الذي كان جميلاً. أريد أن أريها ذلك الجمال، أريد أن أريها أنه لا يزال هنالك ما يستحق أن تتشبث بالحياة لأجله، فيا إيدي أصعب شــيء أن يفقــد الشخص الدافع للعيش في هذه الحياة".

نظرت مجدداً إلى لوحة إليزا، فهمت الأمر. لم تبدُ كما كانت عليه، لكنــه أظهر جمالاً ذا نوعٍ مختلف، نوع مميز. فهمت التشبث بالأمور أيضاً، وأن يتمنى المرء ألا تضيع تلك الأمور إلى الأبد. كدت أخبره ذلك، ولكن حين نظرت إليه مجدداً كان ينظر إلى اللوحة، وكأنه نسي أنّي هنا.

فهمت لحظتها أمراً آخر... كان يحبها.

أعجبني السيد هالوران، ولكن حتى ذلك الوقت لم أكن أشعر بالارتيــاح معه. كان بالغاً، لكنَّ فتاة والتزر -صحيحٌ أنَّها ليست طالبة في المدرسة أو مــا شابه ذلك- إلا أنها كانت أصغر منه بكثير، لم يكن ممكناً أن يحبها. ليس مــن دون مشاكل، بل كثير من المشاكل.

بدا فجأة وكأنه عاد إلى الواقع، وأدرك وجودي. وتابع قائلاً:

"أياً يكن الأمر، ها أنا ذا أثرثر. هذا هو السبب في عدم تعليمي الفن، إذ لن ينجز أي من الطلاب شيئاً".

ابتسم ابتسامته الصفراء: "هل أصبحت جاهزاً لأقلك إلى المنزل؟".

أجبته بثقة: "نعم سيدي".

أكثر من أي شيء آخر.

توقف السيد هالوران في نهاية شارع منزلي.

وقال ما يدل على حنكة وخبرة بالتصرف: "أظن أنك لا تريد أن تطرح أمك أية أسئلة".

فقلت: "شكراً".

فسألني وهو الأعلم بما عانيت منه: "هل تحتاج مساعدة لإخراج دراجتك من الصندوق؟".

فقلت له وبدا جلياً من نبرة صوتي أنني ممتن لكل ما قام به لأجلي اليوم: "كلا، لا بأس، يمكنني تدبر الأمر. شكراً سيدي".

فابتسم وقال: "على الرحب والسعة إيدي، ولكنْ هناك أمرٌ أخير؟"

فنظرت إليه باهتمام وقلت: "ما هو سيدي؟".

فتكلم بصوت خافت وهو يشدد على مخارج الحروف: "سأعقد معك صفقة. لن أخبر أحداً بما حصل اليوم، إن لم تخبر أحداً عن اللوحات. إنها أمرٌ خاص".

لم يكن عليَّ التفكير بالأمر، فلم أرد أن يعرف أحد بما حصل اليوم.

فهززت رأسي مسروراً فالصفقة تناسبني تماماً: "حاضر سيدي... أقصد اتفقنا".

فودعني، ملوحاً بيده وقال: "إلى اللقاء إيدي".

رددت التحية ملوحاً بدوري وقلت: "إلى اللقاء سيدي".

أخذتُ دراجتي، قدتها عبر الشارع المؤدي إلى بيتنا، ووصلت إلى ممر السيارة، ركنتها أمام الباب الأمامي. كان هنالك رزمة على الدرجة في الخارج، عليها بطاقة: السيدة "إم آدامز". تساءلت لَمَ لَمْ يطرق ساعي البريد الباب؟ ربما فعل و لم يسمعه والداي!

حملت الرزمة وأدخلتها.

صاح والدي من المطبخ: "أهلاً إيدي".

تفقدت نفسي على الفور في مرآة الرواق. ما زال هناك كدمة على جبهتي،

وقميصي متسخ بعض الشيء، ولكن هذا جيد نوعاً ما. أخذت نفساً عميقاً، ودخلت المطبخ.

كان والدي جالساً إلى الطاولة، يشرب كوباً كبيراً من الليموناضة. نظر إليّ وعبس. وسألني: "ماذا حصل لرأسك؟".

أجبته متلعثماً: "أنا، ممم، وقعت بينما كنت على إطار التسلق".

دنا مني وتفقدني عن قرب وسألني: "هل أنت على ما يرام؟ هل تشعر بالغثيان؟ بالدوار؟".

فقلت ببراءة الأطفال: "كلا، أنا بخير".

وضعت الرزمة على الطاولة وقلت: "وجدتها أمام الباب ألم يرن ساعي البريد الجرس؟".

بدا والدي مستغرباً، فمط شفتيه وقال: "أوه. حسناً. لم أسمع الجرس". وقف ونادى، "ماري آن... وصلت رزمة لك".

ردت أمي: "حسناً أنا قادمة".

سألني والدي: "هل ترغب بشرب بعض الليموناضة إيدي؟". أومأت. "شكراً".

ذهب إلى البراد، وأخذ زجاجة من الباب.

شممت... رائحة غريبة في الغرفة.

دخلت أمي المطبخ، وكانت تضع نظارتها على شعرها وبدت مرهقة، ولكنها كانت جميلة كعادتها.

"مرحباً إيدي". نظرتِ إلى الرزمة. "ما هذا؟".

قال أبي: "لا تسأليني".

شمت... "هل تشتم شيئاً ما؟".

هز والدي رأسه، أعاد النظر بعدها. "حسناً، ربما قليلاً".

نظرت أمي إلى الرزمة مجدداً. ثم قالت بصوت أكثر حزماً بقليل. "جيف، هل يمكنك أن تحضر لي مقصاً؟" أعطاها أبي واحداً من الدرج. قصت اللاصق البني الذي غلف الرزمة وفتحتها.

في العادة، لم يكن هناك شيءٌ يزعج أمي. ولكن رأيتها مشمئزة: "يا إلهي!". انحنى والدي وقال: "يا للهول!".

قبل أن تبعد الصندوق، اختلست نظرة. هنالك شيءٌ ما صغير، وزهري اللون، مغطى بشيء لزج وبالدم (علمت لاحقاً أنه جنين خنزير) في أسفل الصندوق. كان هنالك سكين صغيرة ناتئة من الأعلى، مثبتةً ورقة كُتب عليها كلمتان:

"قاتلة الأطفال".

2016

المبادئ أمرٌ جميل، إن كنت تستطيع تحمل نتائج التمسك بها. أحبٌ أن أفكر بأني رجلٌ ذو مبادئ، ولكن هذا ما يفكر به الجميع. في الحقيقة، ما من إنسان على هذه الأرض لا يوجد سعر محدد لمبادئه، وجميعنا نملك مشاعر قابلة للتغيير تجعلنا نفعل أموراً ليست مشرفة كلياً. فالمبادئ والتمسك بها لا يساعد على دفع الإيجار، أو تسديد الديون، فالمبادئ عبارة عن عملة عديمة الفائدة في الحياة اليومية. الرجل الذي يملك مبادئ- هذا إن وجد- يكون عادةً رجلاً يملك كل ما يحتاج إليه، أو لا يملك شيئاً ليخسره على الإطلاق.

استلقيت مستيقظاً لفترة طويلة، ليس فقط بسبب احتسائي للكثير من الشراب، وليس لأن السباغيتي سببت لي عسر هضم.

"أعرف من قتلها" .

إنَّها حبكة رائعة. علم ميكي أنها كذلك، وبالطبع لن يكمل، رمى الصنارة وقد علّق بها طعماً لا يمكنني إلا أن أسعى لالتقاطه، وبالتالي كان وقوعي في شرك الصنارة محتوماً

"لا يمكنني أن أخبرك الآن. عليَّ تسوية بعض الأمور أولاً"

فكّرت أن ذلك هراء، ولكني أومأت برأسي، وقد شلت الصدمة قدرتي على التكلم.

قال ميكي وهو يغادر: "سأتركك كي تفكر بالأمر".

لم يأتِ ميكي بسيارته، و لم يدعني أطلب سيارة أجرة. كان يقيم في ترافلودج عند أطراف البلدة.

برر ميكي سبب رفضه أن أطلب له سيارة أجرة بقوله: "سيكون السير مفيداً لي".

لم أكن متأكداً من ذلك، حيث فكرت كم يبدو مترنحاً وهو واقف. ولكني وافقت، في النهاية لم يكن الوقت متأخراً كثيراً، وكان رجلاً بالغاً.

بعد مغادرته، وضعت الأطباق في غسالة الأطباق، وعدت إلى غرفة المعيشة مع كأس شراب كبيرة للتفكير بعرضه. أعتقد أنني أغمضت عينيَّ للحظة أو عدة لحظات، إنَّها قيلولة بعد العشاء، لعنة منتصف العمر.

بدأت أستيقظ بسبب صوت صرير أخشاب الأرضية فوقي، وصوت الخطوات على السلالم العتيقة.

مدت كلوي رأسها من الباب وقالت: "مرحباً".

أجبتها: "مرحباً".

كانت ترتدي ثياب النوم، ويمكنك أن تتخيل كيف تبدو فتاة في العقد الثاني من العمر، تي شيرت واسع فوق سروال بيجاما رجالي. بدت مثيرة وضعيفة، وشعثاء في الوقت ذاته. أغرقت أنفي بالشراب.

سألتني والأنوثة تخرج من بين كلماتها: "كيف جرى الأمر؟"

فكّرت وأجبتها: "كان مثيراً للاهتمام".

دخلت وجلست على ذراع الكرسي وقالت مستوضحة وبدت مهتمة: "أخبرني".

أخذت رشفة من مشروبي، وقلت لها: "يريد ميكي أن يكتب كتاباً، أو ربما نصّاً للتلفاز، حول ما حصل. يريدني أن أساعده في الأمر. تخيلي".

حاولت أن تظهر لي أن ما توقعته، من أن وراء الزيارة غاية ما غير استرجاع أيام الطفولة كان صحيحاً فقالت: "تعقدت الحبكة".

فأجبتها: "أليس كذلك؟".

فقالت قبل أن تصمت: "و...؟".

سألتها: "وماذا؟".

فقالت وكأنها تعرف ما تسأل عنه سلفاً: "حسناً، أعتقد أنك وافقت".

مستهجناً ثقتها: " لم أقل شيئاً بعد. لست متأكداً من أني أريد فعل ذلك".

فسألتني: "لَم لا؟".

فشرحت لها قائلاً: "لأن هنالك أشياء كثيرة يجب أن أفكر فيها. ماذا سيظن أهالي أندربوري بشأن نبش الماضي، هذا أحد الأشياء. بالإضافة إلى ما سيقوله غاف، هوبو، وعائلاتنا".

ونيكي، تبادرت إلى ذهني. هل تحدث مع نيكي؟

عبست كلوي: "حسناً أتفهم ذلك، ولكن ماذا عنك؟".

بتعجب سألتها: "أنا!؟".

تنهدت ونظرت إليَّ، وكأنّني كنت رضيعاً متأخراً عقلياً: "ستكون فرصة رائعة، وأنا متأكدة أنك ستستفيد من المال".

فقلت لها: "ليس للأمر علاقة بالمال، عدا أنَّ كل هذا افتراضيٌّ، ومثل هذه المشاريع تهمل معظم الوقت".

حثتني قائلة: "نعم، ولكن عليك انتهاز الفرصة أحياناً".

فسألتها: "هل تنتهزين الفرص عادة؟".

"نعم، وإلاَّ لن تصل إلى أي مكان في الحياة. كي لا ينتهي بك المطاف وكأنك أحفور متحجر، بدلاً من أن تعيش حياتك".

رفعت كأسي وبدوت ثملاً وقلت لها: "حسناً، شكراً. نصيحة حكيمة من أحد يعيش إلى أقصى الدرجات، ويعمل بدوامٍ جزئيٍ في متجر ملابس كريه. أنتِ حقاً تتجاوزين الحدود".

وقفت، ونفخت متذمرة أمام الباب: "أنت ثمل... سأعود إلى الفراش".

شعرت بالندم، كنت أحمق من الدرجة الأولى، أحمق مع شهادة بذلك.

فأسرعت بالقول: "أنا آسف".

"انسَ الأمر". ابتسمت ابتسامة مصطنعة. "ولكنَّك لن تذكر هذا في الصباح على الأغلب".

ندهت: "كلوي..."

أجابت متذمرة ولعل تذمرها في مكانه: "نمْ وانسَ الأمر إيد".

نم وانس الأمر. استدرت على جانبي ثم على ظهري، ستكون هذه نصيحة جيدة لو استطعت النوم.

حاولت أن أكور نفسي على السرير، ولكنني لم أستفد من ذلك. معدتي تؤلمني بشكل مزعج. أعتقد أنّي أملك بعض مضادات الحموضة في مكان ما، ربما في المطبخ.

أنزلت رجليّ عن السرير غصباً عني، ونزلت إلى الطابق السفلي. أشعلت نور المطبخ القوي الذي جعلني أغمض عينيَّ المتورمتين. أغمضت عينيّ نصف إغماضة، وبحثت في أحد الدروج. شريطٌ لاصق، بلو تاك، أقلام ومقص، مفاتيح مجهولة، مفكات براغٍ، وعلبة من أوراق اللعب القديمة. في النهاية وجدت مضادات الحموضة، كانت موجودة في الخلف، مع مبرد أظافر وفتاحة زجاجات قديمة.

أخرجتها لأجد واحدة فقط متبقية في العلبة... ستنفع. وضعتها في فمي وبلعتها. من المفترض أنها منكهة بالفواكه، ولكن شعرت أنها بنكهة الطبشور. عدت إلى الرواق، حينها لاحظت شيئاً أو شيئين في الواقع: هناك ضوء من غرفة المعيشة، ورائحة غريبة صادرة من مكان ما. رائحة لطيفة ولكن عفنة ومألوفة.

خطوت خطوة إلى الأمام، ودست في شيءٍ كالرمل. نظرت إلى الأسفل، هنالك آثار للتراب الأسود على أرضية الرواق. خطوات وكأنّ كائناً ما كان يجر قدميه جراً على الأرضية، وترك تراباً في الرواق، شيءٌ ما جر نفسه من أعماق مكان ما بارد ومظلم، ومليء بالخنافس والديدان.

بلعت ريقي... لا، هذا غير ممكن، إنّي أهلوس... أتذكر كابوساً، حلِمَ به طفل بعمر الثانية عشرة يملك مخيلة نشطة.

حلم واعٍ، هذا ما يسمونه. حلمٌ يبدو حقيقياً بشكل لا يصدق، يمكنك حتى أن تؤدي أفعالاً في الحلم تساهم في وهم الحقيقة، مثل إجراء المحادثات وتحضير الطعام والاستحمام أو غيرها من الأشياء.

هذا ليس حقيقياً بالرغم من شعور التراب الحقيقي بين أصابع رجلي، وحبة الدواء الطبشورية الطعم في فمي. كل ما عليَّ فعله هو الاستيقاظ... *ستيقظ... استيقظ!* لسوء الحظ، كان الاستيقاظ بصعوبة النسيان الذي سعيت إليه سابقاً.

تقدمت، ووضعت يدي على باب غرفة المعيشة. بالطبع فعلت ذلك، إنه حلم، وهذه الأحلام السيئة تسلك مساراً شبه محتوم: مساراً ملتوياً وضيقاً، عبر الغابات الكثيفة والمظلمة، إلى داخل الكوخ المصنوع من بسكويت الزنجبيل في قاع عقلنا.

دفعت الباب لأفتحه، الجو بارد هنا أيضاً، ليس بارداً بشكل عادي، ليس ببرد المنزل الخفيف أثناء الليل. هذا النوع من البرد يلتف حول عظامك، ويستقر ككتلة من الجليد في أحشائك. إنه برد الخوف، وأصبحت الرائحة أقوى، ساحقة، بالكاد يمكنني التنفس. أريد الخروج من الغرفة، الهرب، الصراخ. ولكن بدلاً من ذلك أنرت النور.

إنه جالس على كرسي. الشعر الأبيض الأشقر متعلق بقشرة رأسه، كخيوط لزجة لشبكة عنكبوت، أجزاء من العظم والدماغ تظهر من تحته. وجهه عبارة عن جمجمة، مكسوة بشكلٍ متداعٍ بقطع من الجلد المتعفن.

كالعادة، يرتدي قميصاً واسعاً مع بنطال جينز ضيق، وينتعل حذاء أسود طويل الساق. ملابسه رثة وممزقة، وقبعته المهترئة موضوعة على ذراع الكرسي.

كان عليَّ أن أدرك أن وقت بُعبع طفولتي قد انتهى. أنا بالغ الآن، حان الوقت لمواجهة رجل الطباشير.

التفت السيد هالوران نحوي. لم يكن هناك عينان، ولكن يوجد شيء ما بداخل محجريهما، نعم إنها نظرة التفهم أو المعرفة... وشيءٌ آخر يجعلني لا أطيل النظر إليهما بشكل عميق، لخوفي من عدم قدرتي على استعادة التفكير مجدداً.

قال السيد هالوران: *"مرحباً إيد، لم أركَ منذ وقتٍ طويل"*.

استيقظت، كانت كلوي تحتسي القهوة، وتأكل الخبز المحمص في المطبخ حين ظهرت في الدور السفلي، كنت أشعر أنني لم أحصل على قسط كافٍ من النوم فالساعة تشير إلى الثامنة فقط.

شغّلت الراديو، ولكن بدلاً من محطة راديو رقم (4)، صدر صوت رجل يصرخ بأسى، وكأنه يحاول قتل نفسه عبر تحطيم آلة الغيتار على رأسه.

يكفي أن أقول إنَّه لم يساعد على تخفيف النبض في رأسي.

استدارتْ وقيمتني باختصار: "مظهرك يبدو سيئاً".

أجبتها: "أشعر بذلك".

فقالت بنعومة وتشفٍّ في آن معاً: "جيد، أنت تستحق ذلك".

فقلت لها بنزق: "شكراً لتعاطفك".

فردت بمزيد من التشفي: "الأذى الذي تتسبب به لنفسك لا يستحق التعاطف".

فرددت عليها ولكن مستوى النزق كان أكثر وضوحاً هذه المرة: "شكراً مرة ثانية... هل من الممكن أن تخفضي صوت الرجل الأبيض الغاضب الذي يملك مشاكل نفسية".

فأجابتني بجذل: "إنها تدعى موسيقى الروك، جدي".

فأجبتها: "هذا ما قلته للتو".

هزت رأسها، ولكنها خفضت من صوت الموسيقى قليلاً.

مشيت شبه مترنح نحو آلة صنع القهوة، وسكبت كوباً من القهوة السوداء.

عندها سألتني كلوي باحترام: "إلى أي ساعة بقيت مستيقظاً بعدما خلدتُ للنوم؟"

جلست إلى الطاولة، نظرت إليها، وفكرت لجزء من الثانية قبل أن أقول: "ليس لوقت طويل. كنت ثملاً".

فعادت للتشفي وقالت: "كان ذلك واضحاً".

فقلت: "أكرر لك أسفي".

لوَّحت بيدها. "انسَ الأمر. لم يكن علي التدخل في شؤونك، حقاً إنها لا تعنيني".

"لا. حسناً، أعني أنت محقة، ما قلته صحيح، ولكن أحياناً لا تكون الأشياء واضحة".

"حسناً". ارتشفت من قهوتها ثم قالت: "هل أنت متأكد من أنك لم تسهر؟"

فاجأني سؤالها وأجبتها: "نعم، متأكد".

ثم سألتني سؤالاً آخر: "و لم تستيقظ مرة أخرى؟"

فأجبتها، وقد أسرت أسئلتها اهتمامي: "نزلت بحثاً عن مضادات الحموضة".

وعادت مرة أخرى للسؤال، وبدت كأنها تستجوبني: "هل هذا كل شيء؟".

تبادر جزءٌ من الحلم إلى ذاكرتي: *"مرحباً إيد، لم أرك منذ وقتٍ طويل"*

حاولت تناسي الأمر وقلت لها: "نعم". وسألتها: لماذا؟".

نظرت إليّ نظرة غريبة، وطلبت مني النهوض قائلة: "دعني أريك شيئاً".

نهضت وخرجت من المطبخ، فنهضتُ وتبعتها من دون حماس.

توقفت في غرفة المعيشة وقالت: "تساءلت إن كانت هذه الأشياء تشغل تفكيرك، بعد أن تحدثت مع صديقك؟"

قلت لها: "من فضلك أريني ما تريدين كلوي".

"حسناً".

دفعت الباب.

من بين التجديدات القليلة التي أضفتها إلى المنزل كان تبديل المدفأة القديمة بفرن جديد لحرق الحطب، ولوح للموقد. حدقت إليه، كان الموقد مغطى بالرسوم البيضاء البارزة بالنسبة إلى اللوح الرمادي. عشرات وعشرات الرسومات فوق بعضها البعض. رجالٌ طباشيريون بيض.

يا للهول، مجدداً، وبعد كل هذه السنين.

1986

قبل هذا الصيف، لم يسبق أن أتى شرطيٌ إلى منزلنا، و لم أكن أتوقع أن أرى شرطياً في بيتنا، فنحن عائلة محترمة ومسالمة، وبعيدون كل البعد عن المشاكل.

كان طويلاً ونحيلاً، شعره كثيف وداكن، ووجهه شبه مربع. بدا كرجل كبير من لعبة ليغو، عدا أنه لم يكن أصفر اللون. كان اسمه بـي سي توماس.

نظر إلى الصندوق، أخذه في كيس، ووضعه في سيارته. ثم عاد ومشى بطريقة غريبة في المطبخ بينما كان يسأل والديَّ ويكتب ملاحظات على دفتر ملاحظات صغير.

سألهما بتعال: "هل وجد ابنكما الرزمة في الخارج؟".

أجابته أمي: "نعم هذا صحيح" ونظرت إليّ "أليس كذلك إيدي؟".

أومأت: "نعم سيدي".

فعاد وسأل: "كم كانت الساعة حين وجدت هذه الرزمة؟".

فأجابته أمي نيابة عني: "4:04 ظهراً، تفقدت ساعتي قبل أن أنزل إلى الأسفل".

كتب الشرطي المزيد من الملاحظات.

وتابع بالسؤال: "و لم تروا أحداً يقترب من المنزل أو في الأرجاء؟".

هززت رأسي: "كلا سيدي".

نظر في الأرجاء وقال: "حسناً".

ثم كتب المزيد في دفتره.

استدار أبـي في كرسيه، ثم قال: "انظروا، كل هذا غير مجدٍ، نعلم جميعاً من ترك الرزمة".

نظر بـي سي توماس إليه نظرة غريبة، لم تكن لطيفة للغاية برأيي: "أحقاً، تعلم من قام بذلك سيدي؟".

أجابه بانفعال: "نعم، أحد أفراد عصابة الكاهن مارتن الصغيرة. إنهم يحاولون إخافة زوجتي وعائلتي، وحان الوقت ليقوم أحد ما بإيقافهم".

فسأله الشرطي بطريقة مستفزة: "هل لديك أي دليل يؤكد مزاعمك؟".

نفى والدي امتلاكه لدليل وقال: "كلا، ولكن ذلك واضح، أليس كذلك؟".

فرد الشرطي بحزم، وبشيء من التعالي: "ربَّما علينا أن ننسى المزاعم التي لا أساس لها من الصحة حالياً".

فتساءل والدي مصدوماً: "لا أساس لها من الصحة؟" لاحظت أن مراجل غضب والدي بدأت تغلي. لم يكن يغضب عادةً، ولكن حين كان يفعل - كما حصل في الحفلة - كان ينفجر بكل ما للكلمة من معنى، وكنت أنتظر اللحظة الذي سيطرح فيها الشرطي أرضاً كما فعل في الحفلة مع الكاهن.

خاطب الشرطي أبي مبرراً عبارته السابقة: "ليس هنالك قانون ضد المظاهرات السلمية سيدي".

وأدركت حينها ما يحصل، لم يكن الشرطي في صف أمي وأبي، كان في صف المتظاهرين.

هنا تدخلت أمي بهدوئها المعهود وقالت: "أنت محق. المظاهرات السلمية قانونية، ولكن التخويف والمضايقة والتهديدات غير قانونية. أرجو أن تأخذ هذه المسألة على محمل الجد".

أغلق بي سي توماس دفتره، وقال: "بالطبع سأفعل. متى وجدنا الفاعلين تأكدا أنهم سينالون العقاب المناسب".

وقف، وأصدر الكرسي صريراً عالياً فوق الأرض المكسوة. "عليكما أن تعذراني الآن".

خرج من المطبخ مغلقاً الباب الأمامي.

التفتُّ إلى أمي، وسألتها: "لا يريد المساعدة أليس كذلك؟".

تنهدت أمي: "بلى، بالطبع".

شخر أبي: "ربما كان سيساعدنا أكثر لو لم تكن ابنته واحدة من المتظاهرين".

قالت أمي: "جيف، انسَ الأمر".

"حسناً" وقف و لم يبدُ كأبي للحظة. بدت على وجهه معالم القسوة والغضب. "ولكن إن لم تحل الشرطة المشكلة سأتولى الأمر بنفسي، وليتحمل كل شخص مسؤولية أفعاله".

قبل أن تبدأ المدرسة، اجتمعنا سويةً بشكل مريح للمرة الأخيرة. التقينا في منزل غاف السمين، كما كنا نفعل عادة. كان لديه غرفة النوم الأكبر، والحديقة الأفضل، وكانت أمه تحشينا دوماً بالمقبلات، وماذا يريد الأولاد أكثر من مساحة كافية وألعاب وحلوى.

استلقينا على العشب، تحدثنا عن الترهات، واستفززنا بعضنا بعضاً. بالرغم من صفقتي مع السيد هالوران، أخبرتهم القليل عن لقائي مع شقيق ميتال ميكي. كان عليَّ ذلك، فهو طالما علّم بما يعنيه رسم رجال الطبشور، فهذا يعني أن لعبتنا السرية قد انكشفت. بالطبع، ما أخبرتهم إياه لا علاقة له بحقيقة ما حصل، فقد أظهرت نفسي بمظهر البطل المغوار الذي قاتل ببسالة قبل أن يهرب عندما وجد أن ميزان القوة ليس في صالحه، ولكني كنت قلقاً نوعاً ما من أن يكون شون قد أخبر ميتال ميكي بما حصل، والذي سيكون مسروراً للغاية في فضح مزاعمي، ولكن يبدو أن السيد هالوران أخاف شون بما فيه الكفاية كي لا يتباهى بفعلته، يا لك من إنسان يا سيد هالوران.

قال غاف السمين: "إذاً يعلم شقيقك بخصوص رجال الطباشير؟" ورمق ميتال ميكي بنظرة غاضبة. "إنك ثرثار حقاً".

تذمر ميتال ميكي: "لم أخبره، يبدو أنه اكتشف ذلك. أعني كنا نرسم كثيراً منها، لا بد أنه رآنا".

كان يكذب، ولكن لم أهتم حقاً لطريقة اكتشاف شون. في الحقيقة، لقد افتضح أمر الرسوم، وتغير كلّ شيء.

قال هوبو: "أعتقد أنه يمكننا دوماً اختراع رسائل جديدة" لكنه لم يبدُ

متحمساً كثيراً.

علمت حال شعوره. الآن هناك شخص آخر يعرف - وتحديداً شون - تدمر الأمر بأكمله.

أدلت نيكي بدلوها وهي تلعب بشعرها وقالت: "كانت لعبة غبية".

حدقت إليها، وشعرت بالانزعاج. كانت غريبة قليلاً اليوم، أحياناً تصبح هكذا، عصبية وتحبُّ الجدال.

قال غاف السمين: "لا لم تكن كذلك، ولكني أعتقد أنه لم يعد هناك داعٍ للعبها مجدداً، إن كان شون يعلم بأمرها. علاوةً على ذلك، ستبدأ المدرسة غداً".

فقلت: "صحيح".

تنهدنا جميعاً. كان الكل منزعجين في ظهيرة ذلك اليوم، حتى غاف السمين لم يلقِ دعاباته السمجة كالعادة. تحولت السماء الزرقاء إلى رمادية وضبابية، ومرت الغيوم دون كلل، وكأنها تتوق لهطول المطر الغزير.

قال هوبو: "من الأفضل أن أذهب، تريد أمي مني أن أقطع بعض الحطب من أجل المدفأة".

مثلنا، كان هوبو وأمه يملكان مدفأة رديئة في منزلهم القديم المزود بمصاطب.

قال ميتال ميكي: "وأنا أيضاً، علينا الذهاب لاحتساء الشاي في منزل جدتي اليوم".

قال غاف السمين بتململ: "إنّكم تعكّرون مزاجي يا رجل".

قلت: "من الأفضل أن أعود أيضاً". لقد جلبت أمي لي بعض الأغراض الجديدة للمدرسة، وتريدني أن أجربها قبل وقت تناول الشاي، لربَّما احتاجت إلى تعديل أو تبديل.

وقفنا، وبعد وهلة، وقفت نيكي أيضاً.

انهار غاف السمين بشكل دراماتيكي على العشب: "اذهبوا إذن، اذهبوا. لقد أشعرتموني بالكآبة. يا لكم من رفاق مملين".

حين أتذكر الأمر، أعتقد أنّها المرة الأخيرة التي كنا فيها سويةً بهذا الشكل. مسترخين كأصدقاء، كمجموعة، قبل أن تبدأ الأمور بالانهيار والتفكك.

اتجه هوبو وميتال ميكي في الاتجاه نفسه، أمَّا أنا ونيكي فسلكنا الاتجاه الآخر. لم يكن منزلها بعيداً كثيراً عن منزلنا، وكنَّا -أنا ونيكي- أحياناً نمشي في طريق العودة سويةً، لكن ليس دائماً. فنيكي عادة كانت أول من يغادر، لأنَّ والدها صارمٌ حسبما أعتقد بشأن وقت العودة، وتكونت لديَّ قناعة أنَّه لم يكن موافقاً على تسكعها معنا إطلاقاً. أظنُّ أننا لم نفكر كثيراً بذلك. إنَّه كاهن، وهذا ما يفسر لنا كثيراً من تصرفاته، فالكهنة لا يوافقون على شيءٍ حقاً، أليس كذلك؟

سألتها في محاولة لافتتاح محادثة معها: "هل أنتِ مستعدة للمدرسة؟".

رمقتني بإحدى نظراتها الشبيهة بنظرات البالغين وقالت وقد بدت مستاءة: "أعلم".

سألتها: "ماذا تعلمين؟".

أجابتني وبدت متأسفة جداً: "بخصوص الرزمة".

تأوهت.

لم أخبر الآخرين عن الرزمة. كان أمراً معقداً كثيراً، وشعرت أنِّي سأخون بذلك ثقة أمي وأبي.

في الحقيقة، كل ما أذكره بشأن الرزمة والتحقيق، أن الشرطي لم يعد، ولم يتم اعتقال أحد، وبالتالي لم يتم اتهام أحد، واستمر المتظاهرون بالتجمع أمام عيادة أمي مثل النسور التي تنتظر الانقضاض على فريسة.

تابعنا الحديث.

قلت لها شارحاً ما حصل لتكون على بينة من أمرها: "أتى الشرطي ليتحدث مع أبي".

تأوهت.

تابعت قائلاً: "نعم".

فعادت للاعتذار وبدت صادقة لأقصى الدرجات: "أنا آسفة".

سألتها مستوضحاً: "لِمَ تعتذري؟ والدي المخطئ".

"حقاً؟"

"الجميع خائفون من قول أي شيء لأنَّه كاهن. حتى الشرطي، كان ذلك مثيراً للشفقة" توقفت ونظرت إلى أصابعها، كانت أربع منها مضمدة.

فسألتها: "ماذا حصل ليدك؟".

لم تجب على الفور، ظننت للحظة أنَّها لن تجيب. وبعد قليل سألتني: "هل تحب والديك؟"

عبست. لم يكن سؤالها متوقعاً: "بالطبع... أظن ذلك".

فقالت وبدت تعيسة: "حسناً، أنا أكره والدي. أكرهه كثيراً".

فحاولت الاستفسار منها وسألتها: "أنتِ لا تعنين ذلك؟ صحيح".

فردت وبدت أكثر تعاسة ويأساً: "بل أعني. كنت مسرورة حين لكمه والدك. أتمنى لو كان ضربه بقوة أكبر". حدقتْ إليَّ، وشيءٌ ما في نظرتها، جعلني أشعر بالبرد من الداخل. "تمنيت لو قتله".

أبعدتْ شعرها عن وجهها، وسارت بعيداً. مشت بطريقة سريعة لدرجة أنّي علمت دون شك أنَّها لا تريد مني اللحاق بها.

انتظرت حتى انعطفت عند الزاوية، وغاب شعرها الأحمر، ثم مشيت بتثاقل في الطريق. شعرت بتعب اليوم يُثقل كاهلي، ورغبت بالعودة إلى المنزل.

حين وصلت، كان والدي يعد الشاي، ووجبتي المفضلة (أصابع السمك والبطاطا).

سألته بالرغم من أنني كنت أعرف الجواب سلفاً: "هل يمكنني مشاهدة التلفاز لبعض الوقت؟".

فقال لي بحزم: "لا" أمسك ذراعي. وأردف "أمك تستقبل أحدهم، اذهب واغتسل، وعدْ لتناول العشاء".

فسألته، مستوضحاً: "من معها؟"

فأجابني بحزم مجدداً: "اذهب واغتسل فقط".

دخلت الرواق. كان باب غرفة المعيشة مفتوحاً جزئياً، وأمي تجلس على الأريكة إلى جانب فتاة شقراء. كانت الأخيرة تجهش بالبكاء، وكانت والدتي تعانقها. بدت الفتاة مألوفة قليلاً، ولكني لم أتذكرها تماماً.

لم أستطع تذكر من تكون قبل استعمالي المرحاض، وغسل يديَّ، لقد كانت صديقة فتاة والتزر الشقراء، وهي إحدى المتظاهرات خارج العيادة. تساءلتُ عن سبب وجودها هنا، وعن سبب بكائها. ربَّما أتت لتعتذر من أمي، ربَّما هي في ورطة، أو ما شابه ذلك.

كما اتضح لاحقاً، كانت في ورطة، ولكن لم تكن الورطة التي توقعتها.

وجدوا الجثة صباح يوم أحد، بعد ثلاثة أسابيع من بدء المدرسة.

بالرغم من أننا لم نعترف بذلك، إلاَّ أن العودة إلى المدرسة بعد العطلة الصيفية لم تكن بالسوء الذي توقعناه. ستة أسابيع من الراحة كانت رائعة، ولكن قضاء وقت ممتع، وإيجاد أشياء لفعلها قد يصبح أمراً متعباً قليلاً.

بطريقة أو بأخرى كانت عطلة الصيف هذه غريبةً، وسررت لأنَّها انتهت، وسأستطيع العودة إلى الحياة الطبيعية. الروتين ذاته، الدروس ذاتها، الأوجه ذاتها، عدا السيد هالوران.

للأسف، بالرغم من أن السيد هالوران يعلم اللغة الإنكليزية إلا أنه لم يكن يعلمني. وهذا مؤسفٌ ومريحٌ في الوقت ذاته، فأنا أعرف عنه الكثير. المتعارف عليه أن يكون الأساتذة لطيفين وودودين، ولكن يجب أن يكونوا أيضاً بعيدين قليلاً. لكنِّي والسيد هالوران نملك سراً، مع أن ذلك رائعٌ بطريقةٍ ما، ولكنَّه جعلني أشعر بالغرابة وأنا حوله أيضاً، كنا مجردين من كل خصوصية إزاء بعضنا.

رأيناه في أرجاء المدرسة بالطبع. يحضر وقت الغداء أحياناً، ويراقب الساحة وقت الاستراحة أحياناً أخرى. ذات يوم قام بتدريسنا بدلاً من السيدة ويلكينسون (مدرسة اللغة الإنكليزية) خاصتنا، والتي كانت مريضة. كان مدرساً جيداً، ومضحكاً ومثيراً للاهتمام أيضاً، يجعل من الدرس أمراً مسلياً. لدرجة أنَّك بعد فترة تنسى مظهره، بالرغم من ذلك لم يتردد الأولاد في إطلاق تسمية عليه من اليوم الأوَّل: السَّيد طباشير، أو رجل الطباشير.

هذا الأحد، لم يحصل أيُّ أمر مثيرٌ للاهتمام، وهذا جيدٌ لي. كان الملل شعوراً جيداً، وطبيعياً. بدا والداي مسترخيين أكثر من العادة، كنت في الطابق

العلوي أقرأ في غرفتي حين رن جرس الباب.

علمت على الفور -كما يحصل مع الجميع أحياناً- أنَّ شيئاً ما قد حصل، شيئاً سيئاً.

نادت أمي: "إيدي؟ ميكي وديفيد هنا".

فأجبتها: "سآتي فوراً".

نزلت السلالم، وعندما وصلت إلى الباب، كانت أمي قد توارت في المطبخ.

وقف ميتال ميكي وهوبو إزاء دراجتيهما، عند الباب. كان وجه ميتال ميكي أحمر ومليئاً بالحماس. ولم يستطع كبح جماح لسانه، فما أن رآني حتى قال: "سقط ولدٌ ما في النهر".

قال هوبو: "نعم، هنالك سيارة إسعاف وشرطة، ومدّ شريط لمنع الدخول. هل تريد أن تأتي لنتفرج؟".

أرغب أن أقول، إنَّه في ذاك الوقت، بدا حماسنا لرؤية ولدٍ ميتٍ مسكين شنيعاً، وفي غير محله. ولا يمكنني أن أجد له أي تبرير منطقي، فنحن لم نكن من محبي مشاهدة الناس المتألمين، ولم نكن نشعر بالسعادة عندما نتألم.

ولكنني بالمقابل أستطيع أن أبرر الأمر بالفضول، فنحن كنا أطفالاً في الثانية عشرة من العمر، وكان لدينا فضول لنعرف عن أي أمر أو حدث جديد، وكان الولد الغارق في النهر ليس أمراً جديداً فحسب بل نادر الحدوث فكثير من الأطفال أمضوا طفولتهم وربما حياتهم كلها ولم تتح له فرصة رؤية جثة غريق. وبما أنني كنت في الثانية عشرة، *بالطبع* رغبت بالمشاهدة.

فقلت بسرعة: "حسناً".

قال ميتال ميكي بصبر نافدٍ: "هيَّا إذن".

استمهلتهما قائلاً: "عليَّ فقط جلبَ دراجتي".

فحثني هوبو قائلاً: "أسرع، وإلا لن يتبقى هنالك ما يستحق المشاهدة".

أخرجت أمي رأسها من نافذة المطبخ وسألت بفضول: "مشاهدة ماذا؟"

قلت لها بسرعة قاطعاً الحديث: "لا شيء أمي".

فقالت بحكمة الكبار وبفطرة الأمومة: "يا لك من شقي، ما الذي تخفيه عني؟ أأنت مستعجل إلى هذا الحد من أجل لا شيء!".

كذب ميتال ميكي: "لرؤية بعض الأشياء الجديدة الرائعة في الحديقة". لطالما كان بارعاً جداً في الكذب.

بدا أن الأمر انطلى على أمي التي قالت: "حسناً، لا تتأخر. عد وقت الغداء".

"حسناً".

أخذتُ دراجتي، وقدت بسرعة في الشارع.

سألت ميتال ميكي: "أين غاف السمين؟" لأنه أول من يخبره في العادة.

فأجاب: "قالت أمه إنَّها أرسلته إلى السوق. يا لخسارته".

مع أنه اتضح لاحقاً أنها لم تكن خسارته، بل خسارة ميتال ميكي.

عندما وصلنا إلى ضفة النهر، شعرت بالوجل، فلم يسبق لي أن شاهدتُ أمراً كهذا، كانت أضواء سيارة الشرطة تدور ناشرة الضوء في الأرجاء، وقام أحد رجال الشرطة بمنع الناس من التقدم، كما أن البالغين المتواجدين في المكان كانوا يقفون في مجموعات وبدت ملامح الصدمة على وجوههم، وكان بعضهم يتمتم بالأدعية، وبما أننا كنا صغاراً، وبما أن الرؤية كانت محجوبة من خلال أجساد البالغين وبما أن الشرطي منعنا من التقدم والوقوف أمام البالغين فلم يكن أمامنا من خيار آخر سوى الوقوف مع دراجاتنا بالقرب منهم.

بعد مرور قليل من الوقت تحول الفضول الذي قادنا بسرعة إلى هنا إلى خيبة أمل كبيرة، فبالإضافة إلى الشريط، وضعت الشرطة شيئاً شبيهاً بالخيمة أخضر اللون لحجب الرؤية، وهذا ما كان ينقصنا؛ أن نقف بعيدين محدقين إلى حاجب رؤية أخضر اللون. في الواقع كان الأمر مخيباً للآمال.

سألنا ميتال ميكي: "هل تعتقدان أن الجثة خلف هذا الحاجب؟".

هزَّ هوبو كتفيه وقال بثقة مزعومة: "على الأرجح".

قال ميتال ميكي من دون أن يدري بشاعة ما تفوه به وقساوته: "أراهن أنه منتفخ وأخضر، وقد أكلت الأسماك عينيه".

"مقرف". قهقه هوبو.

حاولت أن أُخرج الصورة التي رسمها ميتال ميكي من رأسي، ولكن يبدو أنها انطبعت في مكان يصعب أن تمحى منه.

تنهد ميتال ميكي وقال: "هذا هراء، لقد مر وقت طويل و لم نرَ شيئاً، لقد تأخرنا".

قلت: "انتظر، إنَّهم يخرجون شيئاً ما".

كان هنالك حركة ما. كان رجال الشرطة يحملون شيئاً ما خلف الحاجب الأخضر بحذر. لم تكن جثة، بل دراجة. أو على الأقل بقايا دراجة. كانت ملتوية ومنبعجة، ومغطاة بالحشائش اللزجة. ولكن في اللحظة التي رأيناها علمنا. علمنا لمن تعود هذه الدراجة، وأدركنا أن الكارثة حلت.

كانت دراجة جبلية، حمراء فاقعة اللون مع جمجمة سوداء.

كان من المعتاد صباح كل سبت وأحد رؤية شون ودراجته الجبلية - لمن يستيقظون باكراً بما فيه الكفاية - يتجولان في البلدة، وهو يوصل الصحف. ولكن صباح هذا الأحد، حين خرج شون لإحضار دراجته، لم يجدها، يبدو أن أحداً سرقها، ويمكنني تخيل ما حل بشون عندما لم يجد دراجته في المكان الذي اعتاد أن يركنها فيه، فعلاقة شون بالدراجة علاقة عاطفية بل أكثر فهي بالنسبة إليه رمز العنفوان والشباب، فلم يكن هناك من دراجة توازي جمالها في البلدة كلها.

في العام الماضي كثرت سرقات الدراجات. مجموعة من الفتية من الكلية كانت تسرق الدراجات وترميها في النهر، من باب التسلية والمزاح.

ربَّما كان هذا السبب وراء اختيار شون لهذا المكان أوَّلاً للبحث. أحب تلك الدراجة أكثر من أي شيء آخر. ولذا حين رأى مقبضها بارزاً من مياه النهر، حيث كانت عالقة ببعض أغصان الأشجار، قرر أن يسبح ويخرجها، مع أنَّ الجميع كان يعلم أنَّ التيار كان قوياً للغاية، وكان يجدر بشون ألا يقدم على ذلك، خصوصاً وأنه يعرف أن مهاراته في السباحة قليلة، والسباحة في المياه ذات التيارات تتطلب مهارات.

كاد أنْ يصلْ. كاد أن يُخرج الدراجة من بين أغصان الأشـــجار، حـــين تسبب ثقلها بترنحه ووقوعه للخلف. فجأة أصبحت المياه تغمر صدره، أثقلـــت سترته وبنطاله الجينز، فسحباه إلى الأسفل وكان التيار قوياً جـــداً، كعشـــرات الأيدي التي تدفعه نحو الأسفل. كانت المياه باردة، باردة للغاية.

حاول التمسك بالأغصان، صرخ... كان الوقت مبكراً للغاية، وما مـــن أحدٍ يمشي حتى مع كلبه. ربَّما كانت هذه اللحظة التي بدأ فيها شـــون كـــوبر بالذعر. التف التيار من حول أطرافه وبدأ يسحبه إلى العمق.

حاول أن يركل بقوة ليعود إلى الضفة، ولكن التيار كان يســـحبه بعيـــداً، واستمرَّ رأسه بالانغمار بالماء، وبدلاً من استنشاق الهواء كان يستنشق المياه البنية المقرفة.

لم أكن في الواقع أعرف أياً من هذا. عرفت القليل لاحقاً، وتخيلت الباقي. لطالما أخبرتني أمي أنِّي أملك مخيلة واسعة. كثيراً ما ساهمت في حصولي علـــى درجات جيدة في مادة اللغة الإنكليزية، لكنَّها ساهمت أيضاً في رؤيتي كـــوابيس رهيبة.

لم أعتقد أنِّي سأنام تلك الليلة، رغم شربـــي كوباً من الحليـــب الـــدافئ جلبته لي أمي قبل النوم. استمررت بتخيل شون كوبر، وهو أخضـــر اللـــون، منتفخ، ومغطى بالحشائش اللزجة. بقي أمرٌ آخر يجول في ذهني أيضاً، شيءٌ قاله السيد هالوران: الكارما... (أنت تحصد ما تزرع).

"إن فعلت أشياء سيئة ستعود وتتمكن منك في النهاية. سيحصل ذاك الفتى على ذلك يوماً ما. تأكد من ذلك".

لكنِّي لم أكن متأكداً حينها. فعل شون كوبر أشياء سيئة، ولكن هل كانت *بذلك* السوء؟ وماذا عن ميتال ميكي؟ ما الّذي فعله ليستحق هذا؟

لم يرَ السيد هالوران وجه ميتال ميكي حين أدرك أنَّ الدراجة كانت لأخيه، ولم يسمع الصرخة اليائسة التي أصدرها. لا أريد سماع ذلك الصوت مجدداً.

حاولت وهوبو الحيلولة دون ركضه باتجاه الخيمة. في النهاية أثار مشـــهده الجلبة، حتى قدم إلينا أحد رجال الشرطة. وضحنا له من كان ميتـــال ميكـــي،

فوضع ذراعه على كتفه، ومشى نصف الطريق، وحمل ميتال ميكي في النصف الثاني إلى سيارته. بعد دقائق عدة غادرا في السيارة. ارتحت حينها. إن رؤية دراجة شون كانت أمراً سيئاً، ولكن رؤية ميتال ميكي في حالة من الجنون والصراخ، كان أسوأ.

"هل أنت بخير إيدي؟"

أبعد والدي الغطاء، وجلس على طرف سريري.

كانت وطأة وزنه مريحة.

سألته، ولم أكن أعلم أن إجابته ستتركني أكثر تشوشاً من ذي قبل: "ماذا يحصل حين نموت يا أبي؟"

تأوه أبي عندما سمع سؤالي، وتبين له صعوبة الإجابة عن مثل هذا السؤال وتوضيح الأمر لفتى في الثانية عشرة من عمره ولكنه قال: "حسناً هذا سؤال كبير يا إيدي. أعتقد أن لا أحد يعرف، لا أحد متأكد".

فسألته مستغرباً من غموض إجابته، فقد كنت أعتقد أنه ما من إجابة غير التي طرحتها في سؤالي: "ألا نذهب إلى الجنة أو النار؟".

كنت أعلم أنه لم يكن من مرتادي الكنيسة، ولكنني كنت أظن أن ذلك يعود لأنه كسول لا لشيء آخر، ولكن عندما أجابني توضحت لي حقيقة أمره فقد قال: "يعتقد بعض الناس ذلك، ولكنَّ هناك آخرين لا يعتقدون بوجودهما".

هنا وتحت وطأة صدمتي من إجابته طرحت سؤالاً أكثر تعقيداً: "إذن لا يهم إن كنا أشخاصاً سيئين؟".

هنا أدرك والدي أن ما من مفر، ولا بد له من شرح الأمر، فالتورط مع فتى مثلي، يطرح أسئلة عميقة، لا يمكن الخروج منه من دون إجابات واضحة وصريحة فقال: "كلا، إيدي. لا أعتقد أنّ تصرفاتك سواء كانت سيئة أم جيدة تصنع فرقاً بعد الحياة، ولكنَّها تصنع فرقاً كبيراً وأنت على قيد الحياة، بالنسبة إلى الآخرين، لذلك حاول أن تعاملهم بشكل جيد على الدوام".

فكرت بذلك وأومأت برأسي. لقد ضرب بعرض الحياة أحد أهم المفاهيم العقائدية التي كنت أظن أن الحياة تتمحور حولها، فأن تعرف أنك إذا أمضيت

حياتك كلها تتصرف بشكل جيد مع الناس، ولا تكون هذه التصرفات الجيدة بطاقة عبورك إلى الجنة، هو لأمر بالغ السوء حقاً، ولكن إجابة والدي بالرغم من أنها لم تناسب هواي إلا أنها بعثت نفحة من السرور بقلبي، صحيحي أنني كنت أكره شون كوبر، ولكن فكرة أن يحترق بنار جهنم إلى الأبد لم ترق لي.

قال أبي: "إيدي، ما حصل لشون كوبر محزنٌ للغاية. حادث مروع، لكنَّه في النهاية حادث. أحياناً تحصل الأشياء دون سبب، وهكذا هي الحياة والموت أيضاً".

فهززت رأسي وقلت: "لا يسعني سوى الموافقة".

عندها بدا أنه يريد الرحيل ظناً منه أنه اطمأن عليّ، وبعث بالطمأنينة في نفسي فسألني: "إذاً هل تعتقد أنك مستعد للنوم؟".

أكدت له، كفتى بالغ شجاع، لا يخاف الليل، ولا أشباح الأموات بقولي: "نعم".

لم أكن مستعداً، ولكن لم أرد أن يعتقد والدي أنني طفل.

عندها مسدّ شعر رأسي، وربّت على كتفي، وابتسم بحنان وقال: "حسناً إيدي، سأطفئ النور إذن".

انحنى والدي وقبلني على جبهتي (لم يعد يفعل ذلك كثيراً الآن) -كنت مسروراً الليلة بشعر لحيته المدغدغ والرطب- ثم أطفأ الأنوار، واجتاح الظلام الغرفة. تخلصت من مصباحي الليلي منذ سنوات عديدة، إلا أنّني تمنيت لو كنت أحتفظ به تلك الليلة.

وضعت رأسي على الوسادة، وحاولت الاسترخاء. سمعت نعيق بومة في البعيد ونباح كلب. حاولت أن أفكر بأشياء سعيدة، وإبعاد تفكيري عن شون الغارق والميت، أشياء مثل قيادة الدراجة، وأكل البوظة، وشتى أنواع الحلويات ولعبة باك مان. غرق رأسي في الوسادة، وضاعت الأفكار في طي النسيان، وبعد فترة لا أدري مقدارها تسلل النوم إلى عينيّ.

شيءٌ ما أيقظني مجدداً، بشكل مفاجئ وحاد. صوت مثل *رات-ا-تات-تات*، مثل هطول المطر أو البرد. عبست وتقلبت في الفراش، سمعته مجدداً. كان

هناك من يرشق نافذتي بالحجارة. قفزت من السرير، مشيت عاري القدمين، وفتحت ستائر النافذة.

لا بدَّ أنّي نمت لفترة طويلة لأنَّ الظلام كان قد أرخى سدوله في الخارج. ضوء القمر في صفحة السماء المعتمة وفّر ذلك لي إنارة كافية لأرى شون كوبر. ألم يمت هذا اللعين، ورأينا جثته المنتفخة على النقالة.

وقف على العشب، بالقرب من حافة الفناء المرصوف. كان يرتدي بنطال جينز، وسترته الزرقاء الخاصة بلعبة البيسبول، كانت ممزقة ومتسخة. لم يكن أخضر اللون أو منتفخاً و لم تأكل الأسماك عينيه، ولكنَّه بدا في غاية الشحوب.

إنه حلم، لا بدَّ من ذلك. فكرت *استيقظ، استيقظ، استيقظ، استيقظ!*

فقال بصوت عال: "مرحباً يا تافه".

ابتسم، شعرت بالغثيان. كنت واثقاً أنه ليس حلماً بل كابوس.

همست "اذهب بعيداً" وقبضتاي منكمشتان، وأظافري تحفر كفيَّ.

فقال لي وبدا من خلال نبرة صوته أنه يسدي لي نصيحة: "لدي رسالة لك".

صرخت وأنا أنظر إلى الأسفل: "أنا لا أهتم بك ولا برسائلك، اذهب بعيداً".

حاولت التظاهر بالجرأة، لكنّي اختنقت من الخوف، وخرجت الكلمات مكتومة.

عندها عاد شون كوبر إلى سابق عهده وقال: "اسمعني يا تافه، إنْ لم تنزل، سأصعد إليك وأنزلك".

وجود شون كوبر ميتاً في الحديقة أمرٌ سيئ، لكن وجوده ميتاً في غرفتي كان أسوأ. لم يكن هذا سوى مجرد حلم، أليس كذلك؟ كان عليَّ الانسياق معه حتى أستيقظ.

كان عليّ اختيار الحل الأقل سوءاً فقلت له: "حسناً فقط... امنحني دقيقة".

جلبت حذائي الرياضي من تحت السرير، وانتعلته بيدين ترتجفان- من المؤكد أن وجهي كان شاحباً كوجوه الموتى- مشيت نحو الباب، أمسكت

بالمقبض وفتحته. لم أجرؤ الضغط على قابس النور، لذا تحسست طريقي ملامساً الجدار نحو السلالم، ونزلت بشكلٍ جانبيٍّ.

أخيراً وصلت. عبرت الرواق وصولاً إلى المطبخ. تسلل برد الليل إليَّ من خلال نسيج بيجامتي القطنية، وتلاعب نسيمٌ خفيف بشعري. شممت رائحة رطبة وفاسدة وعفنة.

حدق شون إليّ باستحقار وقال: "توقف عن شم الهواء مثل كلب لعين يا تافه".

قفزت واستدرت، كان شون كوبر واقفاً أمامي. عندما نظرت إليه عن قرب، بدا أكثر سوءاً مما ظهر لي من فوق. كانت بشرته ذات لون أزرق فاتح، مكنتني من رؤية الشرايين الصغيرة تحتها. بدت عيناه صفراوين وضئيلتين، في تلك اللحظة زال من قلبي كل أثر للشفقة، و لم أعد أجد ضيراً في أن يمكث في قعر جهنم إلى أبد الآبدين.

تساءلت إن كان هناك مرحلة ما تصل إليها، ولا تشعر بعدها بالخوف. إن كان هذا صحيحاً، فقد وصلت إليها.

حاولت أن أستجمع قواي، فلا مجال للتراجع، الميت أمامي ووالديّ خلفي، إما أن أواجهه أو استنجد بهما فيلحق بي العار، فسألته: "ما الذي تفعله هنا؟".

أجابني ببطء متعمد، فهذا الماكر الميت عندما لمح الخوف بعينيَّ قرر الاستمتاع فقال: "أخبرتك. لديَّ رسالة لك".

قلت له: "تفضل أتحفنا وأخبرنا برسالتك التي صدعت رأسي وأنت تخبرني بشأنها".

هنا اعتدل في وقفته، وترافق ذلك مع مرور سحابة حجبت ضياء القمر وقال بتأنٍ وهو يشدد على كل حرفٍ ينطق به: "انتبه من رجال الطباشير".

هنا شعرت بأن شون صادق برسالته، ولكنني لم أفهم المغزى فقلت له مستفهماً: "وضّح، لم أفهم".

في تلك الأثناء أخذ شون المبادرة وخطا خطوة نحوي وقال: "وهل تعتقد أنني أفهم؟ هل أنت واثق من أنني هنا بمحض إرادتي ولأنني أحبك؟ هل تعتقد

أنني أردت أن أكون ميتاً؟ وأن تكون رائحتي مقززة هكذا؟".

أشار إليّ بذراع بدت وكأنها معلقة في مكانها بشكل غريب. في الواقع، أدركت أنّها لم تكن في مكانها، كانت ممزقة من الأعلى، لمعت العظام البيضاء تحت ضوء القمر.

تابع حديثه ولكن بدا لي صوته وكأنه يتحدث من الأعماق، بدا لي أنه ينقل لي الرسالة من تحت الماء وقال: "أنا هنا فقط بسببك".

صدمني ما سمعت، وسألته: "من أجلي أنا؟!".

فرد عليّ بكل اللوم الذي يمكن أن يتخيله المرء: "هذا خطؤك يا تافه، أنت من بدأ كل شيء".

تراجعت خطوة نحو الخلف باتجاه الباب.

نتيجة ما سمعت ومن هول ما رأيت على النقالة وما أراه الآن وجدت نفسي أقول من دون تفكير: "أنا آسف... أنا حقاً آسف".

بدا أن شون أخذ بزمام المبادرة من جديد فمط شفتيه وقال: "أحقاً أنت آسف؟ حسناً، لَمَ لا تريني كم أنت آسف؟".

أمسك ذراعي. فارتخت مبولتي من شدة الفزع وسال البول الدافئ على ساقي.

وأمرني قائلاً: "*العق*".

"لاااا!"

سحبت ذراعي، في اللحظة ذاتها التي امتلأ فيها ممر السيارة بضوءٍ أبيض ناصع من النافذة.

"إيدي، هل أنت مستيقظ؟ ما الذي تفعله؟".

وقف شون كوبر هناك للحظة، مُناراً مثل زينة عيد الميلاد، كان النور يشع منه، ومن ثم، بالطريقة نفسها التي يتحرر فيها كل الوحوش من الظلمة، تلاشى ببطء وطاف على هيئة غيمة صغيرة من الغبار الأبيض.

نظرت إلى الأسفل، حيث كان واقفاً. فوجدت رسمة باللون الأبيض الناصع على الممر الداكن. رسمة بسيطة لرجل، نصفه تحجبه تعرجات الأرض، ذراعه

مرفوعة وكأنه يلوح بها. فكرت... لا، إنه يغرق وليس يلوح. و لم تكن رسمة رجل بسيطة، بل رجل طباشير.

شعرت بالقشعريرة.

صرخت أمي: "إيدي؟".

اندفعت عائداً إلى الداخل، وأغلقت الباب بأكبر هدوء ممكن.

أجبتها من الأسفل بعد أن ازدردت ريقي: "لا بأس أمي، أردت فقط كوباً من الماء".

فسألتني: "هل سمعت صوت الباب الخلفي؟".

أجبت بما يوحي بثقتي التامة بما أقوله: "لا، أمي".

عندما طمأنها جوابي الواثق قالت: "حسناً اشرب الماء وعد إلى الفراش، لديك مدرسة غداً".

بوداعة طفل في الثانية عشر من عمره قلت: "حسناً، أمي".

تردد صدى صوتها في الأرجاء عندما قالت: "فتى مطيع".

أقفلت الباب، كانت أصابعي ترتجف بشدة لدرجة أنّ الأمر تطلب منّي عدة محاولات لأدير المفتاح في القفل. عدت أدراجي إلى الأعلى، خلعت بنطال بيجامتي، ورميته في سلة الغسيل، وارتديت بنطالاً نظيفاً، وعدت إلى السرير، ولكني لم أنم لفترة طويلة. استلقيت هنالك، منتظراً سماع صوت مزيد من الحجارة تُلقى على نافذتي، أو صوت خطواتٍ مبللة بطيئة على الدرج.

في مرحلةٍ ما، حين بدأت العصافير بالزقزقة على الأشجار، يبدو أنّي غفوت، ولكن ليس لوقت طويل.

استيقظت مبكراً، قبل أمي وأبي. هرعت على الفور إلى الأسفل، وفتحت الباب الخلفي، آملاً أن يكون ما حصل مجرد حلم. لم يكن هنالك شون كوبر ميت، لم يكن هنالك...

ولكن رجل الطباشير لا يزال موجوداً.

مرحباً أيها التافه. هل ترغب بالسباحة؟ تعال، المياه جميلة حتى الموت.

كان بإمكاني تركه، ربَّما كان يجدر بـــي أن أتركه. ولكن بدلاً من ذلك، أخذت وعاء الغسيل الخاص بأمي من تحت المغسلة، وملأتـــه بالمـــاء. أفرغـــت الوعاء، وأغرقت رجل الطباشير بالماء البارد وبقايا رغوة الصابون.

حاولت أن أقنع نفسي أن أحداً ما من الآخرين قد رسمـــه، ربمـــا غـــاف السمين أو هوبو كدعابة سمجة، ولكن استغرق الأمر مني حـــتى وصـــلت إلى نصف الطريق إلى المدرسة لكي أنتبه أن كل واحد منا كان يستخدم لوناً محدداً من الطباشير، فغاف السمين يستخدم الأحمر، وميتال ميكـــي الأزرق، وهوبـــو الأخضر، ونيكي الأصفر، وأنا البرتقالي. لم يكن أي منا يستخدم اللون الأبيض.

2016

اتصلت أمي قبل الغداء مباشرة. إنها تتصل عادةً في أسوأ اللحظـــات، ولم يكن اليوم مختلفاً. يمكنني أن أحوّل الاتصال إلى البريد الصـــوتي، ولكـــن أمـــي تكرهه، وستعبر عن انزعاجها حين أتحدث معها بعدها، لذا ضغطت علـــى زر الإجابة بامتعاض.

"ألو".

حيتني أمي وبدا الحيوية والحماس ظاهرين في نبرة صوتها: "مرحبا إيد".

خرجت بإحراج من الصف إلى الرواق.

سألتها بلهفة مصطنعة: "هل كل شيءٍ على ما يرام؟"

أجابتني بسرعة محاولة تطميني: "بالطبع، لَم لا؟".

لم تكن أمي من هواة الاتصالات الاجتماعية. وبما أنّها تتصل، فلا بـــدَّ أن هناك سبباً لاتصالها.

قلت لها: "لا أعلم. هل أنت بخير؟ كيف حال جيري؟"

فبدأت تخبرني قائلة: "جيد جداً. كنا نتبع حمية للتخلص من السموم عـــبر شرب العصائر، لذا نشعر بالحيوية الآن".

أنا متأكد أن أمي لم تكن تستخدم كلمات مثل "حيوية"، ولم تفكر أبـــداً باتباع حمية مقتصرة على العصائر قبل عدة سنوات، حين كان والدي على قيـــد الحياة. أنا ألوم جيري.

حاولت أن أختصر الحديث: "رائع. لكن أمي، أنا مشغولٌ في أمـــرٍ مـــا لذا..."

فحاولت أن تخبرني بطريقة ما أنها تعرف أنني لست مشغولاً فقالت: "أنت لست في العمل أليس كذلك، إيد؟"

فأجبتها بعد أن فهمت مغزى سؤالها: "بلى".

فأبدت أسفها عليّ وقالت: "من المفترض أن تكون فترة عطلة المدارس الآن".

أخبرها أن هذا صحيح وشرحت لها: "أعلم ذلك، ولكن الأمر اختلف هذه الأيام".

تنهدت: "لا تدعهم يرهقونك في العمل إيد، هنالك أمور أخرى في الحياة".

مجدداً، لم تكن أمي لتقول شيئاً كهذا قبل عدة سنوات. كان العمل أهم شيء في حياتها، ولكن عندما مرض والدي كرست حياتها له.

أنا أتفهم أن كل ما تفعله الآن - بما في ذلك علاقتها مع جيري - إنها طريقتها في استعادة تلك السنين الضائعة. لا ألومها، ألوم نفسي.

لو تزوجت وكونت عائلة، ربما كانت ستملك أموراً أخرى لتملأ أيامها بها، بدل العصير وحميات التخلص من السموم. وربَّما كنت سأملك أموراً أخرى لأملأ بها أيامي بدلاً من العمل.

ولكن ليس هذا ما أرادت أمي سماعه.

قلت لها: "أعلم، أنت محقة".

فنصحتني قائلة: "هل تعلم أنه من الجيد أن تجرب البيلاتس. إنَّها جيدة لجسدك".

فأجبتها بصبر نافد: "سأفكر في الأمر".

لن أفعل.

فعادت إلى صلب الموضوع قائلة: "أياً يكن الأمر، لا أريد أن ألهيك عن عملك. كنت أتساءل فقط إن كان بإمكانك أن تسدي لي خدمةً صغيرة؟".

فأبديت الحماس وقلت: "بالطبع يا أمي".

صرحت قائلة: "أفكر وجيري بالسفر في حافلة التخييم لأسبوع أو اثنين".

فأبديت سروري لما سيقدمان عليه وقلت: "جميل جداً".

قالت: "ولكن مُراقبة القطط التي نتعامل معها عادةً خذلتنا".

تأوهت: "لا".

هنا حاولت التأثير عليّ وعزفت على الوتر الحساس قائلة: "إيد! ظننت أنك تحب الحيوانات".

فأكدت لها صحة المعلومات ولكنني بررت سبب تأوهي: "أنا أفعل. ولكن ميتينز يكرهني".

فعادت لمحاولة تسهيل الأمر عليّ وقالت: "هراء. إنه قط. لا يكره أحداً".

فأجبتها: "إنه ليس قطاً، إنه مريض نفسي ذو فراء".

فسألتني بوداعة: "هل تستطيع الاعتناء به أم لا؟"

تنهدتُ بعد أن أدركت أن ما باليد حيلة وقلت: "نعم. أستطيع. بالطبع".

فقالت: "جيد، سأجلبه غداً صباحاً".

تأوهت مجدداً وقلت لها: "هذا جيد، سأنتظركما".

أنهيت المكالمة، وعدت إلى الصف. كان هناك مراهقٌ نحيل ذو شعر متدلٍّ على وجهه وغرة، يجلس على كرسي، واضعاً رجليه على المكتب، يعبث بهاتفه الذكي، ويمضغ اللبان.

داني مايرز تلميذ يدرس اللغة الإنكليزية معي. إنه ولدٌ ذكي، أو هذا ما يقوله لي الجميع: مديرنا وأهل داني أصدقاء مع عدة أعضاء من *مجلس الحكام*[1]، شيءٌ يدعو للسخرية. أنا لا أشك في ذلك، ولكنّي لم أرَ بعد شيئاً من عمله يثبت لي هذا الذكاء الذي يتحدثون عنه..

بالطبع، ليس هذا ما يريدون سماعه (والداه أو مديرنا). إنّهم يعتقدون أنّ داني بحاجة إلى انتباهٍ خاص. يخيب أمل داني من نظام تعليم الدولة "الموحد للجميع". إنه ذكي أكثر من ذلك، ويتشتت تركيزه بسهولة، إنه حساس للغاية، إلخ إلخ.

---

(1) في إنكلترا وويلز وإيرلندا الشمالية، يكون حكام المدارس أعضاء في مجلس إدارة المدرسة. وفي المدارس الحكومية، تقع على عاتقها مسؤولية رفع المعايير المدرسية من خلال وظائفها الاستراتيجية الثلاث الأساسية من:

ا. ضمان الوضوح في الرؤية والروح والتوجه الاستراتيجي.

ب. عقد مدير المدرسة لحساب الأداء التعليمي للمدرسة وتلاميذها.

ج. الإشراف على الأداء المالي للمدرسة، والتأكد من إنفاق أموالها بشكل جيد.

لذلك يخضع داني الآن لما ندعوه "بالتدخل". هذا يعني أنه قد تمّ جره للحصول على دروس إضافية خلال عطلة المدارس، ومن المفترض أن أقوم بإلهامه، وأن أسيطر عليه، وأتملق له حتى يحصل على الدرجات التي يظن والداه أنه يستحقها.

ينتج عن هذه التدخلات نتائج جيدة، أحياناً، مع الأطفال الذين يملكون مؤهلات، ولكن لا يؤدون جيداً في الصف. في مرات أخرى، يكون الأمر تضييعاً لوقتي ووقتهم. لا أحب الشعور بالهزيمة، لكنّي واقعي، فأنا لست السيد شيبس[1]. حين يأتي الأمر للواقع، أريد أن أعلم الطلاب الذين يرغبون بالتعلم. الطلاب المهتمين، أو على الأقل الطلاب الذين يريدون المحاولة. من الأفضل أن تحصل على علامة جيد مستحقة، على أن تحصل على علامة جيد جداً باستهتار.

قلت وأنا جالسٌ على كرسي: "أنزل رجليك، واترك هاتفك".

أنزل رجليه عن الطاولة، لكنّه أكمل عبثه بالهاتف. أرجعت نظارتي إلى الخلف، ووجدت المقطع في النص الذي كنا نناقشه.

خاطبته قائلاً: "حين تنتهي، ربما ستسترعي انتباهك رواية *ملك الذباب*[2]؟"

لم يعرني انتباهاً، وتابع اللعب بالهاتف.

---

(1) وداعاً، السيد تشيبس فيلم دراما رومانسي من إنتاج العام 1939 من إخراج سام وود وبطولة روبرت دونات وجرير غارسون. يستند إلى رواية وداعاً الصادرة عام 1934، جسدت شخصية السيد شيبس من قبل جيمس هيلتون، والفيلم هو عن السيد تشيبينغ، وهو مدرس أمضى عمره في التدريس يتذكر حياته المهنية وحياته الشخصية على مدى عقود.

(2) نشرت رواية ملك الذباب عام 1954، وكانت الرواية الأولى لغولدينغ. بالرغم من أنها لم تحقق نجاحاً كبيراً وقت صدورها، فقد بيع منها أقل من ثلاثة آلاف نسخة، ولكن في العام 1955 سرعان ما تصدرت الكتب الأكثر مبيعاً. وأنتج فيلمان بالاستناد إليها، أولهما من إخراج بيتر بروك عام 1963 والثاني عام 1990 من إخراج هاري هوك. وتتحدث القصة عن إجلاء في وقت الحرب، وتحطم طائرة بريطانية في جزيرة معزولة أو بالقرب منها في منطقة نائية من المحيط الهادئ. وكان الناجون ثلاثة أولاد في مرحلة ما قبل المراهقة أو في مرحلة المراهقة.

هنا شعرت بالغضب وهددته قائلاً: "داني، أكره أن أضطر لأن أقترح على والديك أن يحظرا استخدامك لوسائل التواصل الاجتماعي، لأنها الطريقة الوحيدة لرفع علاماتك...".

حدق داني إليّ للحظة، ابتسمت له بتهذيب. كان يرغب بالجدال والتهجم، ولكنه هذه المرة أغلق هاتفه وأعاده إلى جيبه، في تصرف غير معهود ولم أجد له أي تفسير منطقي، وبالتالي لم أعتبر ما أقدم عليه نصراً شخصياً، بدا لي الأمر وكأنه جعلني أنجو بفعلتي هذه المرة.

لا بأس بهذا. أي شيءٍ يجعل هاتين الساعتين تمران بسهولة أكبر بالنسبة إليّ. أستمتع أحياناً بهذه الألاعيبِ النفسية مع داني، وأشعر حقاً بالرضى حين أجعله يسلمني واجباً نصف مقبول. ولكن لم يكن هذا اليوم المناسب لذلك. كنت أشعر بالتعب من النوم المتقطع الليلة الماضية، وكنت متنبهاً لحدوث أمر ما، أمرٍ سيئ، أمرٍ لا يمكن الحيلولة دونه.

حاولت أن أركز على النَّص. "حسناً، كنَّا نتحدث عمَّا تمثله الشخصيات الرئيسية: رالف، جاك، سايمون.."

هزَّ كتفيه وقال: "كان سايمون مضيعة للوقت منذ البداية".

فسألته مستغرباً إجابته: "لما تقول هذا أو بالأحرى كيف توصلت لهذا الاستنتاج".

فحدق إلى عينيّ، وبدا في غاية الهدوء والثقة بالنفس وقال: "كان زيادة عدد، أحمق. كان يستحق الموت".

صعقت من تحليله الذي أقل ما يقال به أنه همجي بالنسبة إلى فتى في مثل سنه فسألته: "ماذا تقصد بقولك يستحق الموت؟".

مزهواً بما رآه من صدمة اعتلت وجهي أخذ يشرح وجهة نظره قائلاً: "حسناً لم يكن خسارة كبيرة، حسناً؟ كان جاك محقاً. إن كان عليهم أن يبقوا على قيد الحياة في هذه الجزيرة، عليهم أن ينسوا كل الحياة المتحضرة".

فوضحت له: "ولكن الفكرة من الرواية بأكملها، هي أنه إذا لجأنا إلى الوحشية فسينهار المجتمع".

فاستهجن توضيحي وسألني: "ما المانعِ من انهيار المجتمع؟ فهو مجتمع يقوم على الرياء، هذا ما يقوله الكتاب. إننا جميعاً نتظاهر بأننا متحضرون، ولكننا في أعماقنا لسنا كذلك".

ابتسمت، مع شعوري بالانزعاج، ربما عاودني سوء الهضم مجدداً. "حسناً، إنَّها وجهة نظر مثيرة للاهتمام".

رنت ساعتي. أنا أضع منبهاً دوماً يحدد نهاية كل جلسة.

"حسناً إذاً هذا كلُّ شيء اليوم" جمعت كتبي: "سأتطلع قدماً لقراءة المزيد عن هذه النظرية في مقالتك القادمة، داني".

وقف وحمل حقيبته "أراك لاحقاً سيدي".

"أراك في الوقت ذاته الأسبوع المقبل".

بينما كان يخرج من الصف، وجدت نفسي أقول: "وأفترضْ أنَّه في نسختك من المجتمع ستكون أحد الناجين، داني؟"

فأجابني وهو يرمقني بنظرة غريبة: "بالطبع، ولكن لا تقلق سيدي، ستكون أنت أيضاً من الناجين".

طريق الحديقة هو الطريق الأبعد للعودة من المدرسة إلى البيت، وبما أنَّ الجو كان معتدلاً قررت التنزه، والقيام بجولة على درب ذكريات الطفولة.

إن السير على ضفة النهر جميل، حيث الحقول الغناء تنتشر على إحدى الجهتين، وتشاهد الكاتدرائية في الخلف، مع أنها حالياً نصف مغطاة بالسقالات، كما كانت لبضعة أعوام. تطلب الأمر أربعمئة عام لبناء البرج الشهير من الصفر، دون أدوات مناسبة أو آلات. لا أستطيع إلا أن أفكر أنَّ الأمر سيستغرق أكثر من ذلك لترميمه، حتى مع عجائب التكنولوجيا الحديثة.

بالرغم من هذا المشهد الخلاب، كلَّما سرت بالقرب من النهر تنجذب عينايَ إلى المياه البنية التي تجري بسرعة، وأجد نفسي أُفكر ببرودتها وبشدة تيارها، فأنا لم أنسَ بعد شون كوبر، كيف كان مغموراً تحت سطح الماء، محاولاً أن يصل إلى دراجته. الدراجة التي لم يعترف أحد بمسؤوليته عن سرقتها.

تقع على يساري المنطقة الترفيهية الجديدة. بضعة فتية يلعبون بـالألواح في حديقة التزلج، وهناك أم تدفع ابنها الصغير في لعبة الدوار، وفتاة مراهقة تجلس منعزلة على الأراجيح. رأسها للأسفل وشعرها يغطي وجهاً كستارة لامعة، وبالرغم من أن شعرها بني، وليس أحمر. ولكن طريقة جلوسها، معزولة لوحدها في قوقعة من الاتزان الذاتي، ذكرتني للحظة بنيكي.

تذكرت يوماً آخر من ذاك الصيف. لحظة قصيرة، كادت تضيع في دهليز الذكريات. كانت أمي قد أرسلتني إلى البلدة لأشتري بعض الحاجيات. وكنت عائداً عبر الحديقة حين رأيتُ نيكي في حديقة الألعاب. كانت تجلس وحيدة على إحدى الأراجيح، تحدق إلى حضنها. كدت أناديها: *مرحباً نيكي!*

لكن شيئاً ما أوقفني. ربما بسبب الطريقة التي كانت تتأرجح فيها، إلى الأمام والخلف. اقتربت أكثر، كانت تمسك شيئاً ما بيدها. لمع اللون الفضي تحت أشعة الشمس، فرأيتها تحمل صليباً صغيراً كانت تضعه عادة حول عنقها. شاهدتها وهي ترفعه... ثم تطعن فخذها الناعم به، مرة تلو الأخرى.

تراجعت وعدت إلى المنزل مسرعاً. لم أخبر نيكي أو أي أحد آخر بما رأيته ذاك اليوم، لكني احتفظت بتلك الذكرى معي. ذكرى استخدامها الصليب في طعن ساقها، مرة تلو الأخرى. لا بد أنها نزفت، لكنَّها لم تصدر صوتاً، أو أنيناً.

نظرت الفتاة في الحديقة إلى الأعلى، وأعادت شعرها إلى خلف أذنيها. ظهرت عدة حلقات فضية في شحمة أذنها، وبرزت حلقة معدنية كبيرة من أنفها. إنها أكبر مما توقعت في البداية، على الأرجح أنها طالبة جامعية. مع ذلك أنا واعٍ تماماً أنّي رجل في منتصف العمر ذو مظهر غريب، أحدق إلى فتاة مراهقة في حديقة للأطفال.

أبعدت نظري عنها وتابعت طريقي، بخفة أكبر. رجَّ هاتفي في جيبي، أخرجته متوقعاً أن تكون أمي المتصلة، ولكن لم تكن كذلك، بل كلوي.

قلت: "نعم؟".

فأجابتني معبرة عن امتعاضها: "يا لها من طريقة جميلة للرد على الهاتف، يجب أن تعمل على آداب استخدامك للهاتف".

أردت تتجنب النقاش معها فقلت: "آسف. أنا فقط... آسف، ماذا هنالك؟".

فقالت لي: "ترك صديقك محفظته هنا".

سألتها: "من ميكي؟".

فقالت: "نعم، وجدتها تحت طاولة الرواق بعد أن غادرت، لا بد أنها وقعت من سترته".

عبست. إنه وقت الغداء، لا بد أن ميكي أدرك فقدانه لمحفظته بهذا الوقت، فقد كان ثملاً كثيراً الليلة الماضية. ربَّما لايزال نائماً في الفندق الذي يقيم به.

شكرتها وقلت لها: "حسناً. سأتصل به وأخبره. شكراً".

"حسناً".

ثم خطر ببالي شيءٌ.

فسألتها بلطف: "هل يمكنكِ أن تجلبي محفظة ميكي، وتنظري في داخلها؟".

فقالت: "انتظر".

سمعتها تتحرك وتعود مجدداً. "حسناً، نقود (حوالي عشرين جنيهاً)، بطاقات ائتمان، بطاقات مصرفية، إيصالات، رخصة قيادة".

سألتها: "هل يوجد فيها بطاقة مفتاح غرفته في الفندق؟"

فتأوهت قائلة: "صحيح يوجد مفتاح غرفة فندق فيها".

بطاقة المفتاح، البطاقة التي يحتاج إليها لدخول غرفته. بالطبع، أنا متأكد أن أحد العاملين كان مسروراً لإعطائه بطاقة أخرى، إن كان يملك هويته أو ما شابه...

قالت كلوي وكأنها تقرأ أفكاري: "هل هذا يعني أنه لم يعد إلى فندقه الليلة الماضية؟".

أجبتها وبدوت متشككاً: "لا أعرف، ربما نام في سيارته، على ما أظن".

ولكن لِمَ لَمْ يتصل بي؟ وحتى إن لم يرد إزعاجي الليلة الماضية، لِمَ لم يتصل هذا الصباح؟

قالت كلوي: "أرجو ألا يكون مستلقياً في حفرةٍ في مكان ما".

فزجرها قائلاً: "لمَ قلتِ هذا بحق السماء؟".

ندمت على الفور لما قلته لها، أكاد أسمعها تمتعض على الهاتف.

لكنها استدركت الموقف وقالت: "ما بك هذا الصباح؟ هل نهضت من سريرك ووجدت لوحة تعرف عنك بكلمة (أحمق)؟"

أجبتها بكل ما أملك من لطف: "أنا آسف، أنا فقط مرهق".

"لا بأس" قالتها بنبرة تنم عن عكس ذلك "ما الذي ستفعله؟".

لم تكن لديّ خيارات كثيرة فأجبتها: "سأتصل به. إن لم أستطع الوصول إليه، سآخذ المحفظة إلى الفندق، وأطمئن عليه".

فأخبرتني: "سأتركها على طاولة الرواق".

سألتها: "هل أنتِ مغادرة؟".

فأجابتني بنزق: "لقد أصبت، شارلوك. لديّ حياة اجتماعية رائعة، هل تذكر؟".

فقلت لها: "حسناً أراكِ لاحقاً".

فأجابتني بطريقة لم تعجبني: "لا آمل ذلك بصدق".

أنهت المكالمة، وتركتني أتساءل إن كانت تلك دعابة حول البقاء خارجاً لوقت متأخر، أو تعبيراً صادقاً عن عدم رغبتها في رؤية وغدٍ مزاجيٍ مثلي مرة ثانية.

تنهدتُ، وحاولت الاتصال بميكي. تحول الاتصال على الفور إلى البريد الصوتي:

"مرحباً، معكم ميكي. لا أستطيع الوصول إلى الهاتف حالياً، لذا اتركوا رسالة صوتية بعد الصافرة".

لم أكبد نفسي عناء ترك رسالة، تابعت طريقي وخرجت من الحديقة، وسلكت الطريق الأقصر للوصول إلى المنزل، محاولاً تناسي القلق الغامض الذي أشعر به في أعماقي. لا بدَّ أن ذلك بلا سبب، من المؤكد أن ميكي عاد إلى الفندق، وأقنع العاملين أن يعطوه بطاقة مفتاح جديدة وهو نائم الآن ريثما تزول

آثار الثمالة. بوصولي إلى هناك سأراه يتناول الغداء، وسيكون على ما يرام.

قلت هذا في نفسي عدة مرات، مع ازدياد قناعتي بذلك في كل مرة.

وكل مرة، يقلُّ تصديقي لذلك.

فندق ترافلودج مبنى بشع بالقرب من مطعم ليتل شيف القديم. فكرت أن ميكي كان يملك ما يكفي من المال للمكوث في مكان أفضل، ولكنه كان يفي بالغرض.

حاولت الاتصال به مرتين وأنا في طريقي، ولكن تحول الاتصال مجدداً إلى البريد الصوتي. ازداد قلقي تدريجياً.

ركنت سيارتي، ودخلت قاعة الاستقبال. هناك شاب أصهب ذو شعر طويل وخشن، مربوط على شكل ذيل حصان، مع ثقوب في أذنيه، واقف خلف المكتب، بدا منزعجاً من قميصه الضيق كثيراً، وربطة عنقه المربوطة بشكل سيئ. هناك شارة مثبتة على جيب قميصه تحمل اسمه "دادس"، والذي بدا اسماً رديئاً، وأقرب إلى ذنب مزمن.

حياني وسألني: "مرحباً. هل ترغب بتسجيل الدخول؟".

فأجبته بلباقة: "لا، في الواقع أنا هنا لرؤية صديقي".

فسألني: "حسناً، ما اسم صديقك؟".

أجبته: "ميكي كوبر. أعتقد أنه سجل الدخول البارحة؟".

فقال: "جيد".

استمر بالتحديق إليّ بشكل غامض.

قلت: "إذاً، هل تستطيع أن تتأكد من ذلك؟".

فسألني: "ألا تستطيع الاتصال به؟".

أجبته: "إنه لا يجيب، والأمر هو..." أخذت المحفظة من جيبي. "نسي هذه في منزلي الليلة الماضية، وفيها بطاقة مفتاح غرفته، وكل بطاقات الائتمان".

انتظرت الاهتمام حتى الفجر، نمت الطحالب حول قدمي، تشكلت الأنهار الجليدية وذابت.

قال أخيراً: "أنا آسف، لم أفهم".

فاستعدت شخصية معلم المدرسة وقلت له: "أنا أطلب منك أن تتأكد أنه عاد إلى هنا سالماً الليلة الماضية، فأنا قلق عليه".

بدا عليه أنه فهم فتأوه وقال: "حسناً، لم أكن مناوباً البارحة. كانت جورجيا المناوبة".

عدت إلى دور المعلم الذي يعطي التعليمات لينفذها التلاميذ: "حسناً، إذن، هل هنالك أي شيء على الكومبيوتر؟".

أشرت إلى الكومبيوتر العتيق الموجود على مكتب غير مرتب في الزاوية. "كان عليه أن يطلب بطاقة مفتاح جديدة، لا بد أنه يوجد هناك سجل لذلك؟".

مرة جديدة يبدو أنني معلم جيد وتمكنت من شرح المطلوب فقال: "حسناً أعتقد أنه يمكنني تفقد ذلك".

فأكدت على ذلك بقولي: "أعتقد أنه يمكنك ذلك".

رمى نفسه على كرسي المكتب، وضغط بضعة أزرار.

ثم استدار وقال: "لا، لا شيء".

فعدت إلى توجيهه: "حسناً، هل يمكنك الاتصال بجورجيا؟".

فكّرت أن حمل دادس على القيام بأي شيء خارج نطاق عمله، يتطلب جهداً هائلاً. لأكون صادقاً، يبدو أن التنفس مهمة صعبة بالنسبة إليه.

قلت: "أرجوك؟"

تنهد عميقاً: "حسناً".

رفع الهاتف: "مرحباً، جورجيا؟".

انتظرت.

سألها: "هل أتى الليلة الماضية رجلٌ ما يدعى ميكي كوبر دون بطاقة مفتاح؟ هل اضطررت لتبديلها؟ حسناً. شكراً".

أغلق السماعة وسار عائداً إلى المكتب.

سألته: "ماذا قالت؟"

أجابني بما لم ترغب أذني سماعه: "لا، صديقك لم يأتِ إلى هنا الليلة الماضية".

1986

في الحقيقة، كنت أظن أن المآتم يجب أن تقام في الأيام الماطرة حيث تكون السماء ملبدة بالغيوم، ويكون المشيعون ممن يرتدون الثياب السوداء ويحتمون من المطر بالمظلات، لا أعرف من أين تكونت لديّ هذه الفكرة. ربما شاهدت جنازة على التلفاز وكانت بهذه المواصفات وعلقت ذكراها في العقل غير الواعي، وربما هي صورة ابتدعها خيالي الواسع، ربما ربطت السماء الرمادية الملبدة بالغيوم والماطرة بالدموع التي يذرفها المشيعون وربما ربطت المظلة التي يحتمي المشيعون تحتها من المطر بالقبور التي تغلق فوق جثامين الموتى، أعرف أن الأمر غير منطقي، ولا علاقة له بالحقيقة لا من قريب ولا من بعيد ولكنها مجرد ظنون.

وما يثبت خطأ ما كنت أظنه، أن الشمس كانت مشرقة صباح مأتم شون كوبر، على الأقل في بداية المأتم، ولم يرتدِ أحد اللون الأسود. فقد طلبت عائلته أن يرتدي الناس أحد اللونين الأزرق أو الأحمر، ألوان شون المفضلة. ألوان فريق كرة القدم في المدرسة. وهذا ما حصل بالفعل، حتى أن عدداً من الأولاد قدموا مرتدين زيهم المدرسي.

اختارت أمي قميصاً أزرق باهتاً مع ربطة عنق حمراء، وبنطالاً داكناً.

"لا يزال عليك أن تبدو ذكياً، إيدي. لتقدم تعازيك".

في الواقع، لم أرد أن أقدم تعازي. فأنا لم أرغب في الذهاب إلى جنازته على الإطلاق، فأنا لم يسبق لي أن شاركت في جنازة من قبل، لا أذكر أنّي فعلت. على ما يبدو، أخذني أبي وأمي إلى جنازة جدي، ولكنّي كنت رضيعاً، وكان جدي مسناً. يتوقع المرء أن يتوف الناس المسنون، حتى رائحتهم كانت تنم على أنهم نصف ميتين بالفعل، رائحة رطبة وعفنة.

بالنسبة إلى فتى في الثانية عشرة من عمره، كانت الأمور بشأن الموت أو على الأقل جلية، أو ضبابية قليلاً. فالفكرة كانت بهذه البساطة صحيح أن الناس يموتون لا نقاش في ذلك، ولكن هؤلاء الناس الذين يموتون هم أناس بعيدون عنا لا تربطنا بهم أي صلة قرابة أو صداقة، أما الأطفال والفتية فلا شأن للموت بهم، كانت نظرة سطحية تجريدية تناسب عالم الطفولة. ولكن عندما مات شون تغيرت هذه النظرة وثبت خطؤها، وللمرة الأولى أدركت بما لا يحمل مجالاً للشك أن الموت على بعد نفس واحد منا نفس واحد بارد وفاسد، والموت ماكر إلى أقصى الدرجات فهو يجعلك تتوهم أنه بعيد بينما يكون قريباً جداً ومستعداً لضرب ضربته الأخيرة، وهو يمتلك في جعبته الباردة والمظلمة العديد العديد من الخدع التي لا تُعد ولا تُحصى.

كانت الكنيسة على بعد مسير عشر دقائق من منزلنا. تمنيت لو كانت أبعد. جررت قدميّ، وأمسكت ياقة قميصي. ارتدت أمي نفس الفستان الأزرق الذي ارتدته في حفلة غاف السمين، مع سترة حمراء فوقه، وارتدى والدي بنطالاً طويلاً وكانت هذه إحدى المرات القليلة التي يفعل بها ذلك، وكنت ممتناً لذلك، وقميصاً مع زهور حمراء عليه عبارة (لم أكن).

وصلنا إلى البوابة، ثم إلى فناء الكنيسة في الوقت ذاته الذي وصل فيه هوبو وأمه. لم نكن نرى والدة هوبو كثيراً، إلا في المرات التي كانت تنظف سيارتها. رفعت اليوم شعرها على شكل كعكة، وارتدت فستاناً أزرقَ من دون قصات، وانتعلت صندلاً يبدو قديماً ومهترئاً. يبدو هذا أمراً رهيباً حسب قوله، ولكني كنت مسروراً كثيراً لأنّ أمي لم تبدُ مثلها. بالطبع لن تبدو مثلها فأمي طبيبة، وغاف السمين قال إن الأطباء يجنون الكثير من المال.

ارتدى هوبو قميصاً أحمر، وبنطال المدرسة الأزرق مع حذاء أسود. كان شعره الكثيف مصففاً إلى جهة واحدة. بدا مظهره مختلفاً، ليس فقط بسبب شعره وملابسه الأنيقة، بل أيضاً لأنه بدا متوتراً وقلقاً، وكان يربط كلبه مورفي..

قالت أمي: "مرحباً ديفيد، مرحباً غوين".

لم أكن أعرف أن غوين هو اسم والدة هوبو. كانت أمي تحفظ الأسماء جيداً، ولكن والدي لم يكن كذلك. كان يمزح، قبل أن يصاب بمرض الزهايمر، إنّ نسيان أسماء الناس لم يكن أمراً جديداً بالنسبة إليه، حتى قبل أن يفقد ذاكرته.

حيا هوبو والديَّ قائلاً: "مرحباً، سيد وسيدة آدامز".

قالت أمه: "مرحباً" بصوت خافت ومنخفض. لطالما تحدثت وكأنها تعتذر عن خطأ ما.

سألت أمي: "كيف الحال؟" بالنبرة المهذبة التي كانت تستخدمها حين لا تريد معرفة الإجابة.

لم تفهم والدة هوبو التلميح، قالت: "الحال ليست جيدة كثيراً، ما حصل رهيبٌ حقاً، وكان مورفي مريضاً طوال الليل".

قال والدي: "يا إلهي" بنبرة متعاطفة.

انحنيت لأداعب مورفي. هز ذيله بشكلٍ متعب، وجلس على الأرض. بدا وكأنه لا يرغب بالوجود هنا مثل بقيتنا.

سألهما والدي: "هل هذا السبب وراء جلبكما إياه إلى هنا؟"

أومأ هوبو برأسه. "لم نرد أن نتركه وحيداً في المنزل، سيبدأ بالعبث، وإذا وضعناه في الحديقة، سيقفز عن السياج ويهرب. لذا فكرنا أننا نستطيع ربطه هنا".

أومأ والدي برأسه وقال: "حسناً، يبدو أن هذه فكرة سديدة"، وربّت على رأس مورفي: "يا لك من مسكين، إنك تصبح مسناً، أليس كذلك؟"

قالت أمي: "إذاً. أعتقد أنه من الأفضل أن ندخل".

انحنى هوبو واحتضن مورفي. فلعق الكلب المسن وجهه بلسانه الكبير والرطب.

فهمس هوبو له قائلاً: "فتى مطيع. وداعاً".

اندفعنا جميعاً عبر بوابة الكنيسة نحو المدخل. كان هنالك مزيد من الناس يتجولون في الخارج، بعضهم يدخنون. رأيت غاف السمين ووالديه. وقفت

نيكي عند مدخل الكنيسة، بجانب الكاهن مارتن. كانت تمسك بحزمة من الأوراق، أوراق ترنيمات حسب ما أظن.

شعرت بالتوتر. كانت تلك المرة الأولى التي يلتقي فيها أمي وأبي مع الكاهن مارتن وجهاً لوجه منذ الحفلة والرزمة. عندما رآنا الكاهن ابتسم.

"السيد والسيدة آدامز، وإيدي. شكراً لقدومكم في هذا اليوم المفجع".

مدّ يده. لكن والدي تجاهل اليد الممدودة و لم يصافحها. بقيت الابتسامة على وجه الكاهن، ولكني رأيت نظرةً أقل لطافةً في عينيه.

"أرجوكم، خذوا ورقة ترنيمة وجدوا مقعداً في الداخل".

أخذنا أوراق الترنيمات. أومأت نيكي لي إيماءة صغيرة وصامتة، ودخلنا ببطء إلى الكنيسة.

في الداخل كان الجو بارداً بما يكفي لجعلي أرتعش قليلاً، وكان داخل الكنيسة معتماً ما تطلب من عينيّ دقيقة كي تألفا العتمة. كان هنالك بضعة أشخاص جالسين بالفعل. عرفت بعض الأولاد من المدرسة وعدة مدرسين، وكان السيد هالوران حاضراً أيضاً. كان من الصعب عدم ملاحظته، بفضل شعره الأبيض البارز. اليوم، ارتدى قميصاً أحمر من أجل التغيير، ووضع قبعته على حضنه. عندما رآني ادخل مع أمي وأبي ابتسم لي ابتسامة خفيفة. كانت ابتسامات الجميع خفيفة وغريبة يومها، وكأنه لم يكن هنالك أحد يعلم تعابير الوجه المناسبة.

جلسنا وانتظرنا، ثم دخل الكاهن ونيكي وبدأت الموسيقى. كان هنالك لحن تذكرته ولكنني لم أستطع تمييزه. لم يكن ترنيمة أو ما شابه ذلك. كانت أغنية حديثة، وبطيئة. بشكلٍ ما، بالرغم من أنها كانت حديثة، إلا أنني لم أكن واثقاً من أنها الأغنية المناسبة لشون، الذي أحب الاستماع لفرقة آيرون مايدن.

خفضنا جميعاً رؤوسنا حين أحضروا التابوت. سار كل من ميتال ميكي وأمه وأبيه خلفه. كانت تلك المرة الأولى التي نرى فيها ميتال ميكي منذ حصول الحادث.

لم ينظر ميتال ميكي إلى التابوت. كان يحدق إلى الأمام مباشرةً، وجسده متصلب بأكمله. كان الجهد الذي يبذله للمشي والتنفس والبكاء كل ما يشغل تركيزه. كان بمنتصف الطريق إلى الكنيسة حين توقف فجأة. كاد الرجل الذي يسير خلفه أن يصطدم به. حصلت لحظة ارتباك، ثم استدار ميتال ميكي وهرب من الكنيسة راكضاً.

تبادل الجميع النظرات، عدا أمه وأبيه، اللذين بديا وكأنهما لم يلحظا غيابه. استمرا بالسير إلى الأمام مثل الأموات الأحياء، المتقوقعين داخل قوقعتهم المملوءة بالحزن. لم يلحق أحد بميتال ميكي. نظرت إلى أمي، ولكنها هزت رأسها هزة صغيرة وعصرت يدي.

أعتقد أن هذا ما أثر فيّ. رؤية ميتال ميكي منزعجاً مرة أخرى، بسبب شابٍّ كرهه كما كرهناه ولكنه لا يزال شقيقه. ربما لم يكن شون متنمراً لئيماً كل الوقت. ربما كان يلعب مع ميتال ميكي حين كان صغيراً. ربما كانا يذهبان إلى الحديقة سويةً، ويتشاركان ألعاب الليغو ووقت الاستحمام.

إنه الآن مستلقٍ في تابوت بارد ومظلم، مغطى بالأزهار التي فاحت منها رائحة قوية، بينما كان أحدهم يعزف موسيقى كان يكرهها، ولم يستطع إخبارهم بذلك لأنه لن يستطيع التحدث مع أي كان أبداً بعد الآن.

غصصت ومن ثم أغمضت عيني وفتحتهما عدة مرات. هزت أمي ذراعي وجلسنا جميعاً. توقفت الموسيقى ووقف الكاهن مارتن وألقى عظة دينية تحدث فيها عن الرب الغفور، ثم تناول الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها الفتى المتوفى. لم يكن معظم ما قاله منطقياً، خصوصاً عندما تحدث قائلاً إن شون أصبح ملاكاً في الجنة، وأخذت أتساءل كيف يمكن لقذر حقير مثل شون أن يصبح ملاكاً. نظرت إلى أمه وأبيه اللذين كانا يتكئان أحدهما على الآخر وينتحبان بشدة لدرجة أنهما بدوا وكأنهما سينهاران في أي لحظة. ولكني لم أعتقد ذلك.

عندما كان الكاهن مارتن على وشك الانتهاء من المراسم، سمعنا جلبة ودخل تيار هوائي قوي تسبب في بعثرة بعض أوراق الترنيمات على الأرض. معظم الناس في الكنيسة استداروا، واستدرت معهم.

انفتحت أبواب الكنيسة على مصراعيها. في البداية، ظننت أن ميتال ميكي قد عاد، ولكني تمكنت من رؤية شكلين في النور. بعد أن مشيا لمسافة في الكنيسة تعرفت إليهما: إنهما صديقة فتاة والتزر الشقراء والشرطي الذي أتى إلى منزلنا، بـي سي توماس. (علمت لاحقاً أن اسمها كان هانا وأن بـي سي توماس كان والدها).

للحظة تساءلت إن كانت الفتاة الشقراء في مشكلة. كان بـي سي توماس يمسك ذراعها بقوة حيث مشيا نصف الممر وجرها في النصف الآخر. عمّ الهمس الكنيسة.

همست والدة ميتال ميكي بشيء لوالده. وقف، وفجأة تغيرت ملامح وجهه وبدت قاسية، وأخذ الشرر يتطاير من عينيه، ومن منبر الوعظ حيث كان يقف الكاهن مارتن خاطبهما قائلاً: "إن جئتما للمشاركة في المراسم وتقديم التعازي فنحن على وشك الانتهاء، وأوشكنا على الانتقال إلى المقبرة".

توقف كل من بـي سي توماس والفتاة الشقراء. جال بنظره في أرجاء الكنيسة. لم تلتقِ عيناه عيني أحد. جلسنا جميعاً، صامتين وفضوليين، ولكن غير راغبين بأن نبدو كذلك. نكست الفتاة الشقراء رأسها وحدقت إلى الأرض، وكأنها تتمنى لو تبتلعها، كما كانت ستفعل بشون كوبر.

"تعازيّ؟" قالها بـي سي توماس ببطء. "لا، لا أريد أن أقدم تعازيّ". ثم بصق على الأرض، أمام التابوت تماماً. "لن أقدمها للفتى الذي اغتصب ابنتي".

بدت الصدمة على وجوه الجميع، وتصاعد اللهاث، أعتقد أني قد أصدرت صوتاً خافتاً من فمي. اغتصبها؟! لم أعرف ما كانت تعنيه كلمة "اغتصاب" (أعتقد أنني كنت بطرق كثيرة طفلاً ساذجاً بالنسبة إلى فتى في الثانية عشرة من العمر)، ولكني علمت أنه عنى إرغام الفتاة على فعل شيءٍ لم ترد فعله، وعلمت أنه أمر سيئ.

صرخ والد ميتال ميكي: "أيها الكاذب اللقيط".

قال بـي سي توماس: "لقيط؟ سأخبرك ما هو اللقيط" وأشار إلى ابنته. "الطفل الذي تحمله".

شهقة أخرى. بدا وجه الكاهن مارتن وكأنه سينزلق عن جمجمته. فتح فاه، ولكن قبل أن يتمكن من قول شيء سمعنا صرخة عالية واندفع والد ميتال ميكي وهجم على بـي سي توماس.

لم يكن والد ميتال ميكي ضخماً، ولكنه كان ممتلئ الجسم وسريعاً فهجم على بـي سي توماس على غفلة. تمايل الشرطي وتمكن من الحفاظ على توازنه. تمايل الاثنان إلى الأمام والخلف، كل منهما ممسك بذراع الآخر وكأنهما كانا يرقصان رقصة مروعة وغريبة. ثم ابتعد بـي سي توماس. سدد لكمة باتجاه رأس والد ميتال ميكي. وبشكلٍ ما، تمكن والد ميتال ميكي من تفاديها وسدد لكمة مقابلة. هذه المرة أصابت اللكمة بـي سي توماس فترنح إلى الخلف.

في تلك الأثناء، كان بإمكاني توقع ما سيحصل بعد ذلك، قبل حصوله. أعتقد أن معظم المعزين توقعوا ذلك أيضاً. كان هناك صراخ، وصرخ أحد ما "لاا!" حين اندفع بـي سي توماس وارتطم بتابوت شون كوبر، محركاً إياه من مكانه أمام منبر الوعظ ما تسبب بوقوعه على الأرض.

لست متأكداً إن كنت قد تخيلت ما حصل لاحقاً، لأنه لا بد أن غطاء التابوت كان مثبتاً بإحكام؟ أعني، لا بد أنهم لم يريدوا أن ينزلق شون إلى الخارج أثناء قيامهم بوضعه في القبر. ولكن حين ارتطم التابوت بالأرض وأصدر صوت تحطم رهيب ذكرني أكثر من اللازم بأن عظام شون كوبر كانت ترتطم بجنبات التابوت من الداخل، وانفتح الغطاء قليلاً، وتمكنت من رؤية يد بيضاء واحدة بشكل سريع.

أو ربما لم أرها، ربما كانت تلك مخيلتي الجامحة والغبية مرة أخرى، حدث كل شيءٍ بسرعة، عندما وقع التابوت على الأرض عم الصراخ أرجاء الكنيسة، وهرع عدة رجال لحمله ووضعه على القاعدة.

وقف بـي سي توماس بدون اتزان. وبدا والد ميتال ميكي غير متزن أيضاً. رفع ذراعه وكأنه سيضرب بـي سي توماس مجدداً، ولكن بدلاً من ذلك استدار ورمى نفسه على التابوت وأجهش بالبكاء. كان ينحب بصوت عالٍ ورهيب.

نظر بي سي توماس في الأرجاء. بدا عليه الدوار نوعاً ما، وكأنه كان يستيقظ من حلم رهيب. كانت قبضتاه ترتجفان. مرر يداً عبر شعره الداكن، والذي كان متعرقاً وأشعث. وكان هناك كدمة بالقرب من عينه اليمنى.

همست الفتاة الشقراء: "أبي، أرجوك؟".

نظر بي سي توماس إليها، ثم أمسك ذراعها مجدداً وجرها عبر ممر الكنيسة عائداً. في نهاية الممر استدار وقال: "لم ينته الأمر بعد". ثم اختفيا.

لم يستغرق الأمر برمته أكثر من ثلاث إلى أربع دقائق، ولكنني شعرت أنه أطول من ذلك بكثير. تنحنح الكاهن مارتن بصوتٍ عالٍ، ولكن بالكاد سمعتْ نحنحته بسبب نحيب والد ميتال ميكي.

"أعتذر كثيراً لما يحصل. سنكمل الآن المراسم في الخارج. أرجو من الحضور الوقوف".

مزيد من الموسيقى، جر بعض أقارب عائلة ميتال ميكي والده بعيداً عن التابوت، وكان علينا جميعاً أن نخرج مجدداً، إلى المقبرة.

كنت قد خرجت لتوي من الكنيسة حين أحسست بأول قطرة من الماء على رأسي. نظرت إلى الأعلى. كانت الغيوم الرمادية تغطي صفحة السماء، بدأ المطر بالهطول على المعزين والتابوت.

لم يجلب الناس المظلات، لذا احتشدنا مرتدين ملابسنا الحمراء الفاقعة والزرقاء، وأكتافنا محنية بسبب المطر المتزايد الشدة. اقشعر بدني قليلاً حين أُنزل التابوت ببطء داخل القبر. كانوا قد أزالوا الزهور. وكأنهم يقولون إنه لا يجب إنزال أي شيء حي وزاهٍ إلى تلك الحفرة العميقة والمظلمة.

اعتقدت أن العراك كان الجزء الأسوأ من الجنازة، ولكني كنت مخطئاً. كان الدفن الجزء الأسوأ. أهيل التراب على غطاء التابوت الخشبي. رائحة التراب الرطب تحت حرارة شمس سبتمبر. نظرت إلى تلك الهوة في الأرض وعلمت أنه ما من شيء يعود منها. لا أعذار، لا جمل للهروب، ولا ملحوظة من أمك يمكن

أن ترسلها للأستاذ. كان الموت نهائياً ومطلقاً و لم يكن هنالك أي شيء يمكن لأحد فعله حيال ذلك.

انتهت عملية الدفن، وبدأنا جميعاً بالسير بعيداً عن المقبرة. تم حجز قاعة الكنيسة لكي يتناول المشيعون الشطائر. كان يدعى ذلك "لقاء ما بعد الجنازة" حسبما قالت أمي.

كدنا نصل إلى بوابة الكنيسة حين توقف شخص يعرفه والداي للتحدث إليهما، كان غاف السمين ووالداه خلفه مباشرة، يتحدثان مع والدة هوبو. رأيت عائلة ميتال ميكي، ولكني لم أرَه. لا بد أنه كان في مكان ما قريب.

وجدت نفسي واقفاً عند طرف المقبرة. كنت تائهاً قليلاً.

وفجأة سمعت أحدهم يخاطبني: "مرحباً إيدي".

استدرت. فتقدم نحوي السيد هالوران. اعتمر قبعته لإبعاد المطر وحمل علبة سجائر في يده. لم أره يدخن من قبل، ولكني تذكرت المنفضة في كوخه.

أجبته قائلاً: "أهلاً سيدي".

فسألني: "كيف حالك؟".

هززت كتفي: "لا أدري حقاً".

كان السيد هالوران موهوباً بجعل الآخرين يجيبون بصدق، وهي موهبة كان يفتقدها معظم البالغين.

"لا بأس، لا يجدر بك أن تحزن".

ترددت. لم أكن أعرف ما يجدر بي أن أقول.

أخفض صوته: "لا يجدر بك أن تحزن كلما توفي أحد. كان شون كوبر متنمراً، هذه حقيقة. ولكن ذلك لا يعني أن ما حصل له لم يكن فاجعاً".

سألته: "لأنه كان مجرد فتى؟".

أجابني موضحاً: "لا. بل لأن الفرصة لم تُسنح له كي يتغير".

أومأت برأسي. ثم سألت: "هل ما قاله الشرطي صحيح؟".

سألني مستوضحاً: "عن شون كوبر وابنته؟".

أومأت.

نظر السيد هالوران إلى علبة سجائره. اعتقدت أنه كان شديد الرغبة بإشعال واحدة، ولكنه اعتقد أن ذلك كان ممنوعاً في فناء الكنيسة.

قال السيد هالوران: "لم يكن شون كوبر شاباً جيداً. ما فعله بك، ينطبق عليه الوصف نفسه".

شعرت بخدي يتوهجان. لم أعرف بما أفكر حيال ذلك. أكمل السيد هالوران وكأنه أحس بي: "ولكن هل قام شون بما اتهمه الشرطي به؟ لا، لا أظن أن ذلك صحيح".

سألته: "لماذا تستبعد الأمر؟".

أجابني: "لا أعتقد أن تلك الفتاة الشابة كانت تروق لشون كوبر".

تأوهت. لم أكن متأكداً مما كان يقوله تماماً.

هز رأسه، وحاول التعامل مع دهشتي بقوله: "انسض الأمر. لكن لا تقلق بشأن شون كوبر. لن يستطيع إيذاءك بعد الآن".

فكرت بالأحجار التي طرقت نافذتي، والبشرة الرمادية المزرقة تحت نور القمر.

"مرحباً يا تافه".

لم أكن متأكداً من ذلك.

ولكني قلت: "لا سيدي. أعني. نعم سيدي".

"فتى جيد". ابتسم ومشى بعيداً.

كنت أحاول استيعاب كل ذلك حين أمسك أحدٌ ما بذراعي. استدرت. وقف هوبو أمامي. كان شعره مبعثراً بعد أن كان مصففاً إلى الخلف وكان نصف قميصه متدلياً خارج بنطاله. كان يمسك بحبل مورفي وطوقه. ولكن مورفي لم يكن موجوداً.

سألته: "ما الذي حصل؟".

حدّق إليّ بعينين متوقدتين. "لقد هرب مورفي".

سألته متفاجئاً: "حرر نفسه من الطوق؟"

أجابني مرتبكاً: "لا أعرف. لم يفعل هذا من قبل قط. إنه ليس مرخياً".

سألت: "أتظن أنه عاد إلى المنزل؟".

هز هوبو رأسه. "لا أعرف. إنه مسنّ وحاستا النظر والشم لديه سيئتان". لاحظت أنه يحاول أن يبدو متماسكاً.

قلت: "ولكنه بطيء، من المؤكد أنه لم يبتعد".

نظرت حولي. كان البالغون يتحدثون، غاف السمين كان بعيداً كثيراً ليسمعني. لم أستطع إيجاد ميتال ميكي بعد... ولكني رأيت شيئاً آخر.

كان هنالك شيءٌ مرسوم على لوحة تذكارية مسطحة بالقرب من بوابة الكنيسة. كان آخذاً بالتلاشي بالفعل بسبب المطر، ولكنه استرعى انتباهي، لأنه كان غريباً، وليس في مكانٍ ملائم، ولكنه كان مألوفاً كثيراً. اقتربت منه. شعرت بالقشعريرة وشعرت بفروة رأسي وكأنها تضيق على جمجمتي.

كان رجلاً طبشورياً. ذراعاه مرفوعان إلى الأعلى، ودائرة صغيرة مكان فمه، وكأنه كان يصرخ. ولم يكن وحيداً. رسم أحد ما بجانبه كلباً أبيض بالطبشور. فجأة راودني شعور، شعور سيئ جداً.

احذر من رجل الطباشير.

سألني هوبو: "ماذا هنالك؟".

أجبته بسرعة: "لا شيء. علينا أن نذهب لنجد مورفي حالاً".

أتى والداي ومعهما والدة هوبو: "ديفيد، إيدي، ما الخطب؟".

أجبتهم: "لقد هرب مورفي".

وضعت والدة هوبو يداً على وجهها وتأوهت قائلة: "لا".

شد هوبو قبضته حول الطوق.

قلت: "أمي، علينا الذهاب للبحث عنه".

قالت أمي: "إيدي..."

توسلتها: "أرجوك".

رأيتها تفكر بالأمر. لم تبدُ مسرورة، بدت شاحبة ومتوترة. ولكن هذا أمر طبيعي فقد كنا في جنازة. وضع أبي يده على ذراعها وأومأ إيماءة صغيرة.

قالت أمي: "حسناً. اذهب للبحث عن مورفي. عندما تجده نلتقي في قاعة الكنيسة".

قلت: "شكراً".

فحثني على البدء بالبحث قائلة: "اذهب في طريقك".

عدونا في الطريق، منادين مورفي، بدا لي الأمر عديم الفائدة، لأن مورفي كان شبه أصمّ.

سألت هوبو: "لما لا نذهب لنرى إن كان في المنزل، للتأكد فقط؟"

أومأ هوبو: "حسناً".

كان هوبو يعيش في الطرف الآخر من البلدة، في شارعٍ ضيق مليء بمنازل مسيجة. كان شارعه مثل تلك الشوارع التي يجلس فيها الرجال على الدرج الأمامي يشربون البيرة، وكان الأطفال الذين يرتدون الحفاضات يلعبون على الرصيف وكان هنالك دوماً كلبٌ ينبح. لم أفكر بالأمر كثيراً حينها، ولكن ربما كان ذلك السبب وراء عدم تسكعنا بالقرب من منزل هوبو كثيراً.

كنا نعيش في منازل لا بأس بها. ربما كان منزلي قديماً نوعاً ما وعلى الطراز القديم، ولكنه كان في شارعٍ جميل مفتوح على أفق وأشجار وغير ذلك.

سيكون لطيفاً لو قلت إن منزل هوبو كان من المنازل الأفضل مظهراً في الشارع، ولكنه لم يكن كذلك. كان هنالك ستائر مصفرة تغطي النوافذ، وكان الطلاء مقشوراً كلياً عن الباب الأمامي بالإضافة إلى كراس قديمة مبعثرة في الفناء الأمامي الصغير.

لم يكن الداخل أفضل حالاً، حيث كانت الفوضى تعم الأرجاء. أذكر أنني سألت نفسي ما دامت أمه تعمل في التنظيف فلماذا تبقي بيتها غير نظيف؟ كانت هناك أكوام من الأشياء في كل مكان، وجميعها في أماكن غريبة: علب من حبوب الفطور مكومة على التلفاز في غرفة المعيشة، وشكلت أسطوانات مناديل المرحاض جبلاً صغيراً في الرواق، قوارير المبيض مكومة على طاولة المطبخ. وكانت رائحة الكلب السيئة تفوح من المكان أيضاً، أحببت مورفي، ولكن رائحته لم تكن من مزاياه الرائعة.

ركض هوبو حول المنزل ووصل إلى الحديقة الخلفية وعاد مجدداً وهو يهز رأسه.

قلت حسناً: "لنتفقد الحديقة. ربما ذهب إلى هناك".

أومأ، ولكن كان بإمكاني أن أراه يقاوم انهمار الدموع: "لم يسبق له أن ذهب إلى هناك".

أخبرته: "سيكون كل شيء على ما يرام" وكان ذلك قولاً غبياً، لأن لا شيء سيكون على ما يرام. سيكون كل شيء بعيداً كل البعد عن ذلك.

قبل أن نصل إلى الحديقة وجدناه متكوراً على نفسه تحت شجيرة، في مكانٍ ليس ببعيد عن الحديقة. أعتقد أنه حاول أن يجد ملجأ. كان المطر يتساقط بغزارة الآن. كان شعره متشابكاً في كتل سميكة ومبللة، مثل الأعشاب البحرية، وكان قميصي ملتصقاً بجسدي. حذائي كان يسرب الماء أيضاً، وكانت خطواتي تصدر صوتاً ونحن نركض باتجاه مورفي.

من البعيد، بدا وكأنه نائم. ولكن حين تقترب كان يمكنك رؤية ارتفاع وانخفاض صدره الكبير وسماع صوت أنفاسه التي يأخذها بصعوبة. حين تقترب منه كثيراً، يمكنك رؤية أنه يعاني. لم يبدُ لي إنه مريض عادي فقد بدا جلياً أنه متسمم وقد بدا وجهه قاتماً.

لا يزال بإمكاني تذكر الرائحة، ونظرة عينيه البنيتين الكبيرتين حين ركعنا بالقرب منه. كانتا مرتبكتين كثيراً. وممتنتين بالوقت نفسه. وكأننا كنا سنصلح كل شيء. ولكن لم نتمكن من ذلك. للمرة الثانية ذلك اليوم. تعلمت أنه يوجد بعض الأمور التي لا يمكنك إصلاحها على الإطلاق.

حاولنا أن نرفعه ونحمله. كان هوبو يعرف بيطرياً في البلدة. ولكن مورفي كان ثقيلاً كثيراً، وفراؤه المبلل جعله أثقل. لم نتمكن حتى من الخروج من الحديقة حين بدأ بالسعال والتقيؤ مجدداً. وضعناه على العشب المبلل مرة أخرى.

قلت: "ربما يمكنني الركض إلى عيادة الطبيب البيطري وأحضر أحداً ما؟"

هز هوبو رأسه فقط، وقال بصوت أجش ومختنق: "لا، لن يفيد ذلك".

دفن وجهه بفراء مورفي الكثيف، تشبث بذلك الكلب وكأنه كان يسعى للحيلولة دون مغادرته هذا العالم.

ولكن بالطبع، لا يمكن لأحد أن يوقف ذلك، ولا حتى الشخص الذي يحبك أكثر من أي شخص آخر في العالم. كل ما كان في وسعنا القيام به هو طمأنته والهمس بلطف في أذنيه المتدليتين وأن نتمنى انتهاء معاناته. في النهاية، لا بد أن ذلك كان كافياً، لأن مورفي لفظ آخر أنفاسه.

أجهش هوبو بالبكاء أمام جثته الساكنة. حاولت أن أقاوم الدموع ولكنها انهمرت على وجهي.

لاحقاً، اعتقدت أننا بكينا على كلب ميت أكثر مما بكينا على شقيق ميتال ميكي.

في النهاية، استجمعنا قوانا لنحاول حمله إلى منزل هوبو. كانت تلك المرة الأولى التي ألمس فيها ميتاً. اعتقدت أنه كان أثقل من قبل حتى. استغرق منا الأمر نصف ساعة، توقف بعض الناس لمشاهدتنا ولكن لم يعرض أحد المساعدة، ربما لأنه كلب لا قيمة له.

وضعناه في مهده في المطبخ.

سألت: "ما الذي ستفعله به؟"

"سأدفنه". قالها هوبو وكأن ذلك كان بديهياً.

سألته مجدداً: "لوحدك؟".

أجابني مؤكداً: "إنه كلبي".

لم أعرف ما يفترض بي أن أقول، لذا لم أقل شيئاً.

قال هوبو: "عليك أن تعود، إلى لقاء ما بعد الجنازة".

جزءٌ مني أشعرني بضرورة البقاء ومساعدته، ولكن جزءاً أكبر مني أراد الهروب.

هززت رأسي وقلت له: "حسناً".

استدرت.

ناداني: "إيدي".

أجبته: "نعم".

قال بأسى وحقد في الوقت نفسه: "حين أكتشف من فعل هذا، سأقتله".

لن أنسى نظرة عينيه حين قال هذا. ربما لهذا لم أخبره برسمة رجل الطبشور والكلب. وأنني لم أرَ ميتال ميكي بعد أن فرّ من الكنيسة.

2016

لا أعتبر نفسي مدمناً على الشراب، ولا جامع خردة. أنا رجل يستمتع بالشراب، ويهوى جمع الأشياء.

أنا لا أشرب يومياً، وعادة لا أذهب إلى المدرسة ورائحة الشراب تفوح مني. مع أن ذلك قد حصل من قبل. لحسن الحظ، لم يعرف مديرنا بالأمر، ولكني سمعت ملاحظة لطيفة من مدرس زميل.

"إيد، عد إلى المنزل، واستحم، واشتر غسولاً للفم. وفي المستقبل، لا تشرب سوى في عطلة نهاية الأسبوع".

في الواقع، أشرب أكثر مما ينبغي، وفي أوقات أكثر مما ينبغي. اليوم، شعرت بالحاجة للشراب. شعرت بضيقٍ في حلقي، وبجفاف شفتي، وأدركت أن لعقهما لن يساعد على ترطيبهما. أنا لستُ بحاجة للشراب فقط. أنا بحاجة إلى الشراب بكثرة. جملتان متشابهتان ولكن النوايا مختلفة تماماً.

ذهبت إلى السوبر ماركت وانتقيت قنينتي شراب من ممر الشراب. ثم أخذت قنينة من الشراب الجيد ودفعت عربتي إلى صندوق المحاسبة. تحدثت قليلاً مع المرأة المشرفة على صناديق النقود ووضعت القناني في سيارتي. وصلت المنزل بعد السادسة بقليل، انتقيت بعض الأسطوانات القديمة التي لم أستمع إليها منذ زمن، وسكبت أول كأسٍ من الشراب.

لحظتها سمعت صوتَ إغلاق الباب الأمامي بقوة كافية لجعل الشمعدانات على رف الموقد ترتج وكأسي المليئة تتمايل بلا استقرار على الطاولة.

"كلوي؟".

افترضت أنها هي، فقد أقفلت الأبواب، ولا أحد آخر يملك المفتاح. ولكن كلوي لا تقوم عادةً بإغلاق الباب بقوة. بل هي تتسلل كالقطة، أو ما يشبه الضباب الخارق للطبيعة.

نظرت مطولاً إلى كأس الشراب، ثم بعد تنهيدة ممتعضة، وقفت ودخلت المطبخ، حيث سمعت الآن صوت إغلاقها لباب البراد وفتحه وإثارة جلبة، وقرقعة الكؤوس. هنالك صوتٌ آخر أيضاً، صوتٌ لم أسمعه من قبل.

تطلب الأمر مني دقيقة لأكتشف أن كلوي كانت تبكي.

في الحقيقة، إنني أفتقد إلى مهارة التعامل مع الأشخاص الذين يبكون. أنا بذاتي لا أبكي كثيراً، حتى أنني لم أبكِ في جنازة والدي. لا أحب الفوضى، والمخاط والأصوات. لا أحد يبدو جذاباً وهو يبكي. الأسوأ من ذلك، هو أنه حين تبكي امرأة، فهي ستحتاج حتماً إلى مواساة، وأنا لا أجيد المواساة أيضاً.

ترددت عند باب المطبخ. ثم سمعت كلوي تقول: "أوه بحق الجحيم إيد. أجل إنني أبكي. إما ادخل وتعامل مع الأمر أو اغرب عن وجهي".

فتحت الباب. كانت كلوي جالسة إلى طاولة المطبخ مع قنينة من الشراب وكأس كبيرة أمامها. بلا صودا. كان شعرها أشعث أكثر من المعتاد والماسكرا السوداء تسيل على وجنتيها.

قلت لها: "لن أتكبد عناء سؤالك إن كنتِ على ما يرام..."

أجابت: "جيد. لكنت دفعت قنينة الشراب هذه في مؤخرتك".

سألتها: "هل تريدين التحدث عما حصل؟".

أجابت: "ليس تماماً".

"حسناً" وقفت بالقرب من الطاولة. "هل هنالك ما يمكنني القيام به؟".

قالت: "اجلس واحتسِ كأساً".

بالرغم من أن الشرب كان هدفي طوال الليلة، إلا أن ما كانت تشربه لم يكن مشروبي المفضل، ولكن شعرت أن العرض غير قابل للنقاش. أخذت كأساً من الخزانة وسكبت كلوي لي مقداراً كبيراً.

دفعته فوق الطاولة، دون ثبات. أعتقد أن هذه الكأس لم تكن أول كأسٍ شربتها، أو الثانية، ولا الثالثة. هذا من غير عادتها. كلوي تحب أن تخرج. كلوي تحب أن تشرب كأساً. ولكن لا أعتقد أنني رأيتها يوماً تشرب بإسراف.

قالت بتلعثم: "كيف كان يومك؟".

أجبتها: "حسناً، حاولت أن أخبر الشرطة أن صديقي مفقود".

سألتني: "وماذا حصل؟".

أجبتها: "بالرغم من حقيقة أنه لم يعد إلى فندقه الليلة الماضية، وأنه لا يحمل محفظته أو بطاقاته المصرفية وأنه لا يجيب على هاتفه، ولكن يبدو أنه لا يمكن إعلانه مفقوداً بشكل رسمي حتى يمر على اختفائه أربع وعشرون ساعة".

استهجنت ذلك وقالت: "هذا هراء".

أكدت كلامها: "نعم هراء".

سألتني وقد بدت متعاطفة: "هل تعتقد أن أمراً سيئاً قد حصل له؟".

بدت قلقة حقاً.

أخذت رشفة من الشراب وأجبتها: "لا أعرف..."

فحاولت الاستنتاج: "ربما عاد إلى منزله".

قلت: "ربما".

سألتني مستفهمة عما سأقدم عليه: "إذاً ماذا ستفعل؟".

أجبت بعدم يقين: "حسناً، أعتقد أن عليّ العودة إلى مركز الشرطة غداً".

حدقت إلى كأسها: "إنه حال الأصدقاء، أليس كذلك؟ يسببون مشاكل أكثر من قيمتهم. ولكنهم ليسوا بسوء العائلة".

رددت عليها بحذر: "أظن ذلك".

تأوهت وقالت: "ثق بي. يمكنك قطع علاقتك بالأصدقاء. ولكن لا يمكنك أبداً أن تنتصل من العائلة. إنهم هنالك دوماً، في الخلفية، يعبثون بتفكيرك".

تجرعتْ الشراب دفعة واحدة وصبتْ كأساً أخرى.

لم يسبق لكلوي أن تحدثت عن حياتها الشخصية، وأنا لم أسألها. إن الأمر أشبه بالتعامل مع الأطفال. إن كانوا يريدون إخبارك أمراً ما، سيخبرونك. إن سألتهم، ستتسبب بعودتهم مهرولين إلى قواقعهم.

تساءلت عن ذلك طبعاً. ظننت لفترة أن إقامتها معي كانت بسبب حبيب، وانفصال سيئ. في النهاية، هنالك كثير من المنازل التي يمكنها الاشتراك فيها

بالسكن في أندربوري، مع أناس أقرب إلى سنها وطابعها. لا يختار من هم بعمرها المنزل الكبير والمخيف مع الرجل الغريب والأعزب إلا إن كان هنالك سبب لرغبتهم بالعزلة والخصوصية.

ولكن كلوي لم تفصح عن ذلك، و لم أدفعها لذلك قط. كنت خائفاً من أنني قد أجعلها تلوذ بالفرار. إن إيجاد مقيم للسكن في الغرفة الإضافية أمرٌ والعثور على رفيقٍ يخفف وحدتي أمرٌ آخر.

أخذت رشفة ثانية من الشراب، ولكن رغبتي بالشرب تلاشت بسرعة. ليس هنالك طريقة أسوأ من التعامل مع شخصٍ ثمل لجعلك تنسى فكرة أن تثمل أنت.

قلت: "حسناً، التعامل مع العائلة والأصدقاء يمكن أن يكون صعباً...".

سألتني وبدت كأنها تريد إجابة صادقة: "هل أنا صديقتك إيد؟".

فاجأني سؤالها. حدقت كلوي إليّ بشكل جدي وغير متزن، كانت عضلات وجهها مرتخية قليلاً وشفتاها متباعدتين.

ازدردت ريقي: "آمل ذلك".

ابتسمت وقالت مبررة: "جيد. لأني لن أفعل شيئاً لأؤذيك. أود أن تعلم ذلك".

قلت: "أعرف" مع أنني لم أكن أعرف. ذلك ليس صحيحاً تماماً. يمكن للناس أن يؤذوك دون أن يدركوا ذلك. تؤذيني كلوي كل يومٍ قليلاً فقط لأنها موجودة، ولكن لا بأس بذلك.

"جيد". عصرت يدي، وتنبهت لرؤية عينيها تمتلئان بالدموع مجدداً. مسحت وجهها. "يا إلهي. أنا غبية لعينة حقاً".

تجرعت جرعة كبيرة أخرى من مشروبها ثم قالت: "عليّ أن أخبرك شيئاً...".

لا أحب هذه الكلمات. لا شيء جيد أبداً يأتي بعد جملة تبدأ بتلك الطريقة. تماماً مثل جملة: "علينا التحدث".

قلت: "كلوي".

لكن رنين جرس الباب أنقذني بكل ما للكلمة من معنى. كان أحدٌ ما عند الباب الأمامي. لا يأتيني العديد من الزوار، وتحديداً أولئك الذين يأتون دون أن يخبروني من قبل.

قالت كلوي بلطفها المعتاد وطبعها المرح: "من هذا بحق الجحيم؟".

أجبتها محتاراً: "لا أعرف".

مشيت قلقاً إلى الباب الأمامي وفتحته. وقف رجلان يرتديان بذلتين رماديتين في الخارج. علمت قبل أن يفتحا فميهما أهما من الشرطة. هنالك أمرٌ ما يميزهما. الوجوه المتعبة. قصات الشعر السيئة، الأحذية الرخيصة.

سأل الرجل الأطول ذو الشعر الداكن: "السيد آدامز؟"

أجبته مستوضحاً: "نعم؟".

فعرف عن نفسه قائلاً: "أنا فونيس وهذا الضابط دانكس. قدمت إلى مركز الشرطة ظهر اليوم لتقدم بلاغاً عن شخص مفقود هو صديقٌ لك، ميكي كوبر؟".

أكدت ما قاله وشرحت: "حاولت ولكن أخبروني أنه لا يعتبر مفقوداً قبل مضي أربع وعشرين ساعة".

قال الرجل الأقصر والأصلع: "صحيح". وأبدى اعتذاره عن التأخير لأن هذه هي القوانين. وسألني: "هل يمكننا الدخول؟".

أردت أن أسأل لماذا، ولكنني وجدت الأمر غير ذي فائدة فتنحيت جنباً. "بالطبع".

عبرا أمامي، فأغلقت الباب وتبعتهما.

أرشدهما قائلاً: "من هنا".

بسبب العادة، قدهما إلى المطبخ، عندما نظرت إلى كلوي، أدركت أن ذلك خطأ. لا زالت كلوي ترتدي ملابس الخروج خاصتها. المؤلفة من صدرية سوداء ضيقة مزينة بالجماجم وتنورة قصيرة جداً من الليكرا وجوارب شبكية وحذاء دوكتر مارتن.

نظرت إليهما تأوهت وقالت: "رفقة، كم هذا لطيف".

فبادرت إلى تعريفهما إليها: "هذه كلوي، مستأجرة لديّ وصديقتي".

كانا محترفين لدرجة أنهما لم يبديا أي رد فعل، ولكني كنت متأكداً مما يجول في خاطريهما. رجل كبير مع فتاة جميلة شابة تعيش في منزله. أنا إما أعاشرها وإما أنا مجرد رجلٍ غريب مسن. للأسف كان الأخير هو الواقع.

قلت: "هل يمكنني أن أجلب لكما شيئاً؟ شاي أو قهوة؟".

حملت كلوي القنينة وسألتهما: "شراب؟"

قال فونيس: "أخشى أننا في وقت العمل يا آنسة".

قلت: "حسناً، أرجوكما، تفضلا بالجلوس".

تبادلا النظرات.

"في الواقع سيد آدامز، ربما سيكون من الأفضل أن نتحدث إليك على انفراد".

نظرت إلى كلوي: "هل تمانعين من تركنا؟".

"حسناً، استأذنكم". حملت القنينة والكأس. "سأكون في الغرفة المجاورة إن احتجتم إليّ".

رمقت رجلي الشرطة بنظرة غامضة وانسلت من الغرفة.

صرّ الكرسيان حين جلسا، وجثمت أنا بغرابة عند مقدمة الطاولة. "إذن هل يمكنني السؤال ما الخطب؟ أخبرت الضابط المناوب كل ما أعرفه مسبقاً".

قال دانكس: "أعلم أن الأمر يبدو وكأنك تكرر نفسك، ولكن هل يمكنك فقط أن تخبرنا كل شيءٍ مجدداً بالتفصيل؟".

أخرج دانكس قلمه.

قلت: "حسناً، غادر ميكي منزلي ليلة أمس".

استوضح دانكس سائلاً: "آسف، ولكن هل يمكنك أن تعود إلى وقتٍ أسبق؟ لماذا أتى إلى هنا؟ فهمت أنه يعيش في أوكسفورد؟".

أجبته: "حسناً إنه صديقٌ قديم وكان عائداً إلى أندربوري ورغب بلقائي".

سألني: "كم هو قديم؟".

أجبته: "نحن صديقان منذ أيام الطفولة".

فسألني: "وبقيتما على تواصل؟".

أجبته: "لا ليس تماماً. ولكن من اللطيف أحياناً التواصل مجدداً".

أومأ.

وتابعت: "على أية حال، أتى لتناول العشاء".

فسألني دانكس: "وكم كان الساعة حينها؟"

أجبته: "حوالي السابعة والربع".

سألني مجدداً ما إن أنهيت الإجابة: "أتى بسيارته؟".

أجبته بالتفصيل، مستبقاً أي أسئلة أخرى: "لا، أتى سيراً على الأقدام. الفندق الذي يقيم به ليس بعيداً من هنا وأراد أن يتناول مشروباً".

سألني مستوضحاً: "كم شرب على حدّ علمك؟"

أجبته وقد فكرت بعدد قناني البيرة الموجودة في سلة إعادة التدوير: "حسناً، ربما ست أو سبع قنانٍ".

علّق دانكس: "كمية كبيرة إذن".

قلت: "أعتقد ذلك".

سألني: "كيف كان وضعه حين غادر؟".

أجبته: "حسناً، لم يكن يتعثر ويتلعثم، ولكنه كان ثملاً نوعاً ما".

فاستوضح سائلاً: "وتركته يعود إلى الفندق سيراً؟".

فشرحت له ما حصل بقولي: "عرضت عليه أن أطلب تاكسي، ولكنه قال إنه يريد السير لكي يصحو".

فطرح دانكس سؤالاً آخر: "حسناً، وكم كان الوقت حينها؟".

أجبته بعدم يقين: "حوالي العاشرة، العاشرة والنصف. لم يكن الوقت متأخراً كثيراً".

سألني مجدداً: "وكانت تلك المرة الأخيرة التي رأيته فيها؟"

أجبت: "نعم".

سألني: "أعطيت محفظته للضابط المناوب؟"

كان الأمر صعباً. أراد أن أبقيها معي ولكني أصررت.

أجبت: "نعم".

فسألني: "لماذا كانت محفظته معك؟".

أجبته: "يبدو أن ميكي نسيها حين كان في منزلي".

فاستوضح سائلاً: "و لم تحاول إعادهًا له الليلة الماضية؟".

أجبته: "لم أعلم بوجودها إلا اليوم، فقد وجدهًا كلوي واتصلت بي".

سألني: "في أي ساعة؟".

أجبته: "عند وقت الغداء. حاولت أن أتصل بميكي لإخباره أنه نسي محفظته ولكنه لم يجب".

المزيد من الكتابة.

سألني محاولاً بناء السيناريو: "وحينها ذهبت إلى الفندق للاطمئنان على صديقك؟".

أجبت: "صحيح، وأخبروني أنه لم يعد في الليلة الماضية. حينها قررت إبلاغ الشرطة".

المزيد من الإيماء بالرأس. ثم سألني فونيس: "كيف بدا صديقك البارحة؟".

أجبته بعد تفكير: "حسناً... ممم بدا على ما يرام".

سأل مجدداً: "هل كان في مزاج جيد؟".

أجبته: "أعتقد ذلك".

فسأل مستوضحاً: "ماذا كان الهدف من زيارته؟".

للمرة الأولى منذ دخول الشرطيين منزلي سألت: "هل يمكنني أن أعرف بما سيساعدك ذلك؟".

فوضح سبب سؤاله: "حسناً، كل تلك السنوات دون تواصل، ثم زيارة مفاجئة. إنه أمرٌ غريب قليلاً".

أجبته: "الناس غريبون، كما قال المغني جيم موريسون".

نظرا إليّ نظرةً عديمة المعنى. لم يكونا من المعجبين بموسيقى الروك الكلاسيكية.

قلت: "كانت زيارة اجتماعية. تحدثنا عن كثير من الأشياء؛ ما كنا نفعله في الحياة. العمل. لا شيء ذو أهمية كبيرة. الآن، هل يمكنني أن أسأل لو سمحتما لِمَ كل هذه الأسئلة؟ هل حصل أمرٌ ما لميكي؟".

بدا وكأنهما يفكران بسؤالي ثم أغلق دانكس دفتر ملاحظاته.

وأجابني بحياد تام: "وُجدت اليوم جثة تطابق مواصفات صديقك، ميكي كوبر".

جثة. ميكي. حاولت أن أستوعب هذه المعلومات. ولكنني شعرت بغصة في حلقي، فلم أستطع التكلم حتى إنني شعرت بصعوبة في التنفس.

سألني دانكس: "هل أنت على ما يرام سيدي؟".

أجبته وأنا مشوش التفكير: "أنا... لا أعرف. إنها صدمة كبيرة. ماذا حصل؟".

وضّح لي: "استعدنا جثته من النهر".

"أراهن أنه منتفخ وأخضر اللون وأن الأسماك أكلت عينيه".

سألتهما: "هل غرق في النهر؟".

أجابني: "لا زلنا نحاول تحديد الظروف الدقيقة التي قضى فيها صديقك".

سألته: "إن وقع في النهر، ما الذي تبقى لتحديده؟".

بدا أنه يوجد ما يدور بينهما.

سألني: "حديقة أولد ميدوز هي في الاتجاه المقابل لفندق صديقك؟"

أجبت: "نعم".

سألني مستوضحاً: "كيف تفسر وجوده هناك؟".

أجبت: "ربما قرر المشي أكثر ليصحو؟ وربما ضل طريقه؟".

علّق قائلاً: "ربما".

بدا أنهما متشككان.

سألتهما: "هل تشكان أن موت ميكي كان ناتجاً عن حادث؟".

أجاب دانكس: "على العكس، أنا متأكد أن هذا التفسير المرجح. ولكن علينا أن نبحث في جميع الخيارات الأخرى".

فاستفسرت: "مثل؟".

طرح دانكس سؤالاً آخر: "هل هنالك من يريد إيذاء ميكي؟".

شعرت بنبضٍ يسري بجانب رأسي. أحد ما يريد إيذاء ميكي؟ حسناً، نعم، يمكنني أن أفكر بشخصٍ واحد على الأقل، ولكن ذاك الشخص غير قادر على الركض في أرجاء الحدائق في الليل، ودفع ميكي إلى النهر.

أجبت بشكل قاطع: "لا، لا يمكنني أن أفكر بأحد". ثم أردفت بصوت أكثر حزماً بقليل: "أندربوري بلدة وادعة. لا يمكنني تصور أن هنالك من يريد إيذاء ميكي".

أومأا.

علّق دانكس: "أنا متأكد أنك محق. من المرجح أن ما حصل حادث حزين ومشؤوم".

فكرت أنه مات مثل أخيه. حادث حزين ومشؤوم، وصدفة من النادر أن تحدث...

بينما كانا يهمان بالمغادرة قالا: "نحن نعتذر لأننا جلبنا لك هذه الأخبار، سيد آدامز".

أجبتهما بأسى: "لا بأس. إنه عملكما".

دفعا كرسيهما إلى الخلف، ووقفت لأرشدهما إلى الباب.

سألني دانكس: "هنالك أمرٌ أخير؟".

بالطبع. دوماً هنالك أمرٌ أخير. "نعم؟"

قال دانكس: "وجدنا غرضاً مع صديقك محير قليلاً. تساءلنا إن كان بإمكانك أن تبين لنا سبب وجوده معه؟".

قلت وأنا أشك بذلك: "إن كنت أقدر".

أخرج فونيس كيساً شفافاً من جيبه. ووضعه على الطاولة.

في داخل الكيس ورقة مرسوم عليها شكل رجل مشنوق، وقطعة واحدة من الطبشور الأبيض.

1986

تأوه والدي وقال: "يا ذات الإيمان الخافت".

كان والدي يقول ذلك لوالدتي أحياناً حين كانت لا تصدق أنه يمكنه فعل شيء ما. كانت دعابة بينهما، على ما أظن، لأنها كانت دوماً تنظر إليه وتقول، "لا، أنا عديمة الإيمان". ثم كانا يضحكان.

أعتقد أن الفكرة كانت هي أن والديّ لم يكونا متدينين، وكانا منفتحين بخصوص هذا الأمر. أعتقد أن هذا السبب وراء نظر بعض الناس في البلدة إليهما نظرة مرتابة قليلاً، ووراء اتخاذ كثيرين منهم صف الكاهن مارتن إزاء العيادة. حتى أولئك الذين كانوا يدعمون والدتي لم يرغبوا بالإفصاح عن ذلك علناً؛ كان الأمر كأنهم سيخالفون إرادة الله أو ما شابه ذلك.

فقدت أمي وزناً خلال ذلك الخريف، وكبرت سناً أيضاً. لم يخطر لي من قبل أن والديّ أكبر سناً من الآباء الآخرين (ربما حين تكون في الثانية عشرة من عمرك، تعتبر أن أي شخص يتجاوز عمره العشرين يكون كبيراً للغاية). لم تنجبني أمي قبل أن تبلغ السادسة والثلاثين، لذا كانت تقريباً بعمر الخمسين، عندما كنت في الثانية عشرة.

كان جزء من ذلك بسبب العمل الكادح، كانت تأتي كل ليلة متأخرة أكثر من التي سبقتها، تاركةً والدي يعد الشاي، والذي كان دوماً مثيراً للاهتمام، حتى لو لم يكن دوماً صالحاً للشرب. أعتقد أن سبب تأخرها كان وجود المتظاهرين حول مدخل عيادتها كل يوم، والذين أصبحوا الآن حوالي عشرين شخصاً. رأيت ملصقات أيضاً على نوافذ بعض المتاجر في البلدة:

اختاروا الحياة. أوقفوا القتل

قولوا لا لجرائم القتل القانونية

انضموا لملائكة أندربوري.

هذا ما أطلقه المتظاهرون على أنفسهم، ملائكة أنـدربوري، وأعتقـد أن الكاهن مارتن كان صاحب الفكرة. لم يبدوا كثيراً كالملائكة. لطالما اعتقدت أن الملائكة ساكنين وهادئين. كانت وجوه المتظاهرين حمراء وكانوا غاضبين، كانوا يصرخون ويصفقون. حين نفكر بالماضي، أعتقد أنهم مثل كثيرين من المتطـرفين كانوا يعتقدون أنهم يفعلون الصواب، من أجل هدفٍ أسمى. وكل ذلك من أجل أن يبرروا الأشياء السيئة التي فعلوها من أجل قضيتهم.

كان شهر أكتوبر، وكان الصيف قد حمل مناشف الشـاطئ والسـطول والرفوش وخبأها بعد انتهاء الموسم. تم استبدال موسيقى حـافلات المثلجـات بأصوات الألعاب النارية المشتراة بصورة غير مشروعة؛ واستبدلت رائحة البراعم وحفلات الشواء برائحة نيران المخيمات اللاذعة أكثر.

قل عدد المرات التي تسكع فيها ميتال ميكي معنا. لقد تغير منذ أن تـوفي شقيقه. وربما نحن لم نعرف كيف نتعامل معه. أصبح أبرد وأقسى. لطالما كـان وضيعاً وتهكمياً، ولكنه الآن أصبح لاذعاً أكثر. بدا مختلفاً أيضاً. لقد نما (بالرغم من أن ميتال ميكي لن يصبح طويلاً يوماً)، أصبحت معالمه محددة أكثـر وأزال تقويم أسنانه. بطريقةٍ ما، لم يعد ميتال ميكي ذاته، صديقنا. فجأة أصبح ميكـي كوبر، شقيق شون كوبر.

بدا أن ميكي على خلاف مع هوبو. كانت تلك العداوة من النوع الـذي يزداد ببطء وكان من المحتم أن تصل إلى الصدام والعراك في وقت ما، وهذا مـا حصل بالفعل. في اليوم الذي اجتمعنا فيه من أجل نثر رماد مورفي.

بعد موت مورفي لم يدفنه هوبو، بل أخذت والدته جيفتـه إلى الطبيـب البيطري حيث أحرقت الجيفة. احتفظ هوبو بالرماد لفترة، ثم قرر أن ينثـره في بقعة أحب مورفي أن يستلقي فيها، وحيث لفظ آخر أنفاسه، في الحديقة.

قررنا أن نلتقي في الحديقة عند الساعة الحادية عشرة يوم السبت. جلسنا على لعبة الدوار، كان هوبو ممسكاً بعلبة رماد مورفي الصغيرة، وكنـا جميعـاً نرتدي المعاطف الصوفية والأوشحة. كان صباحاً بارداً، حتى أن البرد كـان يلفح الوجوه، ويتسلل عبر القفازات. هذا ما جعلنا جميعاً محبطين إلى جانـب

العمل الحزين الذي كنا نقوم به، حين وصل ميتال ميكي متأخراً خمس عشرة دقيقة.

ما إن رأى هوبو ميتال ميكي قادماً حتى قفز وسأله: "أين كنت؟".

هز ميكي كتفيه وأجابه: "كان لديّ أشغال. أنا وحيد في المنزل الآن، وأصبحت أمي تكلفني بمزيد من أعمال المنزل". قال ذلك بطريقته الهجومية المعتادة.

بدا ما قاله قاسياً، ومنذ موت شون أصبحت كل أحاديث ميكي تتمحور حول شقيقه. نعم كنا نعلم أن ذلك حزين وفاجع، ولكن أعتقد أننا كلنا كنا نتمنى لو يتوقف عن التحدث عن الأمر كل خمس دقائق.

انتبهت إلى أن هوبو انزعج قليلاً ثم تراجع. قال: "حسناً، أنت هنا الآن" بنبرة كانت جديرة بأن تهدئ الأمور. مثلما كان يفعل هوبو دائماً. ولكنني ذاك الصباح لم يكن ميكي مستعداً للتساهل.

فسأله ميكي بطريقة صبت الزيت على نار غضبه: "لا أعرف لم أنت منزعج، إنه مجرد كلب غبي؟".

شعرت بالجو المشحون.

ردّ عليه هوبو: "لم يكن مورفي مجرد كلب".

عندها سأله ميكي بطريقة تهكمية: "حقاً؟ ما الذي كان يمكنه القيام به؟ كان يمكنه أن يتحدث؟ أن يعمل خدعاً بأوراق اللعب؟".

بدا لنا جميعاً، أن ميكي يحاول استفزاز هوبو، وهذا ما لاحظه هوبو نفسه، ولكن إن كنت تعلم أن أحداً يحاول أن يغضبك فلا يعني أنك ستسيطر على نفسك وتنسى الأمر، مع أن هوبو كان صبوراً.

فرد عليه قائلاً: "كان كلبي وعنى كثيراً بالنسبة إليّ".

أجابه ميكي: "نعم، وعنى شقيقي كثيراً بالنسبة إليّ".

نزل غاف السمين عن الدوار. "نعلم ذلك حسناً. هذا أمرٌ مختلف".

عندها برر ميكي سبب غضبه: "نعم، إنكم جميعاً تهتمون بأمر كلبٍ ميت، ولكن لا أحد يهتم بأمري فأنا من فقد أخاه".

حدقنا جميعاً إليه. لم يعلم أحد ما الذي عليه قوله. لأنه بطريقةٍ مـــا كـــان محقاً.

تابع ميكي حديثه: "أترون. لا يمكن لأي منكم التحدث عنه ومع ذلـــك نحن مجتمعون من أجل كلب هجين غبـــي مليء بالبراغيث".

هنا بلغ السيل الزبى لدى هوبو فخاطب ميكي بحدة قائلاً: "استرجع مـــا قلت".

فما كان من ميكي إلا أن خطا خطوة إلى الأمام نحو هوبو وسأله بتحـــدٍّ: "وإذا لم أفعل ما الذي سيحدث؟". في الواقع، كان هوبو أطول بكثير من ميكي وأقوى أيضاً. ولكن عينا ميكي كانتا تقدحان شرراً، مثل شقيقه. والقاعدة تقول عندما يسيطر الجنون لا يمكن هزيمته فهو يفوز دوماً.

وخاطب هوبو بتحدٍّ: "كان كلباً هجيناً غبياً مليئاً بالبراغيث وكان يبـــول على نفسه طوال الوقت وكانت رائحته كريهة. لم يكن ممكناً أن يعيش أطـــول من ذلك على أية حال. أراحه شخصٌ ما من عذابه".

رأيت قبضتي هوبو تنكمشان، ولكني ما زلت مقتنعاً أنه لم يكن ليضـــرب ميكي لو لم يقترب منه ويوقع العلبة من يده. وقعت العلبة على أرض الحديقـــة الإسمنتية وانفتحت، وتطاير الرماد في سحابة صغيرة.

عبث ميكي بها برجله وقال: "كلبٌ مسن غبـــي وميت ومقزز".

كانت تلك اللحظة التي اندفع فيها هوبو مع صرخة مخنوقة وغريبة. دفـــع هوبو بميكي أرضاً، ووقع معه، ولفترة من الزمن تصارعا وتبادلا اللكمات فـــوق الرماد الذي كان يوماً مورفي.

تدخل غاف السمين، وحاول أن يفض النزاع. وتبعته ونيكي. تمكنا بطريقةٍ ما من الفصل بينهما. أمسك غاف السمين بميكي وحاولت أن أثبـــت هوبـــو ولكنه أفلت من قبضتي.

صرخ في وجه ميكي: "ما بك؟".

ردّ عليه، وهو في قمة الغضب: "مات شقيقي، هل نسيت؟" حدق إلينـــا. "هل نسيتم كلكم؟"

مسح أنفه الذي كانت الدماء تسيل منه.

فتدخلت قائلاً: "لا، لم ننسَ. ولكننا أردنا أن نعود أصدقاء من جديد".

فقال ميكي بطريقة تهكمية: "أصدقاء. نعم، صحيح". ونظر إلى هوبو وقال بسخرية: "هل تريد أن تعرف من أذى كلبك الغبي؟ أنا فعلت ذلك. لكي تعرف كيف يشعر المرء حين يفقد شخصاً يحبه. ربما عليكم جميعاً أن تعرفوا الشعور".

صرخ هوبو، وأفلت من قبضتي ولكم ميكي بقوة.

لست متأكداً تماماً ما حصل بعدها. إما أن ميكي تحرك وإما أن نيكي حاولت أن تتدخل. ولكن الأكيد منه، هو أنني استدرت ورأيت نيكي على الأرض، تضع يدها على وجهها بطريقةٍ ما، في خضم البلبلة. سدد هوبو لكمة أخطأت رأس ميكي واستقرت في وجه نيكي.

صرختْ: "أيها السافل! أيها السافل الغبي!".

لم أكن متأكداً إن كانت تعني ميكي أو هوبو، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئاً، فاللكمة سددت وأخطأت هدفها، وألقت بنيكي أرضاً.

تحولت تعابير وجه هوبو من الغضب إلى الذعر. "أنا آسف، أنا آسف".

هرعت وغاف السمين لمساعدهّا. أبعدتنا وقالت: "أنا بخير".

لكنها لم تكن كذلك. كانت المنطقة المحيطة بعينها متورمة ومنتفخة وبنفسجية. أدركت على الفور أن إصابتها وخيمة، وشعرت بالغضب أيضاً، أكثر مما فعلت يوماً في حياتي. كان كل هذا ذنب ميكي. أردت حينها - مع أنني لم أكن مقاتلاً - أن أشوه وجهه بقدر ما أراد هوبو. ولكن لم تسنح لي الفرصة.

بينما كنا نساعد نيكي على الوقوف، وغاف يثرثر بضرورة أخذها إلى منزل أمه لوضع الفاصولياء المجمدة على عينها، كان ميكي قد ذهب.

كما اتضح لاحقاً، كان ميكي يكذب. فقد أخبرنا الطبيب البيطري أن مورفي تناول السم قبل أربع وعشرين ساعة على الأقل من الجنازة أو أكثر. لم

يكن ميكي من قتل مورفي. ولكن لم يكن ذلك مهماً حقاً. وجود ميكي أصبح سماً حقيقياً، وكان يصيب كل من حوله.

ساعدت الفاصولياء على تخفيف تورم عين نيكي قليلاً، ولكن كانت الكدمة واضحة حين عادت إلى المنزل. ظننت أنها ستخترع قصة ما على الأرجح لوالدها وأن الأمور ستكون على ما يرام. لكني كنت مخطئاً.

مساء ذلك اليوم، وبينما كان والدي يعد الشاي، قرع باب بيتنا. كانت أمي في العمل، لذا مسح والدي يديه ببنطال الجينز ودور عينيه. سار إلى الباب الأمامي وفتحه. كان الكاهن مارتن يقف عند الباب. ارتدى ملابسه الرسمية واعتمر قبعة سوداء صغيرة. بدا وكأنه خارج من صورة من الأيام القديمة. بدا غاضباً للغاية. تجولت في الرواق.

سأله والدي: "كيف يمكنني مساعدتك؟"، بطريقةٍ بدا فيها كأنه لن يفكر حتى بمساعدته.

أجابه: "أبقِ ابنك بعيداً عن ابنتي".

استفسر والدي قائلاً: "عفواً؟".

فشرح له الكائن: "هناك كدمة حول عين ابنتي بسبب ابنك وجماعته".

كدت أقول له إنها لم تكن جماعتي في الواقع. ولكن شعرت بعدها بالفخر حين سمعتهم يقولون ذلك.

استدار والدي ونده عليّ: "إيد".

مشيت بصعوبة. كانت وجنتاي متوردتين، وفور وصولي قلت: "كان ذلك حادثاً عرضياً، لم يرغب أحد بأذيتها".

نظر مجدداً إلى الكاهن: "إن قال ابني أن ذلك كان حادثاً، فأنا أصدقه".

حدق كل منهما إلى الآخر.

ثم ابتسم الكاهن مارتن وقال متسائلاً: "ما الذي عليّ توقعه؟ لا تقع التفاحة بعيداً عن الشجرة العفنة".

فردّ عليه أبي ببرود: "عظنا قدر ما تشاء أيها الكاهن، ولكننا نعلم جميعنا أنك لا تتقيد بالقواعد".

فسأله: "ماذا تقصد؟".

أجابه أبي: "إنها ليست الكدمة الأولى على عين ابنتك، أليس كذلك؟".

فاحتد الكاهن وقال: "هذا افتراء سيد آدامز".

سأله والدي: "حقاً؟".

خطا والدي خطوة إلى الأمام. كنت مسروراً لرؤية الكاهن مارتن يجفل قليلاً. "*لأن لا شيء مخبأ سيبقى على حاله ولا يُكشف، وليس هنالك سر إلا وسيظهر للعيان*[1]". ابتسم والدي ابتسامة ماكرة. "لن تحميك كنيستك دوماً أيها الكاهن. الآن ابتعد عن عتبة بابي قبل أن أتصل بالشرطة".

آخر شيءٍ رأيته كان فم الكاهن مارتن المفتوح قبل أن يغلق أبي الباب بقوة في وجهه.

شعرت بالفخر. ربح والدي. تغلب عليه.

خاطبت والدي: "شكراً أبي. كان ذلك رائعاً. لم أكن أعرف أنك مطلع على الإنجيل".

فردّ بتواضع: "تعلق بعض الأشياء في الرأس من مدرسة الأحد".

فعلقت على ما قاله الكاهن: "صدقني يا أبي كان حادثاً عرضياً، لم تكن المقصودة".

هزّ أبي رأسه وقال"أنا أصدقك إيدي... ولكن...".

لا، فكرت بالأمر، لا لكلمة "ولكن". هذه الكلمة دوماً تكون سيئة، وشعرت أن هذه سيئة للغاية. كانت كلمة "ولكن"، كما قال غاف السمين يوماً، "ضربة على الخصيتين في يوم جميل".

تنهد والدي. "انظر، إيدي. ربما سيكون من الأفضل أن تبتعد عن نيكي، على الأقل في هذه الفترة".

فاحتججت قائلاً: "إنها صديقتي".

فأجابني محاولاً إقناعي: "لديك أصدقاء آخرون. غاف، ديفيد، ميكي".

فصححت له قائلاً: "لا ميكي ليس صديقي".

---

(1) ترجمة لنص انجيلي بتصرف.

سألني: "هل تشاجرتما؟".

لم أرد.

انحنى والدي ووضع يديه على كتفي. لم يكن يفعل ذلك إلا حين يكون الأمر جدياً. وأخذ يوضح كلامه: "أنا لا أقول اقطع علاقتك بنيكي إلى الأبد، ولكن الآن، الأمور معقدة، والكاهن مارتن... ليس رجلاً لطيفاً للغاية".

استوضحت: "ما الفكرة؟".

نصحني قائلاً: "ربما من الأفضل أن تبتعد عنها قليلاً؟".

رفضت قائلاً: "لا!" وابتعدت.

نهرني بقوله: "إيدي –"

فنظرت إلى عينيه: "ذلك ليس أفضل. أنت لا تعرف. أنت لا تعرف شيئاً".

بالرغم من أني كنت أعلم أن ذلك تصرف طفولي وغبي، لكني استدرت وهرعت إلى الطابق العلوي.

عندما رآني أبتعد صرخ قائلاً: "شايك جاهز –"

فرددت عليه بنزق: "لا أريده".

ولكنك من طلبه، كانت معدتي تصدر أصواتاً، ولكن لم أستطع تناول شيء. كان كل شيءٍ يجري بشكلٍ خاطئ. عالمي بأكمله – وحين تكون طفلاً تعتبر أصدقاءك العالم بأكمله – كانٍ يتمزق.

أبعدت صندوق الدروج خاصتي ورفعت بقوة الألواح الرخوة تحته وفتحته. فكرت بالمحتويات في داخله، ثم أخرجت صندوقاً صغيراً من الطباشير الملونة. حملت اللون الأبيض، ودون تفكير، بدأت أرسم على ألواح الأرضية، مرة تلو الأخرى تلو الأخرى.

"إيدي".

قرعٌ على الباب.

تجمدت، وقلت: "اذهب بعيداً".

قال أبي: "إيدي. اسمعني، لن أجبرك على التوقف عن رؤية نيكي..."

انتظرت والطباشير في يدي.

تابع شارحاً: "... أنا أطلب منك ذلك، حسناً؟ من أجلي ومن أجل أمك".

كان الطلب أسوأ، وعلم والدي ذلك. قبضت بشدة على قطعة الطبشور، كسرتها إلى قطع صغيرة في يدي.

سألني: "ما رأيك بذلك؟".

لم أقل شيئاً. لم أستطع. شعرت أن كل كلماتي علقت في حلقي، وخنقتني. في النهاية. سمعت خطوات والدي الثقيلة وهو يبتعد نازلاً إلى الطابق السفلي. نظرت إلى رسومي. أشكال طباشيرية بيضاء، مخربشة بخبل، مرة تلو الأخرى. تحرك شيءٌ غير مريح في معدتي. مسحت الأشكال بسرعة بكمي حتى أصبحت الأرض بلون أبيض خفيف.

ذلك المساء اخترق حجر كبير النافذة. لحسن الحظ كنت في سريري بالفعل وأمي وأبي كانا يتناولان العشاء المتأخر في المطبخ. لو كانا في الغرفة الأمامية لكانا قد تأذيا بسبب الزجاج المتطاير، أو أسوأ. ترك الحجر فتحة كبيرة في الزجاج ودمّر التلفاز ولكن لم يتأذَّ أحد.

كما كان متوقعاً، ثبتت رسالة برباط مطاطي على الحجر. لم تقل لي أمي ما الذي كان مكتوباً حينها. ظنت على الأغلب أن ذلك قد يخيفني أو يزعجني. اعترفت لاحقاً أن الرسالة كتب فيها: "توقفوا عن قتل الأطفال، أو ستكون عائلتكم التالية".

أتت الشرطة مرة ثانية. وأتى رجل ليضع لوحاً خشبياً على النافذة. لاحقاً، سمعت أمي وأبي يتجادلان في غرفة المعيشة حين ظنا أنني عدت إلى السرير. جلست القرفصاء على الدرج، كنت أصغي، وأشعر بالخوف قليلاً. لم يتجادل والداي من قبل. نعم، أحياناً كانا يغضبان من بعضهما، ولكن لم يكن ذلك جدالاً حقيقياً. لم تكن الأصوات عالية مثل هذا الجدال.

"لا يمكننا الاستمرار على هذا الحال". قالها أبي وبدا غاضباً ومنزعجاً.

فسألته أمي وهي متوترة: "أي حال؟".

"أنت تعلمين عما أتحدث. سيئ كفاية أنك تعملين كل هذه الساعات، سيئ كفاية أن هؤلاء الإنجيليين يخيفون النساء خارج عيادتك، ولكن الآن هذه

تهديدات لعائلتك".

أجابته قائلة: "إنها فقط محاولات لإخافتنا، وأنت تعلم أننا لا نرضخ لمحاولات الإخافة".

فرد عليها: "الأمر مختلف هذه المرة، إنه أمر شخصي".

حاولت تهدئته بقولها: "إنها مجرد تهديدات. حصل مثل هذا الأمر من قبل. في النهاية، سيشعرون بالضجر. سينتقلون إلى قضية إلهية أخرى. سينتهي الأمر. يحدث هذا دائماً".

بالرغم من أنني لم أستطع رؤية والدي إلا أنني كنت قادراً على تخيله يهز رأسه ويسير بسرعة ذهاباً وإياباً، كدأبه حين يكون مستاءً.

أجابها: "أعتقد أنك مخطئة، وأنا لست متأكد من أني أريد المخاطرة".

عندها سألته ممتعضة: "حسناً ماذا تريد مني أن أفعل؟ أن أترك عملي؟ مهنتي؟ أن أبقى في المنزل بينما أحاول العيش على راتب كاتب مستقل؟".

أجابها باقتضاب: "هذا غير عادل".

ردّت محاولة تهدئته: "أعلم. أنا آسفة".

سألها: "ألا يمكنكِ العودة. إلى ساوثمبتون؟ وتدعي أحد آخر يستلم العمل في أندربوري؟".

أجابته: "كان هذا مشروعي- "بدت وكأنها تداركت نفسها. "كانت هذه فرصتي لأثبت جدارتي".

سألها: "فرصتك في ماذا؟ في التحول إلى شخصية مكروهة من قبل هؤلاء المجانين؟".

لحظة صمت.

أجابت حاسمة النقاش: "لن أترك عملي، أو العيادة. لا تطلب ذلك مني".

سألها: "ألا تقيمين وزناً لسلامة إيدي؟".

أجابته: "إيدي على ما يرام".

سألها متفاجئاً: "حقاً؟ هل أنت متأكدة من ذلك، وأنت تعلمين أنك نادراً ما ترينه مؤخراً؟".

سألته بتعجب: "أفهم من حديثك إنه ليس على ما يرام؟"

قال مفسراً لها: "أنا أقول، مع كل شيء يحصل - القتال مع غاف، فتى كوبر، كلب ديفيد هوبكينز - تعرض لما يكفي من الاستياء والاضطراب. لطالما قلنا إننا سنمنحه الأمان والحب، وأنا لا أريد أن أرى هذا يجرحه، بأي طريقة كانت".

ردت عليه قائلة: "لو فكرت للحظة أن أياً من هذا يجرح إيدي -"

عندئذ سألها: "ماذا؟ ستستقيلين حينها؟". بدا صوت والدي غريباً، حزيناً وفيه نبرة مرارة.

أجابته: "سأفعل كل ما يتطلبه الأمر لحماية عائلتي، ولكن حماية عائلتي واستمرار عملي أمران منفصلان".

فقال لها: "حسناً، لنأمل ألا يحصل ذلك، ها؟".

سمعت صوت باب غرفة المعيشة ينفتح وحفيف ملابس.

سألته أمي: "إلى أين أنت ذاهب؟"

أجابها: "سأتنزه".

أُغلق الباب الأمامي، بشدة كفاية لترتج عواميد الدرابزين وتسقط غيمة من غبار الجص من الطابق فوقي.

لا بد أن أبي ذهب في نزهة طويلة، لأنني لم أشعر به عندما أتى. على الأغلب غلبني النعاس ونمت. ولكن سمعت شيئاً آخر لم أسمعه أبداً من قبل: كانت أمي تبكي.

2016

أجلس على مقعدٍ خشبــي في الجزء الخلفي من الكنيسة، إنها فارغة، يبدو أن الناس وجدوا أماكن أخرى للعبادة هذه الأيام؛ الحانات، ومراكز التســوق، والتلفاز وعالم الإنترنت الافتراضي. من يحتاج إلى كلمة الكاهن عندما تفي كلمة بعض نجوم تلفزيون الواقع بالغرض؟

لأتكلم عن نفسي فأنا لم أدخل كنيسة سانت توماس منذ عــزاء شــون كوبر، مع أنني أمر بجانبها دائماً. إنها ليســت بحجــم كاتدرائيــة أنــدربوري الضخمة، ولكنها جميلة. أحب الكنائس القديمة، ولكن لكي أنظر إليها ولــيس لأتعبد فيها. زيارتي اليوم استثنائية، فأنا بالتأكيد لم آتِ لأتعبد، وبالتأكيد لا أعلم لم أنا هنا. يحدق إليّ سانت توماس عبر النافذة الملونة بكل طيبة، هل يعرف أحد شفيع من هو؟ أتخيله قديساً مسلياً بخلاف ماري وماثيو المملين، فهو يبدو مواكباً للموضة نوعاً ما، فلحيته تتناغم مع آخر صيحات موضة اللحى.

غالباً ما راودني السؤال التالي: أيفترض بالقديسين أن يعيشوا زاهــدين؟ أم أنهم يستطيعون العيش في الخطيئة وبعدها يقومون ببعض العجائــب وعنــدها يسمون قديسين؟ يبدو لي الأمر كالتالي: كن مجرماً قاتلاً أو مغتصباً أو مشوهاً، وعندما تتوب سيغفر ما تأخر من ذنوبك. إن ذلك منافٍ لأبسط قواعد العدل.

ألم يسأل السيد المسيح بنفسه، من منا بلا خطيئة؟ معظم الناس قاموا بأشياء سيئة في مرحلة ما من حياتهم، أشياء ندموا عليها ويتمنون لو يستطيعون شطبها، كلنا خطاؤون، وكلنا نختزن الخير والشر في دواخلنا، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هل فعل مروع واحد يجب أن يخيم على كل الأشياء الخيرة التي قمنا بها؟ أم أن هناك أشياء مروعة لا تستطيع الأفعال الخيرة محوها؟

في ما خص السيد هالوران. رسومه الجميلة، والطريقة التي أنقذ فيهــا حياة فتاة والتزر وكيف - بطريقة أو بأخرى - أنقذني وأبــي أيضــاً. أنــا

أعتقد أن ما من شيء سيقدم عليه لاحقاً سيجعل منه رجلاً سيئاً أبداً. تماماً كما لم يكن ميكي طفلاً سيئاً. ليس تماماً. نعم، يمكن أن يكون حقيراً أحياناً، لست متأكداً تماماً إن أحببت الراشد الذي تحول إليه. لكن هل كرهه أحد لدرجة أن يقتله؟

حدقت مجدداً إلى القديس توماس. إنه لا يقدم كثيراً من المساعدة. لا أشعر بالروحانية التي يتحدث عنها الناس الذين يواظبون على زيارة الكنائس. أتنهد. لعلي أقرأ أكثر من اللزوم عن هذا كله. كان موت ميكي حدثاً مأسوياً والرسالة المكتوبة كانت صدفة غير سارة لا أكثر. ربما هناك قزم خبيث اكتشف عناويننا ويريد إلحاق الأذى بنا. على الأقل، هذا ما أحاول إقناع نفسي به منذ أن جاءت الشرطة.

في الحقيقة، أياً كان مرسل الرسائل فقد نجح. لقد كسروا الصندوق الذي أبقيه مغلقاً بإحكام، بقفلين داخلي وخارجي، هنا في ذهني. وبمجرد فتحه، يصبح صندوق إيد تماماً كصندوق باندورا، فإقفاله مجدداً أمر مزعج. والأسوأ، أن ما يكمن في أسفله ليس الأمل بل الذنب.

هناك أغنية كنت سمعتها، تعزفها كلوي كثيراً وقد تربيت متسامحاً معها نسبياً، لمغنٍ فولكلوري: فرانك ترنر تقول لازمتها أن الإنسان لا يذكر إلا بأفعاله أو بطريقة معاكسة لا يذكر الإنسان في ما لم يفعل.

لكن ذلك ليس صحيحاً بالكامل. فحياتي تحكمها أشياء لم أفعلها. أشياء لم أقلها. وأظن أن ذلك نفسه يحصل مع كثيرين. فغالباً ما يعرف عنا ليس ما أنجزناه بل ما لم ننجزه. ليس أكاذيبنا، بل ببساطة الحقائق التي لا نقولها.

عندما أطلعتني الشرطة على الرسالة، كان يجدر بي أن أقول شيئاً. كان يجب أن أذهب وأريهم الرسالة التي وصلتني. لكنني لم أفعل. حتى الآن لا أعلم لماذا التزمت الصمت، تماماً كما لا أستطيع أن أعرف لماذا لم أعترف بالأشياء التي عرفتها وفعلتها كل تلك السنين.

لا أعرف حتى كيف يجب أن أشعر حيال موت ميكي. كلما حاولت تصوره الآن كل ما أراه هو ميكي الصغير، ابن الاثني عشرة سنة، وفمه المليء

بالمعدن وعيناه المليئتان بالحقد. كان صديقاً والآن غادر. و لم يعد جــزءاً مــن ذاكرتي بعد الآن إنما مجرد ذكرى.

أقف وأودع القديس تومي. وبينما كنت أنعطف لأغادر لمحت حركة؛ إنها الكاهنة. امرأة ممتلئة شقراء الشعر تفضل انتعال حذاء "أغ" مع ثوب الكهنة.

سبق لي أن رأيتها من قبل في البلدة، وبدت لي لطيفة، فلماذا ارتدت لباس الكهنوت وترهبت.

ابتسمت وسألتني: "هل وجدت ما تحتاج إليه؟".

ربما أصبحت الكنيسة مركز تسوق أكثر مما تصورت. للأسف، لا تــزال سلتي فارغة. فأجبتها: "ليس بعد".

عندما عدت إلى المنزل وجدت سيارة أمي مركونة أمــام المنــزل، وهنــا أدركت فظاعة ما نسيت، وتذكرت المحادثة الهاتفية بيننا، وما قالته أمــي عــن الرحلة التي تعتزم القيام بها، ورغبتها بترك ميتينز عندي لأعتني به، وأدركت مــا ينتظرني في الداخل، ففتحت الباب، وعلّقت معطفي على المشجب، وتوجهــت نحو المطبخ غير واثق الخطى.

أول ما وقعت عليه عيناي كان أمي الجالسة إلى الطاولة، وميتينز – لحسن الحظ – في صندوق القطط قرب قدميها. وكانت كلوي تقف عند المنضدة تعد القهوة. تلبس بشكل مقبول مقارنة بما تلبسه عادة، كنزة فضفاضة وبنطالاً ضيقاً وجورباً مخططاً.

أمي لا تحب كلوي، و لم أنتظر منها ذلك، و لم تحب نيكي حــتى، هنــاك بعض الفتيات لا تحبهن الأمهات، وطبعاً هن بالتحديد من النوع الذي ســتقع بغرامهن.

أخيراً سألتني أمي: "أين كنت إيد؟".

أجبتها: "...كنت أتنزه".

استدارت كلوي: "و لم يخطر ببالك أن تعلمني أن أمك قادمة؟".

كانتا ترمقانني، وكأن الذنب ذنبــي أنهما لا تطيقان أن تبقيا معاً.

قلت لهما: "عفواً، لقد داهمني الوقت".

دفعت كلوي كوباً بالقرب من أمي وقالت لي: "أعد قهوتك فأنا سأستحم".

عندما خرجت كلوي نظرت إليّ أمي وقالت: "فتاة جذابة لا أستطيع تخيل سبب بقائها بمفردها دون صديق حميم".

توجهت صوب آلة إعداد القهوة وقلت: "ربما هي صعبة المراس".

وقبل أن أنبس ببنت شفة قالت: "تبدو مريعاً".

جلست وقلت: "شكراً. وصلتني أخبار سيئة الليلة الماضية".

استفسرت: "حقاً".

فرويت لها بأكبر قدر من الاختصار أحداث الساعات الست والثلاثين الأخيرة.

ارتشفت قهوتها: "كم هذا محزن، تماماً كما مات أخوه".

شيء فكرت به كثيراً.

وأردفت قائلة: "قد يكون القدر قاسياً في بعض الأحيان، ولكن ذلك لا يفاجئني".

سألتها: "حقاً لا يفاجئك؟".

أجابتني: "حسناً، لطالما بدا ميكي طفلاً قليل الحظ. في البدء، أخوه، ثم الحادث المروع مع غاف".

قلت بسخط: "كان خطأه، فهو من كان يقود وبسببه أصبح غاف أسير الكرسي المدولب، وهذا ذنب أكبر من أن يستطيع المرء التعايش معه، أو يتحمل مسؤوليته".

حدقت إليها مستاءً. تحب أمي دائماً أن تطلع على وجهة النظر الأخرى، وهذا لا بأس به طالما لا يتعلق الأمر به وبأصدقائك..

قلت لها: "لا يبدو أنه يشعر بالمسؤولية".

تجاهلتني، كما كانت تفعل في صغري عندما كنت أقول أشياء لا تستحق أن تعلّق عليها.

فقلت: "أراد أن يكتب كتاباً".

وضعت كوبها وارتسمت ملامح الجدية على وجهها وسألتني: "هل هو كتاب عن طفولتكم؟".

أومأت وقلت: "طلب مساعدتي".

سألت مستفسرة: "وماذا قلت له؟".

أجبتها: "أخبرته أنني سأفكر بالأمر".

فقالت: "فهمت".

ثم تابعت: "وقال شيئاً آخر، قال إنه يعرف القاتل".

نظرت إلى عينيها الواسعتين الداكنتين. حتى بعمر الثامنة والسبعين، لا تزال عيناها قاسيتين

سألتني: "وهل صدقته؟".

أجبتها: "لست واثقاً، ربما".

سألتني مجدداً: "وهل قال شيئاً آخر عما حدث وقتها؟".

أجبتها: "لا، لماذا؟".

ردّت: "لا شيء، مجرد فضول".

ولكنني كنت واثقاً أن هناك شيئاً آخر يكمن وراء سؤالها.

فسألتها: "ما الأمر أمي".

ترددتْ.

قلت: "ماماااا".

فوضعت يدها الباردة المجعدة على يدي وقالت: "لا شيء. آسفة بشأن ميكي. أعلم أنك لم تره منذ زمن. لكنكما كنتما صديقين يوماً ما. يجب أن يزعجك الأمر".

كنت على وشك الضغط عليها لتتكلم عندها فتح الباب، وعادت كلوي "هل تريدين المزيد؟". سألت وهي تحمل كوبها. "أنا لا أقاطعكما أليس كذلك؟".

نظرتُ إلى أمي

أجابتها أمي: "لا، أبداً، كنت على وشك الخروج".

قبل أن تغادر تركت أمي عدة حقائب كبيرة بدت مهمة لاستمرار انسجام ميتينز وسلامته.

بناء على خبرة سابقة، ظننت أن كل ما يحتاج إليه ميتينز لاستمرار انسجامه وسلامته هو دفق غير محدود من العصافير الصغيرة والفئران لنزع أحشائها، عادة على سريري وأنا أستيقظ من دوار الثمل، أو على طاولة المطبخ وأنا أتناول فطوري.

أخرجته من علبة القطط، تبادلت وإياه نظرات الريبة قبل أن يثب إلى حضن كلوي ويتمطط بوقاحة مقنّعة ماكرة.

أكره تعنيف الحيوانات ولكن عندما يتعلق الأمر بميتينز يمكنني أن أخالف مبادئي.

تركتهما مستلقيين على الأريكة، يخرخران (لست متأكداً أيهما يخرخر هو أم كلوي). ثم صعدت الدرج إلى مكتبي، فتحت درج المكتب، وأخذت الظرف الأسمر ووضعته في جيبي ونزلت.

"إنه يوم السوق"، صرخت لكلوي، وهرعت خارج المنزل قبل أن تعطيني لائحة مشتريات يمكن أن تستعمل كورق جدران لغرفة صغيرة.

إنه يوم السوق. فالشوارع مزدحمة بصفوف السيارات ولم أستطع إيجاد مكان في مواقف البلدة. بعد قليل سيزداد تدفق الحشود، وستزدحم أرصفة الشوارع بالسياح، يحدقون إلى خرائط غوغل ويؤشرون بأجهزتهم الآيفون إلى أي شيء لامع أو له سقف من قش.

توجهت إلى الدكان عند الناصية واشتريت ولاعة وعلبة سجائر. ثم قصدت حانة *ذا بول*. فوجدت شيريل تقوم بخدمة الزبائن، وللمرة الأولى كانت بمفردها ولم يكن غاف جالساً إلى الطاولة بالقرب منها كعادته.

قبل أن أصل إلى المشرب، وأبحث عنه بادرت شيريل بالقول: "إنه ليس هنا.. وقد علم بما حصل".

أخبرتني أنه في الحديقة القديمة، فتوجهت إلى هناك من فوري، تلك الحديقة التي شهدت أجمل وأتعس أيام طفولتنا فيها اعتدى عليّ شون سيئ الذكر

ورفيقاه، وفيها حصل العراك بين هوبو وميكي، فيها رأيت نيكي تطعن فخذها على الأرجوحة وفيها أيضاً كنا نتسكع في الأيام الحارة المشمسة، ونتناول السكاكر الكبيرة وألواح "وام"[1]. وفيها أيضاً وجدنا الرسوم التي قادتنا إلى الجثة.

كان جالساً على كرسيه المدولب قرب المقعد القديم. حيث يمكنه رؤية تلألؤ مياه النهر، وكان شريط مسرح الجريمة لا يزال يرفرف بين الأشجار في المكان الذي انتشلوا منه جثة ميكي من الماء.

عندما وصلت فتحت الباب الذي أصدر صريراً، ولكن بالرغم من ذلك لم يلتفت غاف ليرى من القادم، ربما لأنه توقع أن أكون أنا جلست إلى المقعد بالقرب منه. كان يضع كيساً ورقياً في حضنه، أعطاني إياه. يحتوي على مجموعة من السكاكر التي كنا نأكلها في ما مضى، فأخذت منها صحناً طائراً.

قال لي: "كلفتني ثلاثة جنيهات، أتذكر عندما كنا نشتري كيساً كبيراً منها بعشرين بنساً؟".

أجبته: "نعم. وهذا سبب تسوس أسناني".

ضحك ضحكة مكتومة بدت تعبيراً عن الغضب أكثر مما هي تعبيراً عن السرور.

قلت له: "أخبرتني شيريل أنك عرفت بأمر ميكي".

تناول فأرة بيضاء وقضمها وقال: "نعم، ولن أتظاهر بالحزن".

كنت لأصدقه، لولا أنني رأيت عينيه محمرتين والكلمات تخرج من فمه مخنوقة. عندما كنا صغاراً كان غاف السمين وميكي أفضل صديقين، قبل أن تبدأ صداقتهما بالانهيار قبل وقت طويل من الحادث الذي كان بمثابة المسمار الصدئ الأخير في نعش صداقتهما.

أخبرته قائلاً: "أتت الشرطة لتتكلم معي، فقد كنت آخر من رآه تلك الليلة".

فسألني: "لم تكن أنت من دفعه؟ صحيح".

---

(1) وام بار نوع من الحلويات من إنتاج شركة تانجرين.

لم أبتسم على ما افترضت أنها دعابة. عندها عبس غاف ونظر إليّ وسألني: "هل كان حادثاً عرضياً؟".

أجبته: "على الأرجح".

سألني: "على الأرجح؟".

عندها قال: "عندما انتشلوا جثته من النهر وجدوا شيئاً في جيبه".

نظرت صوب الحديقة. لم تكن فارغة تماماً. هناك أحد ينزه كلبه على مهل قرب مجرى النهر.

أخرجت رسالتي الخاصة وسلمته إياها. وقلت له: "أتقصد واحدة مثل هذه".

اتكأ غاف إلى الأمام. وأنا أنتظر. لطالما كان وجه غاف خالياً من التعابير حتى عندما كان صغيراً، فقد كان يستطيع الكذب بسهولة شأنه شأن ميكي، وأحسست به يفكر: أيطلق كذبة الآن.

سألته: "تبدو مألوفة؟".

أومأ برأسه إيجاباً وقال بتعب: "وصلتني واحدة وهوبو أيضاً".

سألته: "هوبو؟".

بغباء طفولي شعرت بالاستياء لأنهما لم يخبراني.

سألته: "لماذا لم تخبروني؟".

أجابني: "ظننا أنها مزحة. ماذا عنك؟"

"وأنا أيضاً" وتوقفت، "ولكن ميكي لقي حتفه".

فقال وبدا متنبهاً: "حسناً، لقد نال ما يستحقه".

مد غاف يده إلى كيس السكاكر، وأخرج زجاجة كولا ووضعها في فمه.

نظرت إليه لبرهة وسألته: "لماذا تكره إلى هذا الحدّ؟".

ضحك ضحكة قصيرة وسألني: "أحقاً تسأل لماذا؟".

قابلت سؤاله بسؤال: "أبسبب الحادث؟".

أجابني وسألني: "أعتقد أنه تفسير منطقي، ألا تعتقد ذلك؟".

إنه محق، ولكنني أظن أنه يخفي شيئاً. وضعت يدي في جيبي وسحبت علبة المارلبورو لايت المختومة.

حدق إليّ غاف وسألني: "متى عدت إلى التدخين؟".

أجابني: "لم أعد".

فسألته: "معك واحدة أخرى؟".

فرد عليّ قائلاً: "أتمزح".

فارتسمت بسمة خجولة على شفتيه.

فتحت العلبة، وأخذت سيجارتين وقلت له: "ظننتك أقلعت عن التدخين".

فردّ عليّ: "صحيح، ولكنني أعتقد أن اليوم مناسب لكسر القواعد".

أعطيته إحداهما. وأشعلت سيجارتي ومررت الولاعة له. السحبة الأولى دائماً ما تشعرني بالدوار.

نفخ غاف الدخان وقال: "اللعنة، هذا الشيء طعمه ككومة من رعاة البقر النتنين". ثم نظر إليّ وقال: "لكنهم رعاة بقر نتنون رائعون يا صاح".

فابتسمنا معاً.

سألته: "بما أننا نكسر القواعد، أتريد التحدث عن ميكي؟".

نظر إليّ وخبت ابتسامته.

"هل تعرف عن الحادثة؟" ولوّح بسيجارته. "سؤال سخيف، طبعاً تعرف".

قلت: "أعرف ما أخبرني عنه الناس، لم أكن هناك".

فعبس وتذكر: "صحيح لم تكن هناك، أليس كذلك؟".

أجبته: "أظن أنني كنت أدرس".

فأخذ يشرح لي ويقول: "حسناً، كان ميكي يقود تلك الليلة. كالعادة. تعرف كم كان يحب تلك البيجو".

عقّبت على كلامه: "كان يسرع فيها كالمخبول".

تابع قائلاً: "نعم لهذا لم يكن يشرب أبداً. يفضل أن يقود. أما أنا، فأفضل أن أصبح قبيح الوجه".

عقّبت مجدداً: "كنا مراهقين، وهذا ما نفعله".

ولكني لم أفعل. ليس بالضبط. ليس في تلك الفترة. طبعاً كنت قد أخذت قراراً بذلك وقتها.

تابع غاف سرد ما حصل يومها: "في تلك الحفلة ثملت، وعندما بدأتُ بالتقيؤ، أراد ريتش وتينا أن أرحل، فأقنعا ميكي أن يقلني إلى المنزل"

هنا حاولت الاستيضاح وسألته: "ألم يكن ميكي يشرب أيضاً؟".

أجابني ولكن بتشكك: "لا أتذكر أنني رأيته يشرب، إنني لا أذكر أموراً كثيرة عن تلك الليلة".

حاولت الاستيضاح أكثر وسألته: "هل أشار فحص الثمالة إلى أنه تخطى الحدّ المسموح به للقيادة؟".

هز رأسه: "نعم، لكنه قال لي لا بد أن أحداً ما قد عبث بمشروبه".

سألته: "متى قال لك ذلك؟".

أجابني: "عندما أتى لزيارتي في المستشفى، بدا حزيناً لما حل بي، ولكنه لم يبدِ أسفه، وكان مصراً أنه لم يشرب تلك الليلة، ولا بد أن أحدهم عبث بالمشروب، وفسر الأمر بأنني أنا من كنت ثملاً، وأنه طلب منه أن يقلني لأنه بدا أفضل حالاً وأكثر يقظة مني".

هذه عادة ميكي لطالما ألقى باللوم على الآخرين.

أبديت تعاطفي معه بقولي: "أفهم سبب كرهك له حتى الآن".

فأدهشني بجوابه: "أنا لا أكرهه".

حدقت إليه، ارتجفت السيجارة بين شفتيّ.

وتابع: "كرهته لفترة، أردت تحميله المسؤولية، لكنني لم أستطع، لم يكن الحادث، سبب انقطاع علاقتي بميكي".

فسألته: "ما السبب إذن؟".

فصعقتني إجابته: "لأن الأمر يذكرني بأنني أستحق ما حصل. أستحق الجلوس في هذا الكرسي. إنها أعمالي. السبب ما فعلته".

فجأة سمعت صوت السيد هالوران ثانيةً:

الأعمال. إنك تحصد ما تزرع. إن فعلت أشياء سيئة ستعود وتتمكن منك في النهاية.

فسألته متلهفاً لأسمع إجابته: "ماذا فعلت؟".

لكنه أجاب بما لم أتوقع أبداً: "قتلتُ أخاه".

1986

بما أن والدة هوبو كانت تعمل بالتنظيف، كانت تنظف المنازل والمدرسة والكنيسة ومقر الكاهن من جملة الأماكن التي تنظفها.

هكذا اكتشفنا ما حصل مع ريفد مارتن.

وصلت غوين هوبكنز إلى الكنيسة كالعادة صباح الأحد عند السادسة والنصف، لتكنس، وتمسح وتلمع قبل أول قداس عند التاسعة والنصف صباحاً. (لا أظن أن الكهنة يمتلكون رفاهية الاستمتاع بعطلة نهاية الأسبوع) كان الظلام دامساً عندما توجهت نحو الأبواب الخشبية الكبيرة وأدخلت المفتاح في القفل.

من المعروف أن غوين تمتلك نسخة من مفاتيح كل الأماكن التي تقوم بتنظيفها، وهي تقوم بتعليقها على لوح في مطبخها، وقد ربطت بكل مفتاح اسم المكان العائد إليه واسم صاحب المكان، ولم تكن غوين تتمتع بالفطنة الكافية، لتهتم بأمر الحفاظ على هذه المفاتيح بعيدة عن أيدي العابثين، خصوصاً، وأنها كانت مدخنة شرهة، ولأجل الحفاظ على جو بيتها خالياً من آثار الدخان غالباً ما كانت تقف خارج باب المطبخ في المساء، وغالباً ما كانت تنسى إعادة إقفاله بإحكام تحت ضغط مسؤولياتها المنزلية.

في وقت لاحق أخبرت غوين الشرطة وبعدها مراسلي الصحيفة، بأنها صباح ذلك الأحد وجدت مفاتيح أبواب الكنيسة معلقة في المكان الخاطئ، ولكنه لم تعر الأمر كبير أهمية، ولم تقم بالربط بين وجود المفاتيح في المكان الخاطئ وبين اكتشافها أن باب المطبخ الخلفي كان مفتوحاً، وظنت أنها نسيته في المساء، لأنها غالباً ما كانت تنساه.

ولكن ما تجب الإشارة إليه، أن عدم حصول مشاكل بخصوص المفاتيح قبل ذلك الحين، ربما كان بفضل العناية الإلهية، لأن الجميع كانوا يعرفون أين تضعها، ولكن ولله الحمد لم يفكر أحد باستعارتها والقيام بأمر سيئ من أي مستوى كان.

لقد كان السيناريو الشرير المفترض بهذه السهولة، استعارة مفتاح من اللوح الذي تعلق عليه غوين المفاتيح والتأكد أن سكان المكان الذي يعود إليه المفتاح غير متواجدين فيه، ثم التسلل إلى داخله والقيام بجولة استكشافية، وإن أعجبك شيء يمكنك أخذه ربما يكون شيئاً صغيراً لا ينتبه أحد لفقدانه، كقلم عديم القيمة أو قطعة من المجوهرات القيمة التي يظن أصحابها أنهم وضعوها في مكان ما ونسوه وحتماً سيجدونها بعد حين، قد يقوم بهذه الجولة اللصوص، أو الأشخاص الذين لديهم هواية جمع الأشياء بغض النظر عن قيمتها.

بحسب رواية غوين، أول شيء أشعرها بأن هناك خطباً ما أنها وجدت باب الكنيسة مفتوحاً، ولكنها لم تعطِ الأمر كبير أهمية، وحللت أنه ربما يكون الكاهن قد استفاق مبكراً ودخل الكنيسة ليتمرن على العظة التي سيلقيها هذا الأحد، وهذا أمر كان الكاهن يقوم به أحياناً. هذا الأمر جعلها تستبعد أي فرضيات سيئة، ولكن مع تقدمها نحو صحن الكنيسة أدركت أن هناك حدثاً جللاً حصل فيها.

بالرغم من عدم تشغيل الإنارة، عادةً لا تكون الكنيسة مظلمة في النهار، وذلك بفضل النور الذي يدخلها عبر النوافذ الزجاجية، وهذا النور يترك ظلالاً على المقاعد والمنبر، ولكن اليوم بدا المنبر والمقاعد باهتة، وبدلاً من الظلال كانت هناك آثار بيضاء عليها.

عندها شعرت غوين بقشعريرة تسري في جسدها، وربما شعرت وكأن الشعيرات القابعة خلف رقبتها قد انتصبت، بعض الناس تجعلهم القشعريرة يشعرون بالتيقظ والخوف، بينما البعض الآخر يعتبرونها رد فعل طبيعياً من الجسد عند حدوث أمر مفاجئ، ولكن المؤمنين من أمثال غوين يتخطون مخاوفهم من خلال القيام بأمور شعائرية، وهذا ما أقدمت عليه غوين بالفعل عندما صلّبت أصابعها أمام صدرها، وتقدمت حتى وصلت إلى أزرار الإنارة، وضغطت عليها، فعم النور أرجاء الكنيسة.

ولكن ما رأته غوين دفعها إلى الصراخ، فقد كانت الرسوم تغطي كل شيء في الكنيسة من الأرض إلى المقاعد والمنبر وانتهاء بالجدران، وحيث وجهت

نظرها وجدت عشرات من الرسوم الطبشورية البيضاء. من الواضح أن من رسمها أراد تدنيس المكان فكان هناك رسوم لراقصين وراقصات، وكانت هناك رسوم فاحشة تظهر رجالاً ونساء في وضعيات مخلة بالآداب، وكان هناك رسوم مريعة تظهر مشانق تتدلى من أعوادها أشكال رجال. صعقت غوين مما شاهدت عيناها، فهي أولاً، لم تنتظر أن ترى رسوماً في الكنيسة، وثانياً لم تتصور أن تكون هناك رسوم فاحشة ومريعة إلى هذا الحد في مكان للعبادة. لقد صدمتها رؤية رسوم غريبة عجيبة، وربما الوصف الأدق لها أنها كانت رسوماً مخيفة أكثر مما هي غريبة.

كادت غوين تلقي بالدلو وتستدير وتطلق ساقيها للريح هاربة من الكنيسة بكل ما لدى قدميها البيضاوين الشاحبتين من قوة تحملها. ولو فعلت لكان الأوان قد فات. لكنها ترددت عندما سمعت صوتا خافتاً، أو بالأحرى أنيناً خفيفاً ضعيفاً.

سألت غوين بوجل: "مرحباً؟ هل من أحد هنا". وتردد صدى كلماتها في أرجاء الكنيسة. وعندها خيّل إليها أنها سمعت أنيناً أعلى نوعاً ما، في الحقيقة أدركت حينها أنه لم يكن يخيل لها، فقد تأكدت بما لا يرقى إليه مجال للشك من أنها تسمع أنين شخص يتألم.

صلّبت مجدداً - أقوى وأبطأ - ومشت صوب الممر، وهي تشعر بالقشعريرة.

وهالها ما رأت عيناها، كان ملقى هناك خلف المنبر، وبدا منكمشاً على نفسه بوضعية الجنين، كانت الدماء تغطي ثوبه الكهنوتي الأبيض، وقد صبغت بلون أحمر قانٍ.

جثت غوين على الأرض، وتأكدت بأن ما تراه حقيقي وليس وهماً، لقد كان هو، نعم إنه الكاهن مارتن، سألته: "هل أنت بخير؟". وأدركت سخافة ما تفوهت به، فعن أي خير تتحدث، عندها تركته وأسرعت في طلب النجدة.

عندما وصل المستشفى علّق الأطباء على وضعه بقولهم: "ضربة واحدة أخرى كانت كفيلة بالقضاء عليه". كان الكاهن قد تعرض لضرب شديد على رأسه فهشم الرأس بكل ما للكلمة من معنى. وكانت عبارة نجا من الموت أكثر العبارات دقة في التعبير عن وضعه.

لم يكن الدم يتدفق من رأسه فحسب، بل أيضاً من الجروح على ظهره. فقد حفر خطان متعرجان من كتفه نزولاً إلى ردفيه يبدو أنهما حفرا بواسطة سكين. لم يلاحظ الناس أنهما كانا جناحي ملاك إلا بعد تنظيف الدم.

في المستشفى، وُصِل ريفد بكل ما يمكن للعقل أن يتصوره من معدات داعمة للحياة، وبقي نزيل غرفة الإنعاش لوقت طويل، لقد كان دماغه متضرر بشدة، و لم يكن أمام الأطباء سوى العمل على تقيم وضعه، لمعرفة إن كان أي تدخل جراحي سيفيده.

في ظل هذه الظروف الصحية، التي أبقت ريفد نزيل المستشفى، عُهد بنيكي إلى إحدى صديقات أبيها من اللواتي كن يتظاهرن أمام عيادة أمي؛ وهي سيدة عجوز ذات شعر أجعد ووجه قبيح من اللواتي يضعن نظارة في غاية السماكة.

لم تبق نيكي في عهدة تلك المرأة لفترة طويلة، فذات يوم توقفت سيارة ميني كوبر صفراء أمام بيت الكاهن تغطيها ملصقات تعود لغرين بيس، وقوس قزح، وكتابات تدعو للتصدي لمرض الأيدز، وغيرها من الملصقات التي لم أعد أذكرها ولكنها في هذا الإطار.

في الحقيقة، لم أعد أذكرها لسبب بسيط أنني لم أكن هناك وأشاهدها، ولكن غاف هو من شاهدها وأخبرني. وهو بدوره أخبر بها أباه، الذي بدوره سمعه من أحد ما في الحانة. خرجت امرأة من السيارة. امرأة طويلة، صهباء يصل شعرها إلى خصرها، ترتدي أفرولاً، وسترة عسكرية وتنتعل جزمة عسكرية. "بدت كواحدة من جماعة غرينهام[1]". لكن اتضح لاحقاً أنها ليست من جماعة

---

(1) غرينهام هو مخيم نسائي أقيم للاحتجاج على وجود أسلحة نووية في سلاح الجو البريطاني.

غرينهام. بل كانت من بورنماوث[1] وكانت والدة نيكي.

ظهور هذه المرأة دحض الأخبار التي تقول إنها ميتة والتي لم نشكك بها يوماً، لأنها كانت صادرة عن شخص فوق مستوى الشبهات، شخص يفترض به أن يكون مثال الصدق والأمانة والشرف، فقد أخبر الكاهن ريفد الجميع أن والدة نيكي متوفاة. هذا الظهور المفاجئ لوالدة نيكي ترك الجميع أمام تحليل واحد قابل للتصديق، ومؤداه أن الأم تركت ابنتها عندما كانت صغيرة، لسبب غير معروف، ولكنها عادة الآن لتسترجع فلذة كبدها بعدما أصبح ريفد طريح فراش المستشفى لأجل غير مسمى، خصوصاً أنه لم يظهر لريفد أي أقارب

بعد دراسة حالة ريفد وتقييمها وجد الأطباء أن لا مفر من التدخل جراحياً، لأنهم ظنوا أن هذا التدخل سيحسن من وضعه، لكنهم لم يؤكدوا لأي كان أن العملية قد تكون سبباً لشفائه التام. فلا يقين طبي عندما يتعلق الأمر بإصابات الرأس. بعد العملية ظهر جلياً أن ما توقعه الأطباء كان دقيقاً فقد طرأ تحسن ملحوظ على حالة، فأصبح بإمكانه الجلوس على الكرسي بنفسه، والأكل والشرب، والذهاب إلى المرحاض مع بعض المساعدة. لكنه لم يستطع - وربما لم يرغب - التكلم، ولم يتمكن الأطباء من حسم حقيقة إن كان يفهم ما يقال له أم لا.

نقل للنقاهة في مصحة لذوي الإعاقات العقلية كما قالت أمي، وتحملت الكنيسة نفقات علاجه. وقد كان ذلك جيداً لأن والدة نيكي كما أظن، كانت عاجزة عن تحمل نفقات إقامته في المصحة، هذا إن أحسنا الظن و لم نقل إنها غير رغبة.

حتى أنها -على حدّ علمي- لم تأخذ نيكي لزيارة والدها، ربما كانت هذه طريقتها للانتقام. بعد كل هذه السنوات التي قال فيها لنيكي أن أمها ميتة، وربما لم تكن نيكي تريد الذهاب، وأنا لا ألومها.

---

(1) منتجع ساحلي كبير يقع على الساحل الجنوبي لإنجلترا مباشرة إلى الشرق من الساحل الجوراسي.

هناك شخص واحد فقط ظل يزوره بانتظام بلا ملل، وكل أسبوع، هذا الشخص لم يكن عضواً في جماعته من المؤمنين، بل كان إحدى ضحايا هذه الجماعة التي ما فتئت تشهر بها وتصفها بالقاتلة عديمة الرحمة، وتهددها بعظيم الأمور، وبالخلود في الجحيم عقاباً على ما تقترفها يداها؛ إنها أمي. أستطيع تقدير حجم الدهشة المرتسمة على وجوهكم. نعم، إنها أمي.

لم أفهم لماذا كانت تزوره، فقد كان كل منهما يكره الآخر، أو بكلمات أدق ريفد كان يكرهها، وأقدم على أفعال مروعة بحقها، وتكلم عنها بالسوء، لاحقاً قالت لي: "هذه هي النقطة يا إيدي. أفهم ما سأقوله لك، لتكن شخصاً جيداً، ليس ضرورياً أن ترتم الإنجيل وتصلي فلا علاقة للأمر بوضع الصليب والذهاب كل أحد إلى الكنيسة، لتكون شخصاً جيداً، ليس ضرورياً أن تكون متديناً، بل كل ما تحتاج إليه هو القناعة بأن ما تقوم به هو صحيح".

سألتها: "ألأجل هذا تزورينه؟".

ابتسمت ابتسامة ذات معنى لم أدرك كنهه حتى اليوم وأجابتني: "ليس بالضبط. أزوره لأنني آسفة عليه، أزوره بدافع إنساني".

رافقتها ذات مرة، ولا أعلم لماذا. ربما لأنه لم يكن لديّ شيء أفضل لأقوم به. أو ربما لأنه كان أمراً لطيفاً أن أرافق أمي بين الفترة والأخرى، لأنها كانت تعمل كثيراً ولم يكن لدينا وقت كافٍ لنمضيه معاً. وربما رافقتها بدافع الفضول ليس إلا.

كانت المصحة تدعى سانت ماغدالين، وكانت على بعد مسير عشر دقائق بالسيارة على طريق ويلتون. كانت المصحة تقع في نهاية ممر ضيق تحف جانبيه أشجار كثيفة، بدت المصحة من بعيد جميلة فهي عبارة عن منزل كبير قديم، تحيط به مساحات عشبية تتناثر عليها طاولات بيضاء جميلة وكراسٍ.

شيد كوخ خشبي في آخر الباحة، وكان هناك رجلان بزي موحد - بستانيان على ما أظن - منهمكان بالعمل. أحدهما يتمشى ذهاباً وإياباً مع آلة جز عشب كبيرة، والآخر يشذب أغصان الأشجار اليابسة بفأس ويجمعها في كومة، تمهيداً لاستخدامها للتدفئة.

كانت هناك امرأة عجوز تجلس إلى طاولة في الحديقة. وكانت ترتدي فستاناً مطبعاً بالورود وتعتمر قبعة تناسب حجم رأسها. عندما عبرنا بجانبها لوّحت بيدها وقالت: "لطف منك أن تأتي، يا فرديناند".

نظرت إلى أمي وسألتها: "هل تكلمنا؟".

فأجابتني: "ليس بالضبط يا إيدي، إنها تكلم خطيبها".

فسألتها مجدداً بدافع الفضول: "أهو أتٍ لزيارتها؟".

أجابتني بتؤدة: "أشك في ذلك. فقد مات منذ أربعين عاماً".

كنا قد ركنا السيارة ومشينا على طريق مرصوف إلى أن وصلنا الباب. لم يكن الداخل كما تخيلته. كان جميلاً أو بالأحرى حاولوا جعله جميلاً. فقد طليت الجدران باللون الأصفر وزينت بالصور. وكانت رائحة المعقمات والبول تعبق في الأرجاء، بالإضافة إلى رائحة لم أستطع تحديد ماهيتها، ولكنها كانت تشبه رائحة الملفوف المتعفن.

شعرت بأني على وشك التقيؤ قبل أن نصل إلى الكاهن. قادتنا ممرضة إلى قاعة مستطيلة فيها كثير من الكراسي والطاولات. وهناك تلفاز يومض في إحدى الزوايا. حيث جلس شخصان يشاهدانه؛ امرأة سمينة بدت نصف نائمة، وشاب يضع نظارة وسماعة مضخمة للصوت. كان يقفز من وقت لآخر ويلوح بيده في الهواء ويصرخ: "اجلدني يا ميلدرد!" كان ما يقوله مضحكاً ومحرجاً في آن. ولم يبدُ أن الممرضة تعيره اهتماماً.

كان ريفد مارتن جالساً على كرسي بالقرب من الباب الفرنسي، يداه مرتاحتان على رجليه، ووجهه بلا تعابير كتماثيل واجهات المحلات التجارية. كان قد وضع بشكل يستطيع النظر إلى الخارج باتجاه الحديقة. لا أعلم إن كان يحب ذلك. كان ينظر بصمت إلى شيء ما – أو ربما إلى لا شيء –. لم تكن عيناه تتحركان، ولا حتى عندما يمر أحد بالقرب منه، ولا حتى عند سماعه الرجل ذا السماعة يصرخ. لست أكيداً حتى إن كان يرمش.

لم أهرب من القاعة، لكنني فكرت جدياً بالأمر. جلست أمي لتقرأ له في كتاب كلاسيكي لأحد الكتاب الراحلين، اختلقت سبباً، لأغادر القاعة

وأتمشى في الحديقة. فقط لأبتعد وأتنشق هواءً نظيفاً. كانت العجوز ذات القبعة لا تزال هناك. حاولت ألا أجعلها تراني لكنها ما إن اقتربت حتى استدارت.

وسألتني: "فرديناند لن يأتي، صحيح؟".

أجبتها متلعثماً: "لا أعلم".

ركّزت عينيها عليّ. "أعرفك، ما اسمك أيها الصبي؟"

أجبتها: "إيدي إيدي، سيدتي".

فسألتني مجدداً: "أنت هنا لزيارة للكاهن".

أجبتها: أنا أتيت برفقة أمي التي تزوره".

أومأت "هل تريد أن تعرف سراً يا فريدي؟".

فكرت أن أقول لها إنني إيدي، قبل أن أتجاهل الأمر. كان هناك شيء مخيف في تلك المرأة، ليس فقط لأنها عجوز، رغم أن ذلك جزء مخيف؛ كولد، يعتبر كبار السن ببشرتهم المترهلة وأيديهم الهزيلة، المليئة بالشرايين الزرقاء، شنيعين نوعاً ما.

أشارت إليّ بإصبع نحيل بارز العظام، ظفره أصفر وملتوٍ، شعرت بجزء مني يريد الهرولة والهرب، ولكن بالمقابل كولد لم أستطع مقاومة الرغبة بمعرفة السر فخطوت خطوة نحوها.

فقالت: "الكاهن... يخدعهم جميعاً".

سألتها مستوضحاً: "كيف؟".

أجابتني وهي تتلفت: "رأيته في الليل، إنه شيطان مقنع".

انتظرتها، قومت جلستها، وأسندت ظهرها وعبست. "أعرفك".

فقلت لها مجدداً: "أنا إيدي".

فجأة، أشارت إليّ: "أعرف ما فعلت يا إيدي. لقد أخذت شيئاً، أليس كذلك؟".

تراجعت وابتعدت، صار صدى صرخاتها يلاحقني: "أعده إليّ أيها الصبي، أعده".

أطلقتُ ساقي للريح، وعدت إلى حيث كانت أمي تقرأ للكاهن، وشعرت بنبضات قلبي، ولما رأيتها تقرأ جلست بعيداً أنتظرها.

لكن قبل ذلك، وبسرعة أعدت التمثال الصيني الذي كنت قد أخذته من القاعة.

هذه الزيارة سبقتها أحداث كثيرة ليس أقلها قدوم الشرطة إلى منزلنا، واعتقالهم أبي، وبعد ذلك تلك البلبلة التي أجبرت السيد هالوران على الاستقالة.

بالعودة إلى تلك الفترة، يمكننا الحديث عن مغادرة نيكي البلدة للعيش مع والدها في بورنماوث، وعن ذهاب غاف السمين إلى بيت ميكي مرة أو مرتين، في محاولة منه لجسر هوة الخلاف بينهما، ولكن في المرتين صدته والدة ميكي، وطلبت منه عدم العودة مجدداً، وأغلقت الباب بوجهه.

أذكر عبارة غاف الشهيرة "هذه كومة من رعاة البقر النتنين" التي قالها عندما رأى ميكي في المتجر، يتسكع مع ولدين أكبر منه سناً. ولدين فطين رفيقي شون إن كنتما تذكرانهما، صحيح اللذين شاركا في الاعتداء عليّ في الحديقة.

لم أهتم مع من يقضي ميكي الوقت. كنت مسروراً لأنه لم يعد واحداً من جماعتنا. اهتممت لأمر ذهاب نيكي أكثر ما استطعت الاعتراف لهوبو وغاف السمين. ولم يكن الأمر الوحيد الذي لم أعترف لهما به، فلم أقل لهما إنها أتت لرؤيتي مرة أخيرة في يوم رحيلها.

يومها، كنت في المطبخ، أنهي واجبي المدرسي على الطاولة، وكان أبي يطرق بالمطرقة في مكان ما، وأمي تنظف بالمكنسة الكهربائية. كنت قد شغلت الراديو فكانت أعجوبة أني سمعت رنين جرس الباب.

انتظرت قليلاً. ثم عندما بدا أن أحداً لن يفتح، قفزت من كرسيّ، هرولت في الرواق وفتحت الباب. كانت نيكي تقف في الخارج، تمسك مقود دراجتها. بشرتها باهتة وشعرها الأحمر غير مسرّح وتحت عينها اليسرى بقعة زرقاء

وصفراء. بدت إحدى لوحات السيد هالوران التشكيلية. كانت مرقعة، نسخة شاحبة عنها.

بادرت بالقول: "مرحباً" ويا لها من مرحبا لم أسمع أعذب منها.

رددت عليها التحية وقلت: "كنا سنذهب لزيارتك ولكن... "تراجعت فنحن لم نكن ذاهبين أصلاً.

قالت: "لا مشكلة".

لكن كان هناك مشكلة. كان من المفترض أن نكون أصدقاءها.

سألتها: "أتريدين الدخول؟ عندنا ليموناضة وبسكويت".

أجابتني: "لا أستطيع. تظن أمي أنني أوضب أغراضي للرحيل. فتسللت وأتيت لأودعك".

سألتها: "ستغادرين اليوم؟".

"أجل".

شعرت بثقل في صدري.

قلت من دون تفكير: "سأشتاق إليك، كلنا سنشتاق إليك".

استجمعت قواي لردٍ ساخر لاذع منها. لكنها عوضاً عن ذلك، خطت فجأة إلى الأمام وطوقتني بذراعيها بقوة، لم تبدُ فعلاً كعناق، بدت أكثر كقبضة نجاة من الموت، وكأني آخر طوف نجاة فوق محيط مظلم وعاصف.

تركتها تتمسك بي. استنشقت في تموجات شعرها رائحة الفانيليا والعلكة، وشعرت بصدرها يعلو ويهبط، وتمنيت لو نستطيع البقاء هكذا إلى الأبد. لكنها استدارت فجأة وامتطت دراجتها، ودوّست بسرعة حتى طار شعرها الأحمر وراءها ككتلة من اللهب الغاضب. لم تقل أي كلمة، حتى إنها لم تقل وداعاً. شاهدتها وهي تبتعد وأدركت شيئاً آخر: لن تذكر والدها مرة واحدة.

أتت الشرطة مجدداً لتستجوب والدة هوبو.

سأل غاف السمين هوبو، وهو يضع زجاجة كولا مفرقعة في فمه: "ألم يعرفوا الجاني بعد؟".

كنا نجلس على مقعد في ملعب المدرسة، ذلك المكان الذي كنا نجلس فيه نحن الخمسة، في طرف الملعب قرب مربعات لعبة القفز. ولكننا أصبحنا الآن ثلاثة بافتراق ميكي عنا، ومغادرة نيكي.

هز هوبو رأسه: "لا أظن ذلك. كانوا يسألونها عن المفتاح، من يعرف مكانه، سألوها مجدداً عن الرسومات في الكنيسة".

لفت ذلك انتباهي: "ماذا سألوا بشأن الرسومات؟".

أجاب: "سألوها إن كانت رأت مثلها من قبل. هل ذكر الكاهن أمامها عن رسائل أخرى أو تهديدات؟ هل كان أحد يكن له الضغينة؟".

تحركت بانزعاج. *فتشوا عن رجال الطبشور.*

نظر إليّ غاف السمين وسألني: "ما الأمر، يا إيدي مونستر؟"

ترددت. لا أعلم لماذا. فهؤلاء هم أصدقائي، جماعتي. لم أكن أخفي عنهم شيئاً. كان يجب أن أخبرهم عن رجال الطبشور.

لكن شيئاً ما أوقفني.

ربما لأن غاف السمين، رغم أنه مرح ومخلص وكريم، لم يكن كتوماً. وربما لأنني لا أريد إخبار هوبو عن تلك الرسوم في المقبرة، لأنني عندها سأضطر لشرح سبب كتمان ذلك وقتها. زيادة على ذلك، لا أزال أتذكر ما قاله ذلك اليوم: "حين أكتشف من فعل هذا، سأقتله".

قلت: "لا شيء.. فقط، لقد رسمنا رجال الطبشور، أليس كذلك؟ آمل ألا تظن الشرطة أننا الفاعلون".

بدأ غاف السمين بالتذمر وقال: "كان ذلك مجرد هراء سخيف. لن يظن أحد أننا ذهبنا لسحق رأس كاهن". ثم بش وجهه. "أراهن أنه أحد الأبالسة، أحد عبدة الشيطان. هل أمك أكيدة أنه طبشور وليس دماً؟" رفع صوته وطوى يديه كمخالب وأطلق معها قهقهة شريرة هاهاهاهاه.

رن الجرس وحان وقت دروس بعد الظهر، لم يقفل الموضوع ولكنه أُجلّ.

عندما عدت من المدرسة كانت هناك سيارة غريبة مركونة على الطريق وكان أبـي يجلس في المطبخ مع رجل وامرأة يرتديان سترتين رماديتين، ظهرا فظين. كان أبـي يجلس مولياً ظهره للخارج، لكن من طريقة جلوسه خمّنت أن وجهه مضطرب وحاجبيه مقطبان.

لم أستطع رؤية المزيد لأن أمي خرجت من المطبخ، وأغلقت الباب وراءها. قادتني إلى الصالة.

سألتها: "من هذان؟".

لم تكن أمي من النوع الذي يجمّل الحقيقة. "محققان، يا إيدي".

سألتها: "شرطة؟ لماذا هما هنا؟".

أجابتني: "ليطرحا بعض الأسئلة على والدك بشأن ريفد مارتن".

حدقت إليها، وبدأ قلبـي يخفق بسرعة أكبر. وسألتها مجدداً: "لماذا؟".

أجابتني وأخذت تشرح لي: "إنها إجراءات روتينية، يتحدثون مع من يعرفونه".

فقلت معترضاً: "لم يتحدثا مع والد غاف، وهو يعرف الجميع".

قمعت أمي اعتراضي بقولها: "لا تكن فظاً إيدي. اذهب وشاهد التلفاز قليلاً ريثما ينهيان عملهما".

لم يسبق لأمي أن اقترحت عليّ مشاهدة التلفاز، فهي كانت تبقيني بعيداً عن التلفاز ريثما أنهي واجباتي المدرسية، فعرفت أن هناك خطباً ما.

قلت لها: "كنت أريد إحضار مشروب".

فأنعمت عليّ بقولها: "سأحضره لك".

نظرت إليها وسألتها: "ليس هناك من خطب، أليس كذلك أمـي؟ لا يشكون بأن أبـي الفاعل؟".

وضعت يدها على ذراعي، وضغطت بلطف وقالت: "لا يا إيدي. لم يفعل والدك ذلك، حسناً؟ اذهب الآن، وسأحضر لك بعض العصير بعد دقيقة".

"حسناً".

تجولت في الصالة، وشغّلت التلفاز. لم تحضر لي أمي العصير. لكن لا بأس بذلك. بعد قليل، غادر المحققان، وغادر أبـــي معهما. فأدركـــت أن الأمـــور ليست على ما يرام.

يبدو أن أبـــي عندما خرج ليتنزه ليلة الاعتداء على الكاهن، قصد حانة ذا بول والد غاف السمين جزم بحقيقة أنه كان هناك يشرب الشراب (عادة لم يكن أبـــي يشرب، لكن عندما يشرب لا يشرب البيرة كباقي الآباء، بـــل ينـــوع). تكلم والد غاف السمين معه، لكنه كان مشغولاً تلك الليلة، إضافة إلى ذلـــك، قال والد غاف "أتعلم عندما يريد المقامر بعض الوقت لوحده". كان يفكر بـــأن لا يخدم أبـــي أكثر عندما غادر، مباشرة قبل الإغلاق.

لم يستطع أبـــي تذكر الكثير بعد ذلك، لكنه تذكر الجلوس لاستنشـــاق هواء نظيف، على أحد المقاعد في باحة الكنيسة، التي كانت في طريق العودة إلى المنزل. وقد رآه أحدهم هنالك عند منتصف الليل تقريباً. أخبرت أمي الشـــرطة أن أبـــي عاد عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. والشرطة لم تستطع تحديد وقت الاعتداء على ريفد مارتن، لكنهم يعتقدون أنه ما بـــين منتصـــف الليـــل والثالثة.

على الأرجح لم يكن لديهم الكثير لإدانة أبـــي، لكن كـــان لـــديهم ما يحتاجون إليه – من عراك حفلة غاف إلى التهديدات التي كانـــت تصـــل أمي –للتحقيق معه أكثر. ربما كانوا أبقوه هناك، لو لم يقل السيد هـــالوران كلمته.

في اليوم التالي، دخل السيد هالوران مركز الشرطة ليخبرهم أنه رأى أبـــي نائماً على المقعد في باحة الكنيسة تلك الليلة. فأيقظه وساعده على المشـــي إلى البيت، فقط إلى باب البيت. كان ذلك بين منتصف الليل والساعة الواحدة. لقد استغرقهما السير من هناك إلى البيت حوالي أربعين دقيقة (رغم أنها تحتـــاج إلى عشر دقائق عادة) لأن أبـــي كان في حالة يُرثى لها.

كذلك قال السيد هالوران للشرطة إنه لم تكن هناك دماء على أبـــي، ولم يكن غاضباً أو عنيفاً. كان فقط ثملاً وعاطفياً قليلاً.

ما قاله السيد هالوران كان كفيلاً بدفع التهمة عن أبـــي. لكـــن لســـوء الحظ، قاد للسؤال عن سبب تجول السيد هالوران حول باحة الكنيسة في مثـــل ذلك الوقت من تلك الليلة، وهكذا اكتشف الكل أمر فتاة والتزر.

2016

نعتقد أننا نريد أجوبة، لكن ما نريده فعلاً هو الأجوبة الصحيحة. إنها طبيعة البشر. نسأل الأسئلة التي نأمل أن توصلنا إلى الحقيقة التي نريد سماعها. المشكلة هي أننا لا نستطيع اختيار الحقيقة كما نريدها. فالحقيقة ببساطة هي دائماً الحقيقة، والخيار الوحيد الذي لديك هو إما أن تصدقها وإما لا.

سألت غاف: "هل أنت من سرق دراجة شون كوبر؟".

أجابني: "كنت أعلم أنه يتركها دائماً على الطريق في الليل. كان يظن أنه قوي ولا أحد يتجرأ على سرقتها. فسرقتها، لأتحداه فقط". ثم توقف قليلاً. "لم أفكر أنه يمكن أن ينزل إلى النهر ليحاول سحبها. لم أفكر أنه يمكن أن ينتهي به الأمر غريقاً".

ولا أنا اعتقدت ذلك. لكن الكل كانوا يعرفون كم كان شون يحب دراجته. لا بد أنه قد خطر ببال غاف أن سرقتها ستنتهي بالمشاكل بالتأكيد.

سألته: "لماذا فعلت ذلك؟".

نفخ غاف حلقة من الدخان وقال ما لم أرغب بسماعه: "لقد رأيت ما فعله بك ذلك اليوم في الحديقة".

منذ ثلاثين سنة، ووجنتاي لا تزالان تشتعلان خجلاً من تلك الذكريات. الأسفلت الخشن يحف ركبتي، ورائحة العرق والشيء المتعفن في فمي.

قال لي: "كنت في الحديقة، رأيت كل ما حصل، و لم أفعل شيئاً. وقفت هناك فقط. ثم رأيت السيد هالوران يركض، فقلت لا بأس. لكن لم يكن الأمر على ما يرام".

قلت له: "لم تكن لتستطيع فعل شيء، كانوا سيتحولون إليك".

قال: "لكن كان يجدر بي محاولة التدخل، فالأصدقاء هم كل شيء، أتذكر؟ هذا ما كنت أقوله دائماً. لكنني لم أكن كما يقول المثل: الصديق

وقت الضيق. تركت شون ينجو بفعلته. كما فعل الجميع. كان لينتهي به الأمر في السجن لو أقدم على فعلته في أيامنا هذه. في ذلك الوقت كنا كلنا خائفين منه". نظر إليّ وتابع: "لم يكن فقط متنمراً، كان مريضاً نفسياً لعيناً".

إنه محق بعض الشيء. لا أحسم إن كان كوبر مريضاً نفسياً، ولكن المؤكد أنه كان سادياً، معظم الأولاد هم كذلك إلى حدٍّ ما. لكنه ربما كان سيصبح مختلفاً عندما يكبر.

أفكر في ما قاله السيد هالوران في المقبرة:

لم يحصل على فرصة للتغير

قال غاف: "أراك صامتاً".

سحبت نفساً من سيجارتي.

فقلت له: "في الليلة التي علمنا فيها بموت شون، رسم أحدهم على الممر أمام البيت بالطبشور، رسم رجل طبشور يغرق، كانت رسالة".

قال نافياً التهمة عن نفسه: "لم أكن أنا؟".

سألته: "من يكون إذاً؟".

أطفأ غاف سيجارته بالمقعد. "ومن يدري؟ وماذا يهم؟ رجال الطبشور اللعناء. إنه كل ما يتذكر الجميع من ذلك الصيف. الناس يعطون أهمية تافهة لرسوم سخيفة أكثر من الذين تأذوا".

هذا صحيح، لكن الاثنين كانا متشابكين بشكل لا يقبل الشك. البيضة أم الدجاجة. أيهما أتى أولاً. رجال الطبشور أم القتل؟

قال غاف: "أنت الوحيد الذي يعرف هذا يا إيد".

أخبرته: "لن أتفوه بكلمة".

قال متنهداً: "أعرف، هل قمت بعمل سيئ لدرجة أنك لا تستطيع أن تخبر به أقرب أصدقائك؟".

أطفأت سيجارتي وقلت: "أنا متأكد أن أكثر الناس فعلوا أمراً سيئاً لا يستطيعون إخبار أقرب الناس عنه".

هنا تظاهر بالحكمة وقال: "أتعلم ما قال لي أحدهم مرة؟ الأسرار هي كالشروج، كلنا نمتلكها لكن بعضها أنتن من الآخر".

علقت على العبارة: "صورة مجازية جميلة".

فقال: "نعم، يا لها من كومة براز". وقهقه قليلاً.

بعد الظهر قبل أن أعود إلى المنزل. دخلت، مشيت إلى المطبخ وفوراً عبست بسبب رائحة فضلات ميتينز. تحققت من الصينية البلاستيكية، لم يكن هناك أي فضلات. ما يمكن أن يكون جيداً أو مقلقاً هو مستوى السوء الذي يعمل فيه ميتينز اليوم. تذكرت أن أتفقد الشبشب قبل أن أضع قدمي فيه.

كانت هناك زجاجة شراب مغرية تقف بشموخ على سطح طاولة المطبخ، لكن بدل ذلك أحضرت بيرة من البراد وصعدت إلى الطابق العلوي. تريثت برهة قرب غرفة كلوي. لم أستطع سماع شيء من الداخل، لكني أشعر برجة خافتة عبر البلاط، ما يعني على الأرجح أنها تضع سماعاتها وتسمع الموسيقى. جيد.

سرت على رؤوس أصابعي إلى غرفتي، وأغلقت الباب. ثم وضعت زجاجة البيرة على الطاولة قرب السرير، انحنيت وأزحت صندوق الأدراج إلى جانب النافذة. إنه ثقيل ويخدش ألواح البلاط قليلاً، لكني لست قلقاً بشأن الضجيج. عندما تسمع كلوي الموسيقى فهي تحب سماعها بصوت يصم الأذن. ويمكن أن تحدث هزة أرضية بسيطة دون أن تلاحظها.

أخذت مفكاً قديماً أحتفظ به في جارور ملابسي الداخلية وأستعمله لأرفع ألواح البلاط. أربعة منها، أي أكثر مما كنت أرفع في صغري لأنني الآن أملك مزيداً من الأشياء لأخفيها.

أخذت إحدى العلبتين الموضوعتين في الحفرة، رفعت غطاءها وحدقت إلى محتوياتها. أخذت أصغر الأشياء وبحذر فردت القماش عنه، وظهر قرط ذهبي، لم يكن ذهباً حقيقياً، قطعة حلي رخيصة مشوهة قليلاً الآن. حملتها بيدي قليلاً، حتى دفأ المعدن في يدي. أول شيء أخذته منها، على ما أعتقد. يوم بدأ الأمر في المعرض.

أفهم كيف يشعر غاف. لو لم يسرق دراجة شون كوبر، لربما كان لا يزال حياً. تصرف صبياني أحمق صغير نجمت عنه مأساة رهيبة. لم يكن غاف ليتوقع كيف سينتهي الأمر، ولا أنا. لكن لا يزال هناك شعور ينتابني، شعور بعدم الارتياح. بحسب وجهة نظري لا يكون الذنب دائماً توأم المسؤولية.

أنا متأكد أن كلوي ستقول لي إن هذا بسبب ضيق أفقي، أو بالأحرى لأنني لا أرى أبعد من أنفي، ولأنني رجل مهووس بالنفس وأعطيها قدراً أكثر مما تستحق وأعتقد أن العالم يدور حولي. هذا صحيح، إلى حد ما. فالانفرادية تؤدي إلى الاستبطان. من ناحية أخرى، ربما لم أعطِ وقتاً كافياً للاستبطان، أو التفكير بالماضي. أعدت لف القرط بعناية وأعدته إلى مكانه في العلبة.

ربما حان وقت النزهة، على درب العودة إلى الذكريات القديمة. إلا أن هذه النزهة ليست نزهة عادية تحت أشعة الشمس، بل نزهة في ذلك الدرب المظلم المفروش بالأكاذيب والأسرار المترابطة، ومليء بحفر مخفية.

وعلى طول الدرب، هناك رجال طبشور.

1986

إحدى العبارات التي لا تزال راسخة في ذاكرتي، وإن لم تكن الوحيدة، تلك التي أخبرني بها السيد هالوران: "لا يمكنك اختيار بمن ستغرم".

أعتقد أنه محق تماماً في ما قاله، فالحب ليس أمراً يقدم عليه المرء بإرادة حرة، الحب أمر مقدر، ولكن يمتلك المرء في بعض الأحيان مجالاً ضيقاً للاختيار يتمثل في عدم وقوعه في الحب. يمكن للمرء، في بعض الأحيان أن يتصدى للحب، أن ينأى بنفسه عنه. لو أن السيد هالوران اختار عدم الوقوع في حب فتاة والتزر، لكان كل شيء قد اختلف.

ما سأخبركم به، حدث بعدما ترك السيد هالوران المدرسة- أو بكلمات أدق بعدما أجبر على الاستقالة- يومها تسللت من المنزل خلسة، وركبت دراجتي، وعبرت البلدة لأراه في كوخه. كان يوماً بارداً، وكانت السماء رمادية وبين الحين والآخر تتساقط زخات من المطر، ويبدو أن الغيوم كانت محبطة و لم تشعر بالقدرة على إسقاط حمولتها من الأمطار دفعة واحدة.

لقد جعلوا السيد هالوران يستقيل. لم يعلنوا ذلك، أعتقد أنهم أملوا أن يغادر بصمت. لكن طبعاً، كلنا نعلم أنه مغادر، وكلنا نعلم سبب مغادرته.

بعد حادثة المعرض، واظب السيد هالوران على زيارة فتاة والتزر في المستشفى خلال فترة تعافيها. وواظب على زيارتها بعدما خرجت من المستشفى. وبعدها أصبحا يلتقيان في الحديقة. أعتقد أن لقاءاتهما كانت سرية بعيدة عن أعين الجميع، لأن أحداً لم يرهما قط، أو ربما رآهما أحد لكنه لم يلحظ شيئاً. كانت فتاة والتزر قد غيّرت لون شعرها، فصبغته بلون أفتح، أشقر تقريباً. لست متأكداً لماذا، أظن أن شعرها كان أجمل من قبل. لكن ربما أحست أنها بحاجة لتغير اللون لأنها هي بحد ذاتها تغيرت. أحياناً كانت تمشي متكئة على عكاز وفي أحيان أخرى كانت تعرج، أظن أنه عندما كان أحد يراهما كان

يقول إن السيد هالوران يحسن معاملتها. في ذلك الوقت كان السيد هالوران لا يزال بأعين الجميع بطلاً وشهماً.

لكن كل ذلك انقلب رأساً على عقب بسرعة عندما اكتشف الناس أن الفتاة كانت تتردد إلى كوخه في الليل وأنه كان يتسلل إلى منزلها عندما تكون أمها في الخارج. وهذا ما يفسر مروره بباحة الكنيسة عندما كان أبي نائماً فيها.

لأن فتاة والتزر كانت لا تزال في السابعة عشرة من عمرها، والسيد هالوران كان يكبرها بنحو ثلاثين عاماً، وهو مدرس. لم يعد الناس يدعونه بطلاً بل منحرفاً ومستغل أطفال. ذهب الأهالي غاضبين إلى المدرسة ليشكوا أمر السيد هالوران للمديرة، رغم أنه لم يكن قد فعل رسمياً أو قانونياً أي شيء خاطئ، فلم يكن أمام المديرة من خيار إلا أن تطلب منه الرحيل. كانت سمعة المدرسة "وسلامة" الطلاب على المحك.

بدأت القصص تنتشر أن السيد هالوران كان يرمي بالممحاة لينظر إلى تنانير الفتيات في الصف، وكيف أنه يتجول في الملعب ويحدق إلى سيقانهن، أو كيف لمس مرة في غرفة الطعام ثدي فتاة عندما كانت تنظف طاولته.

لم يكن أي من هذا صحيحاً، لكن الشائعات كالجراثيم. تنتشر وتتكاثر مع كل نفس، وقبل أن تعرف حقيقتها تنتقل عدواها إلى الجميع.

كنت أود القول إنني وقفت مع السيد هالوران ودافعت عن سمعته في وجه بقية الأولاد، لكن هذا ليس صحيحاً. فقد كنت في الثانية عشرة من عمري وكانت هذه مدرسة. كنت أضحك على النكات التي تقال عنه و لم أقل كلمة عندما ينعته الناس بأوصاف شنيعة أو يتداولون قصصاً شائنة عنه.

لم أقل له يوماً أنني لا أصدقهم، وأنه شخص طيب، لأنه أنقذ حياة فتاة والتزر، وحياة والدي أيضاً. لم أستطع أن أخبرهم عن اللوحات الجميلة التي كان يرسمها، أو عن اليوم الذي أنقذني فيه من شون كوبر، أو كيف ساعدني أن أفهم أنني يجب أن أتمسك بكل ما هو مميز بالنسبة إليّ، كيف أتمسك فعلاً بقوة.

أظن أن هذا ما دفعني لأذهب وأراه اليوم. فكما توجب عليه الاستقالة، توجب عليه مغادرة الكوخ، فالمدرسة هي من استأجرته له ويفترض بالمدرس البديل أن يسكن فيه.

كنت أشعر بالخوف والغرابة عندما أسندت دراجتي في الخارج وطرقت بابه. مرت برهة قبل أن يفتح السيد هالوران الباب. كنت أتساءل إن كان عليّ الرحيل، أو أنه سيخرج، مع أن سيارته كان مركونة في الخارج، وعندما تأرجح الباب وفتح كان السيد هالوران يقف في الداخل.

بدا مختلفاً نوعاً ما، لطالما كان نحيفاً، لكنه الآن بدا هزيلاً جداً. كانت بشرته أبهت ما يمكن أن يكون عليه البشر. شعره طليق، يرتدي بنطال جينز وكنزة قاتمة أظهرت نحالة يديه، اللون الوحيد فيهما كان أزرق شرايينه، الفاقع والواضح من خلال جلده الشفاف. ذلك اليوم، بدا فعلا نوعاً من المخلوقات الغريبة غير البشرية. كرجال الطبشور.

حياني قائلاً: "مرحبا إيدي".

رددت التحية: "مرحباً سيد هالوران".

سألني: "ماذا تفعل هنا؟".

سؤال جيد، فبالرغم من مجيئي إلا أنني لم أكن أعرف لماذا جئت.

وأتبع سؤاله بسؤال آخر: "هل يعلم أبوك وأمك أنك هنا؟".

أجبته: "حسناً، إنهما لا يعلمان".

عبس بوجهي، وخرج ونظر حولنا. لم أعلم لماذا فعل هذا في ذلك الوقت. لاحقاً، عرفت – مع كل الشائعات التي تنتشر حوله، فآخر ما كان يريده هو أن يراه أحدهم يدعو صبياً صغيراً ليدخل كوخه. أعتقد أنه كان على وشك صرفي، لكنه نظر إليّ ورقّ صوته: "أدخل يا إيدي. أتريد شراباً؟ عصيراً أم حليباً؟"

لم أكن أريد شيئاً، ولكن كان من الفظاظة قول ذلك، فقلت: "هممم، سيكون الحليب جيداً".

"حسناً".

تبعت السيد هالوران إلى مطبخه الصغير.

قال: "اجلس".

فجلست على أحد الكراسي الهزازة.

سطح العمل في المطبخ كان مليئاً بالصناديق، ومعظم غرفة الجلوس أيضاً.

سألته: "أراحل أنت؟". وكان سؤالاً أخرق لأنني كنت أعلم أنه راحل.

أجابني وهو يأخذ بعض الحليب من البراد ويتحقق من التاريخ قبل أن يفتش عن كوب في الصناديق: "نعم، سأعيش مع أختي في غورنوول".

تأوهت وقلت: "لقد ظننت أن أختك متوفية".

أجابني: "هناك أخت أخرى، أكبر، تدعى كريستي".

تأوهت.

قدّم لي السيد هالوران الحليب وسألني: "هل كل شيء على ما يرام يا إيدي؟".

أجبته متلعثماً: "أأ، أريد أن أشكرك على ما فعلته لأجل والدي".

ردّ بتواضعه المعهود: "لم أفعل شيئاً، لم أقل سوى الحقيقة".

"نعم، لكن لم تكن مضطراً لو لم..." جعلت جملتي تضمحل. كان ذلك مريعاً. أسوأ مما ظننت. لم أكن أريد أن أبقى هناك، أردت الرحيل، لكنني شعرت أنني لم أعد أستطيع.

تنهد السيد هالوران: "إيدي، لا علاقة لك أو لوالدك بكل ما يحصل، فأنا كنت قد نويت".

فسألته: "هل للأمر علاقة بفتاة والتزر؟".

صحح لي: "تعني اليزا".

"نعم" أومأت. وارتشفت الحليب. كان طعمه سيئاً نوعاً ما.

أجاب على سؤالي ووضح: "نعتقد أن بداية جديدة قد تكون أفضل لكلينا".

سألته: "هل ستغادر معك إلى غورنوول؟".

أجاب: "آمل ذلك".

قلت بما يشبه السؤال: "يقولون عنك أشياء سيئة".

ردّ عليّ ووضّح لي: "أعلم ذلك، لكنها ليست صحيحة".
قلت: "أعرف".
لكنه شعر أنني أحتاج إلى مزيد من الإيضاح لأقتنع: "اليــزا فتــاة مميــزة يا إيدي. لم أقصد أن يحدث هذا. فقط كنت أريــد مســاعدها، أن أكــون صديقاً".
فسألته ببراءة الأولاد: "إذاً لَم لَمْ تستطع أن تكون فقط صديقها؟".
نظر إليه، وأجابني بحكمة الكبار: "عندما تكبر ستفهم أكثر، نحن لا نختــار من نحب، ومن يجعلنا سعداء".
لكنه لم يبدُ لي سعيداً. لم يبدُ لي كالعاشقين، على العكس بدا لي حزينــاً وتائهاً نوعاً ما.
عدت بدراجتي إلى المنزل، وأنا أشعر بالارتباك. كنا في بداية فصل الشتاء، وعند الساعة الثالثة كان النهار يبدأ بالأفول، ويذوب في الشفق الغابر.
كل شيء كان بارداً وكئيباً ويميل لليأس. مجموعتنا تمزقت إرباً. نيكي تعيش مع أمها في بورنماوث. ميكي صار عنده أصدقاؤه الجدد غير اللطفاء. ما زلــت أتسكع مع هوبو وغاف، لكن لم يعد الأمر كالسابق. مجموعة من ثلاثــة تــأتي بمشاكلها الخاصة. لطالما ظننت أن هوبو أفضل صديق لي، لكن في بعض الأحيان عندما كنت أذهب لمناداته، كنت أعرف أنه خرج مع غاف من دون أن يخبرني، وهذا ما كان يشعرني بالاستياء.
حتى أمي وأبــي تغيرا، فمنذ الاعتداء على ريفد مارتن، خف الاعتــراض على عمل أمي. وقد علق أبــي على الأمر بقول: "لقد قطع رأس الأفعى". لكن في الوقت الذي بدت فيه أمي أكثر راحة، بدا أبــي حاداً وأكثر تطرفاً. ربما هزه أمر التحقيق الذي أجرته معه الشرطة، وربما كان شيئاً آخر. صار كثير النســيان والحساسية. أحياناً كنت أجده جالساً على كرسيه يحدق إلى الفضاء، وكأنــه ينتظر شيئاً ما لا يعرف ما هو.
بدا شعور الانتظار هذا يخدر أندروبري كلها. كل شيء كان معلقاً بطريقة ما. فالشرطة لم تتهم أحداً بالاعتداء على ريفد مارتن. ربما كان الشك جزءاً من

الأمر: فالسؤال الذي طرح على الجميع تقريباً؛ هل تشك بأحد؟ أو هل تعــرف أحداً يمكنه الإقدام على هذا الفعل الشنيع؟

انكمشت الأوراق بعد أن جفت وفي النهاية سقطت، اجتاح شعور الموت كل شيء، لم يكن هناك أي شيء يشير إلى النضارة والألوان والبراءة، بدا وكأن البلدة بأكملها دخلت آلة تتحكم بالزمن.

بالطبع، وبينما كان الحديث بشأن قضية الكاهن ريفد يخفت شيئاً فشــيئاً. ظهرت اليد الشاحبة الملقاة على كومة الأوراق، وبدا أن الأسوأ قد أتى.

2016

في الصباح التالي استيقظت باكراً. أو بالأحرى، استسلمت للأرق بعد ساعات من التقلب والاستدارة، وتقطيع النوم بالأحلام التي ننسى نصفها.

في أحد هذه الأحلام رأيت السيد هالوران يجلس في إحدى سيارات الملاهي مع فتاة والتزر. لقد تأكدت أنها هي من ملابسها، بالرغم من أنها كانت من دون رأس. تجلس في حضن السيد هالوران وتصرخ كلما جاء العامل، الذي عرفت أنه شون كوبر، الذي كان يشغل اللعبة لتدور وتدور مجدداً.

"اصرخا إن كنتما تريدانها أن تسرع أكثر، يا وجه القذارة، قلت اصرخاااا!"

سحبت نفسي من السرير، مهزوزاً وغير مستقر. ثم ارتديت بعض الثياب ونزلت إلى الأسفل. أعتقد أن كلوي ما زالت نائمة، ولتمضية الوقت، حضرت بعض القهوة، وقرأت ودخنت سيجارتين خارج الباب الخلفي. ثم عندما تخطت الساعة التاسعة، أخذت هاتفي وطلبت هوبو.

أجابت والدته.

خاطبتها وسألتها: "مرحباً سيدة هوبكينز. هل ديفيد هنا؟"

سألتني: "من يتكلم؟"

بدا صوتها ضعيفاً ومرتجفاً.

إنه نقيض جلي مقارنة بصوت أمي المحكم الواضح. لقد أصيبت والدة هوبو بالزهايمر، مثل أبي. لكن أبي بدأ مرض الزهايمر عنده أبكر وتطور بشكل أسرع. لهذا السبب لا يزال هوبو يعيش في البيت الذي تربى فيه، لم يترك البيت قط.

أجبتها: "أنا إيد آدمز، سيدة هوبكينز".

سألت مستوضحة: "من؟".

كررت: "إيدي آدامز. صديق ديفيد".

أجابتني: "ديفيد ليس هنا".

سألتها: "هل تعرفين متى سيعود؟".

صمت طويل، ثم قالت من دون توقف: "لا شكراً، لا نريد الشراء، لـــدينا ما يكفينا".

وأنهت المكالمة. حدقت إلى سماعة الهاتف. أعلم أنني يجب أن لا آخذ جدياً ما تقوله غوين. فأبـــي لم يكن أفضل حالاً منها، وكان ينتقل من موضوع إلى آخر، ويستخلص نتائج لا علاقة لها بموضوع الحديث.

اتصلت بهاتف هوبو الشخصي. فتلقفني البريد الصوتي، هذا يحصل دائمـــاً. لو لم يكن يدير عملاً، لأقسمت أنه لا يشغله أبداً.

شربت ما بقي في كوب قهوتي الرابع ومشيت إلى الرواق. أنه يوم بـــارد بالنسبة إلى منتصف أغسطس والرياح نشطة. فتشت عن معطفي الطويل. عادة يكون معلقاً على مشجب المعاطف قرب الباب. لم أرتده منذ فتـــرة، بســـبب الطقس المعتدل. لكن، الآن عندما احتجته لم أجده هنا.

عبست، فأنا لا أحب وضع الأشياء في غير أماكنها. إنها بداية انحدار أبـــي، كلما أضيع مفاتيحي ينتابني توتر بسيط. أولاً، أخسر الأشياء، ثم أسماء الأشياء.

ما زلت أذكر أبـــي يحدق بسكون إلى الباب الأمامي ذات صباح، فمـــه يتحرك بصمت، وحاجباه مقطبان. ثم فجأة بدأ بالتصفيق بيديه كطفل، وابتسم وأشار إلى مقبض الباب.

وأخذ يقول: "مقبض الباب مقبض الباب"، استدار إليّ وقال "ظننت أنـــي نسيتها".

كان سعيداً جداً ومسروراً، ولم أستطع مناقضـــته وتصـــحيح الاســـم. فابتسمت. "رائع يا أبـــي، حقاً رائع".

بحثت مجدداً عن المعطف. ربما تركته فوق. لكن لا، لماذا أرتدي المعطـــف فوق؟ لكن صعدت ونظرت في غرفتي. خلف الكرسي، قرب السرير؟ لا. معلق على المشجب خلف الباب؟ لا. في الخزانة؟ مررت بالثياب على التعـــاليق.... ثم لمحت شيئاً متكتلاً في الزاوية، في الأسفل.

انحنيت وسحبته، إنه معطفي. نظرت إليه، مجعداً، مكوماً ورطباً بعض الشيء. حاولت تذكر آخر مرة رأيته. ليلة أتى ميكي. تذكرت تعليق سترته الرياضية الثمينة على المشجب قربه. لكن بعد ذلك؟ لا أتذكر أنني ارتديته.

أو ربما فعلت، ربما سحبته في ليلة أخرى، تنزهت في ليلة باردة رطبة خفيفة و... وماذا؟ دفعت بميكي إلى النهر؟ هراء. أظن أنني سأتذكر دفع صديقي القديم في النهر في منتصف الليل.

أحقًا يا إيد؟ لأنك لا تذكر نزولك إلى الأسفل ورسم رجال الطبشور على كل المدفأة، أليس كذلك؟ كان لديك كثير لتشربه. ليس لديك فكرة ما قد تكون فعلت أيضاً تلك الليلة.

أسكتّ ذلك الصوت الصغير الحقير. ليس لديّ سبب لأؤذي ميكي. كان يعطيني فرصة كبيرة. وإذا كان ميكي فعلاً يعرف من قتل فتاة والتزر - إن كان يستطيع تبرئة السيد هالوران - كنت سأسر بذلك، أليس كذلك؟

إذاً ماذا يفعل المعطف مكوماً أسفل خزانتك يا إيد؟

أعدت النظر إليه، مررت بأصابعي على الصوف الخشن. ثم لفتني شيء آخر، على طرف أحد الكمين، عدة بقع حمراء قاتمة. جفّ حلقي.

دم.

البلوغ لا يعدو كونه وهماً، فعندما نواجه أموراً جدية لست واثقاً أن أياً منا يمكن وصفه بالبالغ. في الحقيقة، كلنا نكبر جسدياً ونزداد طولاً، ولكن في بعض الأحيان لا أشعر بنفسي أنني شخص بالغ وأتفاجأ كيف يسمح لي بقيادة السيارة ودخول الحانة.

بينما كنت أعبر المنعطف شاهدت سيارة هوبو الكبيرة مركونة في الخارج. وشاهدت هوبو يترجل عن دراجته القديمة التي كان يعلق على مقبضي مقودها حزمتين من الحطب ويحمل على ظهره حقيبة من لحاء الأشجار، عندها لمعت في ذاكرتي أيام الصيف المشمس عندما كنا نعود من الغابة سوياً، حيث كان هوبو يجلب الحطب لأمه لتشعله في الموقد.

بالرغم من كل شيء، لم أستطع كبت بسمة صغيرة بينما كان ينزل رجله عن دراجته ويسندها على العتبة.

ما إن شاهدني حتى بادر بالسؤال: "إيد ماذا تفعل هنا؟".

أجبته: "حاولت الاتصال بك، لكن هاتفك كان مقفلاً".

تأوه وقال: "كنت في الغابة".

هذه ليست علامة جيدة.

أومأت وقلت: "العادات القديمة لا تتغير بسهولة".

ابتسم، وشرح لي: "قد تكون ذاكرة أمي تضمحل، لكنها لن تسامحني إذا أنفقنا مالاً لشراء حطب للموقد.

ثم بهتت الابتسامة، ربما عندما رأى وجهي.

سألني مستوضحاً: "ما الأمر؟".

حاولت الاستعلام إن كان يعرف شيئاً عن الحادث: "هل سمعت عن ميكي؟".

رد عليّ بسؤال: "ماذا فعل الآن؟".

فتحت فمي، تلعثمت ثم نطقت أكثر الجمل وضوحاً: "لقد مات".

ردد ورائي مصدوماً: "مات؟!".

مضحك أن يكرر الناس تلك الكلمة، مع أنهم يسمعونها جيداً. نوع من الرفض بالتأجيل.

بعد برهة سأل هوبو: "كيف؟ ماذا حصل؟".

أجبته باقتضاب: "غرق في النهر".

بدا متأسفاً عندما قال: "يا يسوع. كأخيه".

شرحت له واستأذنته بالدخول: "ليس بالضبط. انظر، هل أستطيع الدخول؟".

أكد لي قائلاً: "بالطبع".

ترك هوبو دراجته في الممر القصير، فتبعته. فتح الباب، ومشينا في رواق ضيق مظلم. لم أزر منزل هوبو منذ كنا نلعب في الحديقة الخلفية، لكننا لم نلعب

كثيراً هناك لأن الحديقة كانت صغيرة، في الحقيقة لم تكن حديقة بقدر ما هي فسحة ضيقة، وعادة ما كنا نجد فيها أكوام براز كلب، بعضه جديد وبعضه جاف وقديم.

كانت رائحة العرق تعبق بالمنزل بالإضافة إلى رائحة الأطعمة القديمة والمعقمات. على يميني، رأيت من باب غرفة الجلوس المفتوح الأريكة القديمة نفسها ذات الغطاء المطبع برسوم الورود وأوراق الأشجار، وكان هناك تلفاز يقبع عند زاوية الغرفة.

كانت والدة هوبو تجلس على كرسي عالي الظهر، بالقرب من الأريكة، شاردة بأحد البرامج اليومية. لطالما كانت غوين هوبكينز نحيفة لكن يبدو أن المرض والعمر قد جعلاها أكثر نحافة. تبدو غارقة في فستانها وسترتها الصوفية. معصماها متدليان من الكمين كشريحتين من اللحم الذابل المجفف.

سأل هوبو والدته: "أمي؟ إيد هنا. هل تذكرين إيدي آدامز؟".

"مرحبا سيدة هوبكنز" قلت، بصوت مرتفع قليلاً، ذاك الذي دائماً ما يكلم الناس به الكبار في العمر والمرضى.

ردت ببطء وعيناها لا تستطيعان التركيز، ربما يجد دماغها صعوبة في السيطرة عليهما. ثم ابتسمت، كاشفة عن طقم أسنانها السكري اللون. "أذكرك يا إيدي. كان عندك أخ، يدعى شون؟".

تدخل هوبو: "في الواقع يا أمي كان ذلك ميكي. شون شقيق ميكي".

عبست ثم ابتسمت مجدداً: "آه طبعاً ميكي. كيف حاله؟"

يقول هوبو بسرعة: "إنه بخير يا أمي، جيد جداً".

فعبرت عن سرورها لهذه الأخبار وقالت: "جيد، جيد، هل تستطيع إحضار الشاي ديفيد لو سمحت؟".

"طبعاً يا أمي" ألقى عليّ نظرة خاطفة. "سأذهب لوضع الإبريق على النار".

وقفت في الممر وابتسمت لغوين مربكاً. هناك رائحة خفيفة في الغرفة. لست أكيداً إن كانت المبولة قد أفرغت مؤخراً.

قالت غوين: "إنه فتى جيد".

أجبتها: "نعم".
عبست وسألتني: "من أنت؟".
أجبتها وحاولت أن أوضح لها: "إيد، إيدي صديق ديفيد".
فبدا عليها أنها تذكرتني: "آه نعم، أين ديفيد؟".
أخبرتها: إنه في المطبخ".
فسألت مستوضحة: "هل أنت أكيد؟ ظننت أنه ذهب لينزه الكلب".
رددت: "الكلب؟".
فشرحت لي: "مورفي، صحيح. لا، لا أظن أنه أخذ مورفي في نزهة".
وأومأت لي بيدها بارزة الشرايين، وأردفت: "أنت على حق، مورفي مات. أقصد بادي".

بادي هو الكلب الذي جلبه هوبو بعد مورفي ولكن بادي مات أيضاً.
تأوهت وقلت: "بالطبع".
أومأت لها وأومأت لي، بدونا كأننا في المقعد الخلفي في سيارة تسير عبر طريق وعرة كثيرة المطبات.
مالت باتجاهي على يد كرسيها وقالت: "أتذكرك، إيدي. أمك كانت طبيبة نسائية تقتل الأطفال".
علق نفسي في حلقي. تابعت غوين بالإيماء والابتسام، لكن بطريقة مختلفة، مع عضّة فظّة بطرف الشفة، ووضوح مفاجئ في العينين الزرقاوين الباهتتين.
اقتربت وقالت لي، وقد غمزتني: "لا تقلق، لن أخبرهم، أستطيع كتمان السر".
دخل هوبو وبيده كوب شاي وقال: "الشاي جاهز أمي". وسألني: "هل كل شيء على ما يرام؟".
نظرتُ إلى غوين، ولكن ما رأيته منذ قليل من صفاء في عينيها خفت، وبدت عيناها زائغتين.
قلت: "نعم، كنا ندردش".

"حسناً أمي، الشاي" وضع الكوب على الطاولة. "تذكري، إنـه حـار. انفخي عليه أولاً".

شكرته ونادته باسم غريب؛ كوردي.

رددت الاسم ونظرت إلى هوبو وبدا عليّ الاستغراب.

همس لي: "إنه اسم أبـي".

تأوهت.

أبـي لم يكن يخلط بين الناس. لكنه أحياناً كان يلجأ لمناداتي بقوله "بـني" وكأني لم أنتبه إلى أنه قد نسي اسمي ثانية.

اعتدلت غوين في جلستها، وعادت لمشاهدة التلفـاز مجـدداً، لا أدري إن كانت تشاهده أم كانت تحدق إليه، أظن أن الأمر دقيق للتمييز بـين الفعلـين، ولكن الأكيد أنها كانت في عالم غير عالمنا. لقد كانت لديّ دائمـاً فرضـية، استنبطتها من واقع المعاناة التي مرّ بها والدي والتي شاركناه إياهـا، وفرضـيتي كانت تقول ما من عقول تختفي عندما تصاب بالمرض، بل إنها تنتقل إلى مكان أفضل تمضي فيه الباقي من الأيام.

ابتسم هوبو وسألني: "لماذا لا نذهب إلى المطبخ؟".

أجبته موافقاً على اقتراحه: لماذا لا نذهب!".

لو أنه اقترح عليّ السباحة مع القرش لقبلت، فكل ما كنت أتوق إليـه في ذلك الوقت النجاة من مستنقع القذارة النتن والحار هذا، فلو مكثـت لدقيقـة أخرى لكنت أفرغت كل ما في معدتي وأضفت تشكيلة أخرى من الروائح إلى الموجودة أصلاً، وبينما كنت أتوجه إلى المطبخ صحبة هوبو تذكرت السـؤال الذي كنا نطرحه جميعاً عندما كنا صغاراً: ما دامت تعمل في التنظيف لماذا تبقي بيتها قذراً؟ ويبدو أن الجواب يكمن في أحد الأمثال العربية الشائعة *يبقى بـاب النجار مخلعاً، ويبقى حذاء الإسكافي مثقوباً*.

لم يكن المطبخ أفضل حالاً. فالصحون المتسخة مكدسة في الحوض، وكان هناك كثير من المغلفات، والمجلات القديمة، وحزم من علب العصـير والكـولا الفارغة تتكدس على سطح العمل. بدا واضحاً أن الطاولة قد نظفت على عجل،

لكني استطعت رؤية بقايا راديو قديم. لست رجلاً يحب الأعمال اليدوية، بينما كانت يدا هوبو بارعتين بالأشغال؛ يجمع الأشياء ثم يفككها قطعاً.

جلست على أحد الكراسي الخشبية القديمة. أصدر صريراً وتحرك قليلاً.

سألني هوبو: "شاي أم قهوة؟".

فكرت لبرهة قبل أن أقول: "قهوة، شكراً".

توجه هوبو إلى حيث وضع الإبريق، بدا الإبريق جديداً مقارنة بسائر الأشياء في المطبخ، وأحضر كوبين من خزانة الأواني.

صب بعض القهوة مباشرة من الإناء، واستدار باتجاهي.

وسألني مستوضحاً: "إذاً ما الذي حصل؟".

مرة أخرى، سردت أحداث الأيام الثلاثة الأخيرة. أنصت هوبو إليّ بصمت. لم تتغير تعابير وجهه حتى أنهيت الحديث.

عندها أخبرته بطريقة استفسارية: "يقول غاف إنك تلقيت رسالة أيضاً".

أومأ وأضاف ماء مغلياً إلى القهوة: "صحيح، تلقيت واحدة منذ نحو أسبوعين".

مشى إلى البراد وأخرج حليباً، شمه وأضاف منه قليلاً إلى الكوبين وأردف قائلاً: "في الواقع، لم أعرها كبير اهتمام فقد ظننتها دعابة سمجة".

جلب كوبي القهوة، ووضعهما على الطاولة أمامنا، وجلس قبالتي.

أخذت أشرح له: "بالرغم من ذلك تعتقد الشرطة أن موت ميكي مجرد حادثة عرضية، يقولون إنه قضاء وقدر، كنت متقبلاً للأمر في البدء، ولكن الأمر اختلف الآن".

فسألني: "وما الذي اختلف؟".

قلت: "وجدوا رسالة".

فقال: "هذا لا يعني شيئاً بالضرورة".

أبديت رفضاً لاستنتاجه: "بل يعني".

فسألني: "ماذا؟ أتعتقد أن أحدهم سيبدأ بحصادنا واحداً تلو الآخر، كما نقرأ في الروايات؟".

في الواقع، لم أكن قد فكرت بذلك، ولكن بعدما لفت نظري بدت الفكرة معقولة، وهذا ما جعلني أفكر بأمر ما. هل تلقت نيكي رسالة أيضاً؟

قال هوبو: "إنني أمزح، لقد قلت إنه كان ثملاً. وكانت الظلمة حالكة، ولم تكن هناك أضواء على طول ذلك الممر. لقد وقع فيه على الأرجح. الثملون يقعون في الأنهار طوال الوقت".

فكرت في ما توصل إليه ووجدت أنه محق، لكن دائماً هناك "لكن".

بدا عليه الترقب وسألني: "لكن ماذا، هل هناك شيء آخر؟".

أخبرته وكانت الكلمات تخرج من فمي ببطء: "عندما أتى ميكي تلك الليلة، كنا نتحدث، قال... عرف فعلاً من قتل إليزا".

ما إن أنهيت عبارتي حتى قال: "هراء".

نظرت إليه وتظاهرت بتمالك نفسي وسألته: "حسناً، هذا ما فكرت فيه أيضاً، لكن ماذا لو كان حقيقياً ما قاله؟".

ارتشف هوبو من قهوته، وحاول أن يحصل على زبدة الكلام بقوله: "تظن أن القاتل الحقيقي هو من تسبب بموت ميكي غرقاً؟". هززت رأسي وبدوت في حيرة من أمري قبل أن أقول باقتضاب: "لا أعرف".

حاول تفسير الأمر بقوله: "اسمع، لطالما كان ميكي ماهراً في خلط الأشياء. يبدو أنه يفعل ذلك حتى وهو ميت". وتوقف قليلاً. قبل أن يتابع قائلاً: "لا تنسَ أنك الوحيد الذي أخبرك بذلك، أليس كذلك؟".

أجبته: "أعتقد".

عندها طرح سؤالاً: "إذاً كيف سيعرف القاتل الحقيقي أنه كان يتتبعه؟".

أصغيت وقلت: "حسناً".

فأردف قائلاً: "إلا إذا كنت أنت". فحدقت إليه.

قاتم، بقع حمر، دم.

يبدو أن الدهشة والصدمة بدتا عليّ

فأسرع هوبو بالقول: "على رسلك، أنا أمزح".

قلته له: "أعرف، طبعاً".

ورشفت من قهوتي

بعد محادثات متفرقة، استأذنت، وغادرت عائداً إلى منزلي، بينما كنت في الطريق، أخذت كل إشارات التنبيه الحمراء تومض في رأسي، و لم يفارق خيالي صورة المعطف المبلل بالدم، فعقدت العزم على الاتصال بكلوي، فشيء ما في داخلي أشعرني بأن هناك أمراً تخفيه هذه الشقية الجميلة عني، وهذا ما كان عادة ليزعجني في الظروف العادية، ولكنه كان يقلقني في ظل الظروف التي كنا نمر بها بعد موت ميكي.

أجابت بعد الرنة الثالثة: "مرحبا".

أخبرتها بغباء قائلاً: "مرحبا هذا أنا".

فقالت "أعرف".

حاولت تبرير سبب اتصالي بها: "كنت أود التعبير لك عن أسفي لما حصل بالأمس، أقصد بشأن أمي".

فحاولت التخفيف عني بقولها: "لا بأس، إنها أمك، وهي في منزلك".

لم أجد من طريقة للاستمرار بالحديث سوى تغيير الموضوع: "حسناً، أنا آسف على كل حال. ماذا تحضرين للغداء؟".

فأخبرتني قائلة: "أنا لست في البيت بل في العمل".

تأوهت وقلت: "ظننت أن اليوم يوم عطلتك".

أجابتني: "أحدهم مريض، لذا اضطررت للحلول مكانه".

قلت: "حسناً".

قالت في محاولة لإنهاء المكالمة: "اسمع، اعتذارك مقبول، إيد. عليّ الذهاب. لقد أتى زبون".

قلت: "حسناً، أراك لاحقاً".

ردت عليّ بقول: "ربما"، وأنهت الاتصال. نظرت إلى الهاتف لبعض الوقت. كلوي لا تسهل الأمور مطلقاً. توقفت وأشعلت سيجارة، فكرت في شراء شطيرة. ثم غيّرت رأيي. قد تكون كلوي في عملها لكن لديها استراحة

للغداء. فقررت ألا أستسلم بهذه السهولة. استدرت وتوجهت إلى البلدة ثانية.

لم يسبق أن زرت كلوي في عملها. عليّ الاعتراف أني لم أكن أعرف أين يقع متجر روك أند غوث. فأنا لا أتسوق منه و لم أكن أقصده كي لا أحرجها وأحرج نفسي.

تجولت في البلدة، ماراً بين السياح والمتسوقين المسنين وفي النهاية وجدته، في شارع فرعي، يقع إلى جانب متجر بضاعة مستعملة. دفعت الباب وأنا أشعر أنني أبلغ من العمر عتياً.

ما إن دلفت حتى لاحظت أن الإضاءة خافتة والموسيقى صاخبة جداً، للصدق، لم أكن متأكداً من أن ما أسمعه منبعثاً من مكبرات الصوت كان موسيقى، لأنه وحسب تصوري -القديم- يجب أن تكون الموسيقى عذبة تبلسم الروح، أما ما كنت أسمعه فقد سبب لي ألماً في طبلتيّ أذنيّ.

وجدت بعض المراهقين النحفاء يتفحصون الثياب، لم أستطع الجزم إن كانوا زبائن أو بائعين. لكن ما أستطيع الجزم به أن كلوي لم تكن هناك، فعبست. كان هناك فتاة صغيرة قرمزية الشعر، عندما استدارت رأيت أن القميص الذي كانت ترتديه مغطى بعبارات من قبيل: "مثقوبة، محترقة، مشوهة".

توجهت إلى الصندوق. نظرت إليّ الفتاة المثقوبة وابتسمت.

"مرحباً كيف يمكنني مساعدتك؟".

أجبتها متلعثماً: "آآا في الواقع أنا أبحث عن أحد آخر".

فقالت متفاجئة: "يا للعار".

ضحكتُ بقليل من التوتر وقلت: "تدعى كلوي جاكسون".

عبستْ وسألتني لتتأكد مما قلته: "كلوي جاكسون؟".

أجبتها وأخذت أصفها لها: "نعم، نحيفة، شعرها أسود، وغالباً ما ترتدي ملابس سوداء".

تابعت التحديق إليّ، فعرفت أن هذا صفة مشتركة بين كل الموجودين هنا.

قالت: "عذراً، لم يعنِ لي الاسم شيئاً. هل أنت متأكد أنها تعمل هنا؟"

كنت كذلك لكني بدأت أشك.

ربما دخلت المكان الخاطئ

سألتها: "هل هناك مكان آخر كهذا في أندربوري؟"

فكرت.

أجابت بعدم يقين: "لا أظن".

قلت لها: "حسناً".

ربما رأت النظرة على وجهي، وأشفقت على الرجل المسكين المرتبك، قالت: "و لم يمضِ عليّ سوى أسبوعين في العمل هنا. دعني أسأل مارك. إنه المدير".

شكرتها، ولكنها لم تردْ. قالت كلوي إنها في العمل اليوم، وعلى حد علمي، كانت تأتي للعمل هنا في الأشهر التسعة الأخيرة.

انتظرت، محدقاً إلى صف من الساعات المرسوم عليها جماجم حمر غامزة ورف من بطاقات معايدة بتحيات مثل "تباً لأعياد الميلاد" و"عيد سعيد أيها الفرج".

بعد دقائق أتى شاب برأس حليق ولحية ضخمة بدت شعثاء كأغصان شجرة كبيرة

حياني وعرّف عن نفسه: "مرحباً، أنا مارك المدير".

بادلته التحية: "مرحباً".

سألني: "تبحث عن كلوي؟".

تنفست الصعداء، إنه يعرفها

أجبته: "نعم، ظننت أنها تعمل هنا".

فصحح لي المعلومة بقوله: "نعم، كانت تعمل هنا".

صدمت مما قاله وسألته: "حسناً، متى تركت العمل؟".

أجابني: "منذ شهر تقريباً".

"حسناً فهمت". مع أنني لم أفهم فعلاً. "ونحن بالتأكيد نتكلم عن نفس الكلوي؟".

فوصفها لي: "نحيفة، شعرها أسود، وعادة مجدول".

أكدت على الأوصاف بقولي: "صحيح".

نظر إليّ بحذر وسألني: "قلت إنها صديقة؟".

أجبته: "ظننتها كذلك".

فوضح الأمر لي: "لأكن صريحاً معك، وجب عليّ صرفها".

سألته: "لماذا؟".

شرح لي: "كانت فظة مع بعض الزبائن".

تبدو كلوي مجدداً.

أجبته: "أعتقد أن ذلك متوقع في هكذا متجر".

ابتسم: "إهمال وليس إهانات. على أي حال، بعدها حصل تلاسن بينها وبين امرأة في المتجر، فاضطررت للتدخل عندما شعرت بأن الأمر سينتهي بالعراك. بعد ذلك صرفتها".

قلت له: "فهمت".

تركت كل هذا ينهضم ببطء كالسالمونيلا، منتبهاً إلى أنهما ينظران إليّ.

قلت: "عذراً يبدو أن معلوماتي قديمة أو منقوصة". طريقة مهذبة للقول لقد كُذب عليّ، من قِبَل شخص ظننت أنني أعرفه. "أشكر مساعدتكما". مشيت إلى الباب، ولكنني ما لبثت أن استدرت. وسألته: "هل يمكنك أن تصف لي شكّل المرأة التي تشاجرت معها كلوي؟".

فأخذ يصفها: "نحيفة جذابة بالنسبة إلى امرأة في سنها، صهباء". صُدمت.

سألته: "صهباء؟".

أجابني: "نعم، أحمر ناري. في الواقع كانت مثيرة جداً".

فقلت له: "لا يفترض بي أن أتوقع أنك تعرف اسمها".

فقال: "كتبته. لم تكن تريدني أن أفعل، لكني اضطررت في حال أرادت التقدم بشكوى أو ما شابه".

قلت مجدداً: "لا أفترض أنك تحتفظ بالورقة؟ أعلم أنني أكثرت من الأسئلة، لكن... إنها فعلاً مهمة".

فاستغل الوضع وقال: "حسناً، أنا دائماً أحب مساعدة الزبـــون" عـــبس ومسد لحيته ونظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل. "أنت زبون ألست كذلك؟ لكني لا أرى كيساً...".

طبعاً لا شيء مجاناً. تنهدت، وعدت والتقطت أقرب قميص أسود مـــزين بالجماجم الغامزة. حملته إلى الفتاة المثقوبة.

قلت: "سآخذ هذا".

تبسمت، وفتحت درجاً وسحبت قطعة ورق مجعدة. وأعطـــتني إياهـــا. استطعت فهم خربشة العنكبوت تلك:

"نيكولا مارتن"

نيكي.

1986

"عليك أن تمتلك حلماً. إن لم يكن لديك حلم، كيف تحـول حلمـاً إلى حقيقة؟".

غريب، لطالما فكرت بتلك الأغنية عندما أفكر في اليوم الذي وجدتها فيه. أعرف الكثير من الأغاني القديمة، ربما لأنهم كانوا دائماً يشغلونها في المأوى عندما كنا نزور أبـي. الذي أدخلنا إليه أبـي بعدما استسلمت أمي وعجزت عـن الاعتناء به في المنزل.

بالرغم من كل الأمور المرعبة التي شاهدتها، لا يـزال انتكـاس والـدي وانحداره المروع في غياهب الزهايمر أسوأها. ذلك يطاردني كل يوم ويوقظني من النوم والعرق البارد يبلل ملابسي. هناك موت عنيف فجائي دموي، وهنالك ما هو أسوأ بكثير. في حال أتيحت لي فرصة الاختيار بينهما من المؤكد أنني أعرف ما سأختار من دون لحظة تفكير.

كنت في السابعة والعشرين عندما رأيت أبـي يموت. وكان عمري اثـنـي عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثمانية أيام عندما رأيت أول جثة.

بشكل غريب كنت أنتظر ذلك. منذ أن حصل الاعتداء على ريفد مارتن. وربما منذ حادث شون كوبر وأول رجل طبشور.

وأيضاً لأني رأيت حلماً.

كنت في الغابة، في عمق الغابة. عندما رأيت الأشجار تتحـول وترتفـع كالمردة القدماء المعزولين، تمدد أطرافها، تحدث صريراً وترتفع في السماء. فيظهر القمر شاحباً مظلماً من بين أصابعها المثنية المفتولة.

كنت أقف في فسحة خالية من الأشجار، وكان هناك كومة مـن الأوراق البنية المتعفنة. وكان هواء الليل الرطب يخترق جلدي ويصل إلى عظمي. كنـت أرتدي فقط البيجاما، وسترتي فقط، وأنتعل حذائي الرياضي، وأرتجف داخـل

الستيرة المغلقة السحاب. السحاب المعدني كان يلسعني برداً كلما لامس ذقني.
بشكل حقيقي، فعلاً حقيقي، بحيث لم أشك للحظة أنني أحلم.
كان هناك شيء آخر. رائحة مقرفة. اجتاحت أنفي وأطبقت على حلقي. ذات مرة كنا قد تعثرنا بجيفة تغطيها الديدان. كانت الرائحة شبيهة جداً برائحة الجيفة.
عرفت على الفور، كان قد مر على الحادث ثلاثة أشهر، وقت طويل تحت الأرض. وقت طويل على الاستلقاء في كفن قاس بينما الدود يتزحلق على اللحم الطري ويحفر.
استدرت، شون كوبر، أو ما تبقى منه، يبتسم لي. شفتاه مشققتان وتتفتتان حول جذور أسنان بيض طويلة بارزة من لثة سوداء متعفنة.
خاطبني قائلاً: "مرحباً يا وجه القذارة".
في المكان الذي كان يأوي سابقاً عينيه، وجدت محجرين أسودين. غير أنهما لم يكونا فارغين. فقد رأيت فيهما أشياء تتحرك. أشياء سوداء تلمع، تغزل بسرعة في لحم التجويف.
سألته: "ماذا أفعل هنا؟".
فرد عليّ بخبثه المعهود: "أنت قل لي يا وجه القذارة".
تجاهلت طريقته الخبيثة وأجبته بوداعة: "لا أعلم. لا أعلم لَم أنا هنا. لا أعلم لَم أنت هنا".
أجابني بصوت بدا لي قادماً من المجهول وقال: "هذا سهل يا وجه القذارة. أنا الموت تجربتك الأولى القريبة. يبدو أنني أخطر على بالك كثيراً".
خفت وأجبته بصوت مرتجف: "لا أريد التفكير بك. أريدك أن تبتعد عني".
أجابني بخبث: "لا تقلق يا وجه القذارة سيكون لديك هراء آخر لترى فيه الكوابيس عما قريب".
قلت مصدوماً خائفاً: "ماذا".
فابتسم ابتسامة صفراء وسألني: "ما رأيك؟".

نظرت حولي. جذوع الأشجار مغطاة بالرسوم. رجال طبشور بيض. كانوا يتحركون. يتنقلون ويملأون الجذوع، كأنهم يرقصون رقصة غريبة مروعة. كانت أطرافهم تضرب وتلوح. لم يكن لديهم وجوه، لكن بطريقة ما، عرفت أنهم يضحكون، وليس بطريقة جيدة.

شعرت بتقلص جلد وجهي، سألته: "من رسمها؟".

أجاب سؤالي بسؤال: "من تظن، يا وجه القذارة؟".

قلت: "لا أعرف".

"بلى تعرف، يا وجه القذارة. لكنك ما زلت لا تعرف بعد".

وغمز بطريقة بالرغم من أن لا عينين له ولا رموش، ثم رحل. ليس بسحابة غبار هذه المرة إنما بوقوع مفاجئ لأوراق الأشجار التي تساقطت على الأرض وبسرعة بدأت تلتف وتموت.

نظرت إلى الأعلى مجدداً. لم يعد لرجال الطبشور وجود، واختفت الغابة، ووجدت نفسي في غرفة نومي، مرتجفاً من الخوف والبرد، وكانت يداي تخزانني، فدفعت بهما إلى جيبيّ، وعندها لاحظت أن جيبيّ كانا مليئين بالطبشور.

لم يلتم شمل جماعتنا منذ العراك. لقد غادرت نيكي، وأصبح لدى ميكي أصدقاء جدد الآن، وعندما يراني غاف وهوبو يتجاهلانني. أحياناً نسمع جماعة ميكي تقهقه عندما نمر بهم ونسمع أحدهم يهمهم، "شاذون" أو "مدمنون" أو شيء آخر مهين.

ذلك الصباح، مشيت في الملعب، بالكاد عرفته، كان شعره أطول وأقل كثافة. كان يصبح شديد الشبه بأخيه إلى حدٍّ مخيف. حتى أنني كنت شبه واثق أنه يرتدي بعضاً من ثياب شون.

في الواقع، لبرهة ظننته شون جالساً على الدوار ينتظرني.

أنت، يا وجه القذارة، أتريد لعقه؟

هذه المرة كنت متأكداً – حسناً، شبه متأكد – أن هذا ليس حلماً. فقد كان الوقت نهاراً، ومن المعلوم أن الأشباح لا تظهر في وضح النهار، والزومبي

لا وجود لهم إلا في الأفلام والروايات. هم يظهرون فقط في وقت النوم بين منتصف الليل والفجر، ويتفتتون غباراً عند أول شعاع شمس. أو شيء كهذا، كما كنت أعتقد وأنا بعمر الثانية عشرة.

ابتسم ميكي، وكان فعلاً هو. مشى ببطء نحوي وهو يمضغ اللبان.

"أنت، إيدي مونستر. إذاً هل تلقيت الرسالة؟".

فعلاً. وهي مرسومة بالأزرق على طريق منزلي عندما نزلت. الرمز الذي كنا نستعمله عندما نريد الاجتماع في الملعب، وثلاث علامات تعجب. واحدة تعني طارئ جداً، اثنتان تعنيان أن عليك أن تأتي على الفور، ثلاثة تعني أن الأمر مسألة حياة أو موت.

سألته: "لماذا أردت أن نلتقي؟ ما الطارئ؟".

عبس وقال: "أنا؟ لم أترك الرسالة".

فقلت: "لقد تركت لي رسالة بالأزرق".

لوّى رأسه، "كلا، أنا تلقيت الرسالة من هوبو بالأخضر".

حدق كل منا إلى الآخر.

"قف عندك، الابن المبذر يعود!" يخطو غاف السمين إلى الملعب بسرعة.

"ماذا يعني".

سألته: "هل ترك لك أحد رسالة لتأتي إلى هنا؟"

أجابني: "نعم، أنت من تركتها".

كنا في منتصف الشرح عندما وصل هوبو. فسأله غاف السمين: "من طلب منك أن تأتي؟".

نظر هوبو إليه باستغراب: "أنت، ما الذي يجري؟"

قلت: أرادنا أحدهم هنا كلنا".

سأل هوبو: "لماذا؟".

تعرف وجه القذارة، لكنك ما زلت لا تعرف بعد.

أجبت على سؤاله محاولاً التفسير: "أظن أن أحداً سيتأذى، أو تأذى بالفعل".

شخر ميتال ميكي وقال: "دعك من ذلك".

نظرت في الأرجاء، رسالة أخرى؟ سيكون هناك واحدة، أنا متأكد. بدأت أبحث في الملعب والكل يراقبونني وكأني مجنون. ثم أشرت إلى تحت أراجيح الأطفال. رسم بالطبشور الأبيض. لكن هذه كانت مختلفة. هذه كان لها شعر وترتدي فستاناً. ليس رجل طبشور، إنها فتاة مرسومة قرب عدة أشجار بطبشور أبيض.

ما زلت أذكر تلك اللحظة بوضوح. هشاشة الطبشور الأبيض على الإسفلت. الصرير الخافت من أرجوحة الأطفال الصدئة وقرصة البرد من هواء الصباح الباكر.

سأل ميتال ميكي، وهو آتٍ: "ما هذا الهراء؟". لحق به هوبو وغاف السمين. وحدقوا كلهم إلى الرسم.

قلت: "لا بد من الذهاب إلى الغابة".

"لا يمكن أن تكون جدياً!" تعجب غاف السمين، لكنها صدرت منه ببعض الفتور.

قال ميتال ميكي: "لن أذهب إلى الغابة، فذلك سيستغرق وقتاً، ولأجل ماذا؟".

فما كان من هوبو إلا أن قال: "أنا أذهب" بالرغم من أنني عرفت أنه على الأرجح كان يقول ذلك ليغيظ ميكي، شعرت بالسرور لدعمه.

قال غاف السمين بعد أن دوّر عينيه وهز كتفيه "حسناً أنا معكما". وقف ميتال ميكي متمرداً على طرف، ويداه محشورتان في جيبيه.

نظرت إلى الآخرين وقلت: "هيا".

عدنا أدراجنا عبر الملعب وأخذنا دراجاتنا.

تقدم ميتال ميكي نحونا وقال: "انتظروا". وقد جحظت عيناه "يجب ألا تكون هذه مزحة لعينة".

قلت: "لا مزاح".

فأومأ.

تحركنا بدراجاتنا خارج الملعب. ألقيت نظرة خاطفة على الأراجيح خلفي. لست متأكداً أن أحدهم لاحظ ما لاحظته، كان هناك شيء مختلف في رسم الفتاة. كانت متقطعة. لم تكن خطوط جسمها مكتملة. اليدان، الرجلان، الرأس.. لم تكن موصولة.

بطريقة غريبة - تلك الطريقة التي، عندما يحصل أمر سيئ، ترغب فيها بقوة أن تضحك ولا تستطيع التوقف - كانت الرحلة إلى الغابة ذلك الصباح منعشة بشكل لم يسبق أن شعرنا به من قبل، لقد كانت ممتعة بشكل غير مسبوق.

في العادة، لم نكن نذهب إلى الغابة في الشتاء، ماعدا هوبو، كان يذهب بدراجته أحياناً لجمع الحطب. كانت الشمس ساطعة يومها والرياح المثلجة تلفح وجوهنا وتحرك شعورنا. أحسست بالانتعاش وبوخز في جلدي، ودوّست قدماي بأسرع ما يمكن. لم يكن هناك شيء قادر على إيقافنا. أردتْ رحلة الدراجات تلك أن تتابع وتتابع لكن طبعاً لن يحصل. بسرعة كبيرة بانت كتلة الغابة السوداء في الأفق.

سأل ميتال ميكي، وهو يلهث: "ماذا الآن؟". نزلنا عن دراجاتنا. نظرت إلى الأسفل، ثم حددتها.

مرسومة على سياج الخشب. رسم بالطبشور الأبيض يد واحدة وكانت إحدى أصابعها تشير إلى الأمام.

قال غاف السمين، بعد أن حمل دراجته "لنتابع التقدم ونتوغل أكثر". لمحت في عينيه نظرة تعبّر عما أشعر به، حذر عال، ونوع من الإثارة تقارب الهستيريا. لست متأكداً إن كان أي منهم يعرف بالضبط عمّا يفتش. أو ربما عرفوا لكنهم لم يريدوا البوح به.

كلهم أرادوا العثور على جثة، قد يكون الشيء الوحيد الذي يحب ابن الاثني عشر عاماً أن يجده هو مركبة فضائية، كنز مدفون أو مجلة إباحية. لكننا أردنا إيجاد شيء سيئ ذلك اليوم، وهذا ما كان، لكني لست واثقاً من أن أحدنا خمن مقدار سوء ما سنجده.

تقدمنا غاف السمين، وهذا ما أزعجني؛ كان من المفترض أن تكون هذه مغامرتي. لكن غاف السمين كان دائماً قائدنا، لذا، وبطريقة ما كان هذا الشيء مقبولاً بالنسبة إليّ. في العادة الجماعة يشد بعضها عضد بعض.

يبدو أننا ذهبنا بعيداً في الغابة قبل أن نجدها؛ يد ثانية على جذع شجرة.

قال غاف السمين وهو يلهث نوعاً ما: "في هذا الاتجاه".

قال ميتال ميكي: "نعم نستطيع رؤية ذلك".

تبادلت النظرات مع هوبو وابتسمنا.

قادنا الممر الوعر بعيداً إلى عمق الغابة. أحياناً، كان هناك دفع مفاجئ للضجيج ومجموعة من طيور الزرزور أو الغربان تفر عن الأشجار. سمعت مرة أو مرتين صوتاً صادراً من بين الأعشاب ربما كانت أرانب تهرب، كما لمحت مرة واحدة ثعلباً.

قال غاف السمين بطريقة آمرة: "قفوا". فتجمدنا في مكاننا فوراً.

أشار إلى شجرة أمامنا. على جذعها كان هناك رسمة فتاة وليس يد. تحتها كان هناك كومة أوراق. تبادلنا النظرات، كان هناك شيء منبثق منها.

قال غاف السمين: "اللعنة". أصابع!

كانت أظافرها قصيرة ونظيفة ومطلية باللون الزهري الفاتح. لم تكن مقطعة أو مكسرة. قالت الشرطة إنها لم تكن قد قاومت. كانت بشرتها أبهت مما كنت أذكر، وكانت تضع خاتماً فضياً رفيعاً ذي حجر أخضر في إصبعها الوسطى. عرفت، من أول لحظة رأيتها أن هذه ذراع فتاة والتزر.

انحنى هوبو أولاً. كان الأكثر حساسية.

وهمس ميتال ميكي: "يا للقرف".

طرف العظم المسنن كان أبيض. لاحظت العظم أكثر مما لاحظت الدم. كان قد تجمد واتخذ لوناً أقرب للون الصدأ وامتزج مع الأوراق التي كانت تغطي الذراع جزئياً. ذراع فقط، مقطوعة عند الكتف.

جلس غاف السمين فجأة وبثقل على الأرض.

تمتم: "إنها ذراع لعينة".

"رصد جيد يا شارلوك" قال ميتال ميكي. لكن حتى مزاحه بدا فيه رجفة.

نظر غاف السمين إليّ بأمل: "ربما تكون مزحة؟ لعلها ليست حقيقية؟".

فقلت له: "إنها حقيقية".

سألني: "ماذا يجب علينا أن نفعل؟".

اقترح هوبو: "نخبر الشرطة".

"نعم، نعم" تمتم غاف السمين. "أقصد ربما لا تزال على قيد الحياة".

قال ميتال ميكي: "ليست حية أيها الأبله السمين، إنها ميتة، تماماً كشون".

أجابه غاف: لا يمكننا الجزم بذلك".

أدليت بدلوي وقلت: في الحقيقة يمكننا الجزم". وأشرت إلى شجرة أخرى عليها إصبع طبشور أخرى. "هناك المزيد من الإرشادات... لبقية أجزاء الجثة".

قال هوبو مجدداً: "يجب أن نبلغ الشرطة".

قال ميتال ميكي: "إنه محق لنذهب".

تحركنا كلنا. ثم قال غاف السمين، "ألا يجب أن يبقى أحد... في حال...".

قال ميتال ميكي: "ماذا؟ أتخشى أن تقرر الذراع الهرب؟".

فقال غاف مبرراً: "بالطبع لن تهرب، ولكن ربما يجب أن نتأكد من أن شيئاً لن يحصل لها، ربما رغب أحدهم بالعبث بها".

تبادلنا النظرات، كان محقاً. يجب أن يبقى أحد للحراسة. لكن أحداً لم يقبل بالبقاء في الغابة الصامتة الخاوية مع ذراع مبتورة، يستمع لحفيف العشب، يقفز كلما رفرف طير بجناحيه، ويتساءل ويتعجب...

قلت: "أنا أبقى".

بعدما غادر الجميع وجلست بالقرب منها. اقتربت منها ولمست أصابعها. لأن هذا ما بدت أنها كانت تطلبه. بدت لي أنها تريد أن تمسكها يد أخرى. توقعت أن تكون يدها قاسية وباردة، لكنها عملياً كانت لا تزال طرية وشبه دافئة.

قلت: "أنا آسف، آسف جداً".

لا أعلم كم بقيت في الغابة. ربما ليس أكثر من نصف ساعة. عندما عادوا في النهاية، مع رجلي شرطة محليين، صارت رجلاي مخدرتين كلياً. لكني كنت قادراً على التأكيد للشرطة بأن أحداً لم يعبث بالذراع. "إنها لا تزال كما وجدناها". وكان ذلك صحيحاً تقريباً. مع فرق واحد بسيط، تمثل باختفاء خاتم كانت تحيط به إصبعها الوسطى والذي ترك مكانه حلقة أبهت لوناً من باقي اليد.

وجدوا أجزاء الجثة الباقية تحت كومات منفصلة من أوراق الأشجار في الغابة. لذلك استغرقوا فترة ليعرفوا من هي. طبعاً، أنا عرفت من قبل. لكن أحداً لم يسألني. سألوا أسئلة كثيرة أخرى. ماذا كنا نفعل في الغابة؟ كيف وجدنا الجثة؟ وعندما أخبرناهم عن رسوم الطبشور على الأشجار، كانوا مهتمين كثيراً بذلك، لكن عندما حاولت إخبارهم عن رسوم الطبشور الأخرى، الرسائل، لست متأكداً من أنهم التقطوها جيداً.

هذه هي مشكلة الكبار، فهم عادة لا يولون ما يقوله الصغار الاهتمام المطلوب، إنهم يسمعون فقط ما يريدون سماعه.

كل ما هم الشرطة أننا أولاد كنا نلعب في الغابة، ونتبع توجيهات مرسومة بالطبشور وتعثرنا بجثة، لكن الأمر لم يكن كما أرادوا أن يصوروه، بالرغم من أنه يحمل جزءاً من الحقيقة. أعتقد أنه هكذا تكبر الأساطير. الماضي القديم يُعاد تناقله، وتُحرف الأشياء وتُشوه حتى تصبح القصة الجديدة في النهاية ما يظن الجميع أنه حقيقة ما حصل.

كل من في المدرسة أراد أن يكلمنا، وهذا شيء طبيعي. كان هذا يشبه ما جرى بعد حادثة المعرض، لكن هذه المرة كان الناس أكثر اهتماماً، لأنها ماتت، وكانت مقطعة الأوصال.

اجتمع بنا الشرطي ليشرح لنا كيف نكون حذرين وألا نكلم الغرباء. طبعاً، كان هناك كثير من الغرباء في البلدة. أناس مع كاميرات وميكروفونات في الشارع أو حول الغابة. لم يسمح لنا بالعودة إلى هناك مجدداً، وسيجت الأشجار بشريط وقام رجال الشرطة بحراسة المكان.

استمتع غاف السمين وميتال ميكي بالحديث مضيفين إلى كلامهما تفاصيل وأحداث من بنات أفكارهما، بينما أنا وهوبو تركناهما يتحدثان، بدا الأمر ممتعاً، ولكني أحسست بالذنب فلم يكن من الصواب التكلم بمتعة عن فتاة قتلت وقطعت أوصالها، لم يبدُ الأمر عادلاً، أن تنجو من حادثة المعرض وتعالج ساقها التي كانت على وشك أن تبتر، ثم تقطع أوصالها بعد ذلك كان ذلك ما يمكن أن يصفه غاف السمين بكومة من رعاة البقر النتنين.

شعرت بالأسف على هالوران أيضاً. لقد بدا حزيناً جداً آخر مرة رأيته فيها، وكان ذلك عندما كانت فتاة والتزر على قيد الحياة وكانا ذاهبين للعيش معاً. الآن ماتت ولن تذهب إلى أي مكان، غير المكان المظلم البارد الذي سبقها إليه شون كوبر.

ذات مرة حاولت أن أخبر والديّ على العشاء.

قلت: "أشعر بالأسف على السيد هالوران".

سألني والدي: "السيد هالوران؟ لماذا؟".

وضحت له قائلاً: "لأنه حاول إنقاذها، والآن ماتت، وبذلك تكون جهوده قد ذهبت أدراج الرياح".

تنهدت أمي. "أنت والسيد هالوران كنتما بطلين يومها، لا تقل إن جهودكما ذهبت أدراج الرياح، وإن قال الناس ذلك".

سألتها: "ماذا يقول الناس؟".

تبادلت أمي وأبي نظرات الكبار، نوعاً من النظرات مفادها إنك صغير، ولا تستطيع فهم ما يقولونه.

قالت أمي: "إيدي، نعرف أنك تحب السيد هالوران كثيراً. لكن أحياناً لا نعرف الناس بقدر ما نظن. في الواقع، لم يكن السيد هالوران هنا منذ فترة طويلة. لا يعرفه أي منا على الإطلاق".

حدقت إليهما: "أيظن الناس أنه قاتلها؟".

قالت أمي: " لم نقل ذلك يا إيدي".

لم يكونا مضطرين لقول ذلك، فقد كنت في الثانية عشرة، ولم أكن غبياً.

شعرت بغصة وقلت: "لم يكن ليقتلها، إنه يحبها، كانا سيذهبان معاً، هــو من قال ذلك".

عبست أمي: "متى قال ذلك يا إيدي؟".

لقد حشرت نفسي في الزاوية: "عندما ذهبت لرؤيته".

سألتني أمي: "متى ذهبت لرؤيته؟"

هززت كتفي

أجبتها: "منذ أسبوعين".

سألتني مستوضحة: "في كوخه؟".

أجبتها: "نعم".

أفلت والدي السكين فجأة فأصدرت صوتاً: "إيدي، لا تذهب إلى هنــاك مجدداً، أتفهم؟".

لم يعجبني ما طلبه مني فقلت: "لكنه صديقي".

قال بطريقة آمرة: "منذ الآن لم يعد صديقك، إننا لا نعرف من هـــو، ولا يجدر بك رؤيته مجدداً".

سألته: "لماذا؟".

ردت عليّ أمي بشدة: "لأننا نقول لك ذلك".

لم يسبق لها أن كلمتني بهذه الطريقة، وهي التي لطالما قالت لا يمكنــك أن تقول شيئاً لولد وتتوقع أن يقبل به من دون أن تبرر له. ولكن لاحـــت علـــى وجهها تعابير لم يسبق لي أن رأيتها، حتى في أحلك الظروف. لقد بدت خائفة.

قالت لي: "عدني الآن".

نظرت إلى الأسفل وقلت لها: "أعدك".

عندها وضع أبـــي يده الثقيلة على كتفي وقال: "فتى جيد".

سألتهما: "هل أستطيع الذهاب إلى غرفتي؟".

"طبعاً".

تركت مقعدي وتوجهت إلى غرفتي، وبينما كنت أمشي صلّبت.

2016

انشغل تفكيري بأجوبة على أسئلة لم أطرحها، و لم تخطر ببالي من قبل. هل كانت كلوي كما بدت لي؟ هل كانت تكذب عليّ؟

كان عليّ أن أصرفها... كانت قد تشاجرت مع زبونة.. نيكي!! قمت بتفتيش دقيق لأدراج المطبخ، وراجعت قوائم الطلبات من المطاعم، وبطاقات الباعة، وإعلانات السوبرماركت، محاولاً جمع أفكاري المشتتة لإيجاد تفسير عقلاني.

أعني، ربما حصلت كلوي على عمل جديد و لم ترد إخباري وإزعاجي. ربما كانت محرجة كونها صُرفت، مع أن مثل هذه الأمور لا تسبب لي الإحراج. ربما كان الشجار مع نيكي صدفة بحتة. ربما لم تكن نيكي التي أعرفها (أو عرفتها). يمكن أن تكون هناك أخرى نحيلة، جذابة ناضجة بشعر أحمر ناري اسمها نيكولا مارتن. نعم صحيح. احتمال ممكن.

كدت أن أتصل بها عدة مرات قبل أن أبدل رأيي وأنتظر. فلا بد من الاتصال بشخص آخر أولاً، أغلقت الدُرج بشدة، وتوجهت إلى الأعلى، ليس إلى غرفتي إنما إلى غرفة المجموعات، تمعنت بالعلب المكدسة، صارفاً انتباهي عن بعضها مباشرة.

بعدما غادرت نيكي، أرسلت لنا جميعاً بطاقة بريدية ذكرت فيها عنوانها الجديد، وقد كاتبتها عدة مرات، ولكن لم ترد على رسائلي.

أخذت ثلاث علب من الرفوف العلوية، وبدأت البحث فيها، لم أجد ما أبغيه في العلبة الأولى ولا الثانية فشعرت بالخيبة. فتحت الثالثة، وتذكرت أنها أرسلت لي مرة واحدة وذلك عند وفاة والدي، وجدها و لم يكن مكتوب عليها سوى "آسفة. ن". وكان هناك رقم هاتف، ولكنني لم أتصل بها في ذلك الحين. كانت بطاقة مجعدة تحمل صورة من رصيف بورنماوث على

وجهها، انتزعتها وقلّبتها. أخذت هاتفي واتصلت.

رن كثيراً، دون جواب، ربما تبدّل الرقم. على الأرجح إنها غيرت هاتفها. هذا...

سمعت "ألو".

أجبت: "نيكي، أنا إيد".

قالت بنبرة مستفهمة: "إيد؟".

أجبتها: "إيدي آدامز".

قالت: "لا،لا.. أعرف من أنت. أنا فقط متفاجئة وهذا كل شيء. مرت فترة طويلة".

فعلاً. لكني ما زلت أستطيع أن أعرفها عندما تكذب. هي ليست متفاجئة، إنها قلقة.

أجبتها: "أعرف".

سألتني: "كيف حالك؟".

سؤال جيد، وأجوبة كثيرة رستْ على الأسهل.

أجبتها: "أصبحت جيداً. اسمعي، أعلم أن هذا خارج المألوف قليلاً، لكن هل نستطيع التكلم؟".

فردت مستغربة: "أظن هذا ما نقوم به الآن".

فسرت لها قائلاً: "أقصد وجهاً لوجه".

سألتني: "بخصوص ماذا؟".

أجبت بكلمة واحدة: "كلوي".

صمتت لمدة طويلة لدرجة أنني تساءلت إن كانت أقفلت الخط في وجهي. ثم قالت: "إنني أنهي عملي عند الثالثة".

يصل قطار بورنماوث عند الثالثة والنصف، أمضيت الرحلة أتظاهر أني أقرأ، وأحياناً أقلب صفحات هارلان كوبن الأخيرة. بعد توقف القطار، خرجت من المحطة، وانضممت إلى الحشد المتوجه نزولاً إلى الطريق البحرية. قطعت خط المشاة وتجولت في حدائق بورنماوث.

بالرغم من أن بورنماوث لا تبعد أكثر من عشرين ميلاً، إلا أنه لم يسبق لي أن زرتها. لست من هواة الكورنيش البحري. حتى عندما كنت صغيراً، كنت أخاف قليلاً من الموج المهاجم وأكره شعور الرمل الإسفنجي المبرغل بين أصابع قدمي، وقد تفاقم هذا الشعور، عندما رأيت أحدهم يطمر نصف شطيرة في الرمل، ومنذ ذلك الحين، رفضت أن أدوس رمال الشاطئ مجدداً عاري القدمين.

لم يكن هذا اليوم أدفأ آخر أيام الصيف، وكان الناس يتجولون في الحدائق ويلعبون لعبة كرايزي غولف (لعبة أحببتها في طفولتي).

وصلت المنتزه، وطفت حول الموقع الفارغ حالياً، حيث سينما إيماكس الضخمة التي تبدو لي أثراً بعد عين بفعل سنوات من الإهمال، مشيت بالقرب من رصيف محلات التسلية، وتوجهت يميناً نحو مقاهي الواجهة البحرية.

جلست خارج أحدها، أحتسي كابوتشينو فاتراً. لم يكن هناك رواد، فعدا طاولتي لم يكن هناك سوى طاولة مشغولة كان يجلس إليها رجل مجدول الشعر وامرأة بشعر قصير. أشعرني منظرهما بشعورين مختلفين؛ أولهما أنني كبير في السن وثانيهما أنني لا أزال رجلاً سوياً.

فتحت كتابي، ولكنني لم أستطع التركيز فيه، نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الرابعة والربع. تناولت سيجارة أخرى من العلبة – الثالثة في نصف ساعة – وانحنيت لأشعلها. وعندما نظرت إلى الأعلى، كانت نيكي تقف أمامي.

"عادة مقرفة". سحبتْ كرسياً وجلست. وسألتني "ألديك واحدة احتياطية؟".

دفعت بالعلبة والولاعة عبر الطاولة، ممتناً أن يدي لم ترتجف. سحبت سيجارة وأشعلتها، فأعطتني فرصة لأتأملها. بدت أكبر سناً بجلاء، فقد رسمت السنون خطوطاً على جبهتها وعند زوايا عينيها. الشعر الأحمر بدا أملس من السابق وموشحاً بالأشقر. لا زالت نحيفة، ترتدي الجينز وقميصاً مربعاً. وأسفل الماكياج الخفيف لاح النمش، ولاحت الفتاة التي أعرفها خلاف المرأة التي ألتقيها.

نظرتْ إلى الأعلى وقالت: "نعم، كبرت. وأنت أيضاً".

فجأة أصبحت حذراً! كيف يجب أن أنظر إليها. فقد كنت رجلاً نحيفاً أشعث بسترة بالية، أرتدي قميصاً مجعداً وربطة عنق نصف معقودة وأضع نظارة لأقرأ. أنا مذهول كيف عرفتني.

قلت: "شكراً، يسرني أننا أبعدنا المجاملات عن الطريق".

حدقت إليّ بعينيها الخضراوين الزاهيتين: "أتعرف ما الشيء الغريب؟".

أجوبة كثيرة. "ما هو".

قالت: "لم أتفاجأ عندما اتصلت. في الواقع، كنت أتوقع ذلك".

أخبرتها بصدق: "لم أكن متأكداً أنني أمتلك الرقم".

دنا منا نادل أسود الثياب، لحيته بالكاد تبدو نامية بالنسبة إلى سنه.

طلبت نيكي: "اسبريسو دوبل".

انحنى قليلاً ليسمعها ثم غادر بهدوء.

قالت لي: "إذاً؟ من سيبدأ؟"

عرفت أن لا فكرة لديّ من أين أبدأ. نظرت إلى قهوتي لأستلهم، لا شيء آتٍ. فقررت أن أذهب تجاه الواضح. "إذن بقيت في بورنماوث".

ردت: "نقلت عملي بعيداً، ثم عدت".

سألتها: "حسناً، ماذا تعملين؟".

أجابتني: "لا شيء ممتع. فقط أعمال مكتبية".

علقت قائلاً: "عظيم".

فقالت: "ليس حقاً. إنه فعلاً ممل للغاية".

تأوهت

سألتني بدورها: "وأنت؟".

أجبتها: "أعمل بالتدريس. أنا مدرس الآن".

استوضحت: "في أندروبري؟"

أجبتها: "نعم".

علقت قائلة: "هذا جيد لك".

عاد النادل بالاسبرسو التي طلبتها، شكرته، رشفت أنا من الكابوتشينو. التحركات بدت متعمدة ومبالغة.. كلانا يماطل.

سألتها: "كيف حال أمك؟".

أجابتني: "لقد ماتت بسرطان الثدي، منذ خمس سنوات".

أبديت تعاطفي قائلاً: "آسف لذلك".

"لا داعي، لم نتفاهم جيداً. تركتُ المنزل عندما أصبحت في الثامنة عشرة. لم أرها منذ ذلك الحين".

حدقت إليها، لطالما ظننت أن حياة نيكي ستؤول إلى السعادة، بالابتعاد عن أبيها، وعودة أمها. يبدو أن النهايات السعيدة لا توجد في الحياة بل في القصص والروايات فقط.

نفخت الدخان وسألتني: "أمازلت ترى الآخرين؟".

أومأت: "نعم، هوبو سمكري الآن. غاف تسلم *ذا بول*". ترددت. "هل عرفت بما حل بغاف؟"

قالت: "سمعت عنه".

سألتها: "كيف؟".

أجابت: "كانت روث تكتب لي. هكذا عرفت عن أبيك".

روث؟ تحركت ذاكرة بعيدة، ثم وجدتها. صديقة ريفد مارتن المجعدة الشعرة. المرأة عهد إليها أمر الاعتناء بنيكي بعد الاعتداء على ريفد.

"لكنها بقيت تزور أبي" تابعتْ "بعد فترة، توقفت عن قراءة رسائلها. ثم غيرت عنواني و لم أعطها إياه".

رشفت قهوتها وقالت: "أتعلم أنها لا تزال على قيد الحياة؟".

"أعلم".

أومأت: "آه نعم، أمك. السامرية الطيبة. متهكمة، لا؟".

ابتسمت وسألتها: "ألم تزوريه ولو مرة واحدة؟".

أجابتني: "لا. سأزوره عندما يموت".

سألتها مجدداً "ألم تفكري في الانتقال إلى أندروبري؟".

فأجابت: "لي فيها كثير من الذكريات السيئة. و لم أكن حتى في أسوئها".

لا، أظن أنها لم تكن. لكنها كانت لا تزال جزءاً منها. مالت إلى الأمـــام لتطفئ سيجارتها.

بدت جدية عندما قالت: "هل ندخل في صلب الموضوع؟ لماذا تسأل عـــن كلوي؟".

سألتها "ما علاقتك بها؟".

درست الوضع لبرهة، ثم قالت "أنت أولاً".

أجبتها: "إنها المستأجرة عندي".

جحظت عيناها وقالت: "اللعنة".

فقلت: "بداية مطمئنة".

أبدت أسفها قائلة: "أعتذر، لكن... حسناً كان فقط -" لوت برأسها "لا أصدق أنها قد تفعل ذلك".

أمعنت النظر إليها محتاراً وسألتها: "تفعل ماذا؟".

مدت يدها، وأخذت سيجارة أخرى من العلبة دون أن تطلب. تراجع كم القميص، وكشف وشماً على معصمها. أجنحة ملاك. لاحظت أنني انتبهت.

علقت: "إنها تحية لذكرى أبـــي".

قلت لها حينها: "لكنه لا يزال حياً".

غيرت نيكي الموضوع وقالت: "لم أعرف كلوي إلا منذ سنة تقريباً، وذلك عندما وجدتني".

استوضحتها: "وجدتك؟ من هي؟".

أجابت: "أختي، أتذكر هانا توماس؟".

تطلب الأمر برهة ثم خطرت على البال. صديقة فتـــاة والتـــزر الشـــقراء المعارضة، ابنة الشرطي، وطبعاً...

قلت: "الفتاة التي اغتصبها شون كوبر، وحملت".

قالت: "لم يكن شون من اغتصبها، و لم يكن والد الطفل".

نظرت إليها بحيرة وسألتها: "من اغتصبها إذاً".

نظرت إليّ كأنني أحمق. "هيا يا إيد. فكّر بالأمر".

فكّرت، وفجأة لمعت الحقيقة في ذهني: "أبوك؟ هل حملت من أبيك؟".

"لا تبدُ منصعقاً هكذا. هؤلاء المعارضون كانوا بمثابة حريم أبـي الصغار. مشجعات. كن يعبدنه. وأبـي، حسناً، فلنقل إنه كان ضعيفاً تجاههن".

حاولت أن أفهم ما تقوله: "ولكن لماذا كذبت واتهمت شون كوبر؟".

أجابت: "لأن أبـي طلب منها ذلك، فأبوها لن يقتل فتى ميت".

سألتها: "كيف اكتشفت ذلك؟".

أجابتني: "سمعتهما يتجادلان بالأمر ذات ليلة، وقد ظنا أنني نائمة. تماماً كما كانا يظنان أنني نائمة عندما كانا يمارسان الحب".

فكّرت بالمساء الذي رأيت فيه هانا توماس في غرفة المعيشة مع أمي.

فقلت لها: "لقد أتت وقتها لرؤية أمي، وكانت مضطربة فعلاً، وعملتْ أمي على تهدئتها".

ابتسمتْ ببساطة: "مضحك كيف تطير المبادئ من النافذة عندما يتعلق الأمر بطفل لا ترغب به، وعندما تمس المبادئ حياتك الخاصة. في الواقع، هي أرادت إبقاء الطفل، بينما أراد أبـي الكاهن التخلص منه".

حدقتُ إليها مشككاً وسألتها: "أرادها أن تجهض؟ بعد كل ما فعل؟".

رفعت نيكي حاجباً وقالت: "مضحك كيف أن معتقداتك الإلهية تطير من النافذة عندما تكون سمعتك على المحك".

أومأت: "الوغد".

ازدحم رأسي بالأفكار مجدداً محاولاً التفكير في كل هذا.

سألتها: "إذاً هل كان الطفل معها؟ فانا لم أعد أذكر تفاصيل الأمر".

أجابتني: "لقد رحلت مع عائلتها، عندما نُقل والدها إلى مركز آخر".

وريفد مارتن أُعتدي عليه، فمن المؤكد أنه لم يكن يستطيع التواصل.

أطفأت نيكي السيجارة في المنفضة التي دون عليها تحذير من مضار التدخين.

قالت: "بعد مرور نحو ثلاثة عقود ظهرت كلوي عند عتبة منزلي. ما زلت

أجهل كيف عرفت مكاني. قالت إنها ابنة هانا، وأنها أختي غير الشقيقة. في البدء لم أصدقها، وطلبت منها الابتعاد عني، لكنها أعطتني رقم هاتفها. لم أنوِ الاتصال به، وأعتقد أنني كنت فضولية... التقينا على العشاء، وأحضرت معها صوراً، وأخبرتني بأشياء أقنعتني أنها أختي غير الشقيقة، ووجدت نفسي قد أحببتها، ربما ذكرتني بنفسي عندما كنت أصغر سناً".

ربما لهذا أنا أحببتها أيضاً.

"قالت لي إن أمها قد ماتت بالسرطان، وأن علاقتها بزوج أمها لم تكن جيدة، ومرة أخرى تعاطفت معها. التقينا عدة مرات. ثم في يوم ما، قالت إنه يتوجب عليها ترك شقتها، ولكنها لم تجد مكاناً آخر. فأخبرتها أنها تستطيع البقاء عندي لبعض الوقت إن كان هذا يساعدها".

سألتها متشوقاً: "وبعدها ما الذي حصل؟".

أجابتني: "لا شيء، في ثلاثة أشهر كانت مستأجرة رائعة - تقريباً مثالية جداً".

سألتها مجدداً في محاولة مني لحثها على الحديث: "ثم؟".

أجابت: "ذات مساء عدت إلى البيت، و لم تكن في المنزل، وكان باب غرفتها نصف مغلق... وكان جهاز اللابتوب مفتوحاً على مكتبها، تسللت إلى غرفتها.. إلى غرفتي و... لا أدري، كنت فقط..."

سألتها: "تنتهكين خصوصيتها؟".

أجابتني مبررة: "حسناً. أنا مسرورة أنني فعلت. وجدت أنها كانت تكتب عني، عن رجال الطبشور، عنا جميعاً. وكأنها تقوم ببحث ما".

سألتها مصدوماً: "لماذا؟".

أجابت باقتضاب: "لا أعلم".

سألتها: "هل فسرت لك سبب قيامها بذلك".

أجابت: "لم أتح لها الفرصة، أكدت عليها ضرورة حزم أغراضها تلك الليلة، وأخبرتني أنها كانت تخطط للانتقال، وأنها وجدت عملاً جديداً في أندروبري".

أخرجت سيجارة ثانية، وارتشفت من القهــوة. لاحظـــت أن يـــديها ترتجفان.

سألتها: "منذ متى كان هذا؟".

أجابتني: "منذ تسعة أو عشرة أشهر تقريباً".

في الوقت الذي داست فيه عتبتي تقريباً.

هبت الرياح على طول الكورنيش، فشعرت بالقشـــعريرة ورفعـــت قبـــة سترتي.

سألتها: "إن لم تكوني قد رأيتها لأشهر، فلماذا تشاجرت معها في المتجر؟".

بدت متفاجئة وسألتني: "أتعرف عن المشاجرة؟".

أجبتها: "لولا المشاجرة لما علمت أنها تعرفك".

عبست وسألتني: "كيف عرفتِ أين كانت تعمل؟".

أجبتها: "ليس هناك أماكن كثيرة في أندروبري قد توظف كلوي".

فأكدت على صحة ما أقول: "صحيح" وأردفت قائلة: "ذهبت لأراها لأنني تلقيت رسالة..." تداعى قلبـــي.

سألتها: "رجل المشنقة والطبشور؟".

حدقت إليّ. وسألتني: "كيف عرفت؟".

أجبتها: "لأنني تلقيت واحدة وكذلك غاف وهوبو... وميكي".

عبست.

سألت: "هل تلقى كل واحد من مجموعتنا الرسالة نفسها؟".

سألتها: "أتظنين أنها هي من أرسلت الرسائل؟".

أجابت حاسمة الأمر بقولها: "طبعاً".

سألتها: "حسناً، هل أقرت بذلك؟".

أجابت: "لا، لكن من يكون غيرها؟".

كان هناك وقفة. فكّرت بكلوي التي أعرفها؛ الوقحة المرحة المشرقة الـــتي تعودت عليها أكثر ممن كانوا حولي. هذا كله ليس منطقياً.

قلت: "لا أدري، لكن أفضل ألا أقفز إلى أي استنتاج".

هزت كتفها: "جيد، هذا شأنك".

انتظرت حتى ترشف قهوتها ثم سألتها بلطف أكبر: "هل سمعتِ عن ميكي؟".

سألتني: "ماذا تقصد؟".

إيد آدامز جالب المرح والأخبار السعيدة!

أجبتها: "لقد مات".

ذعرت وسألتني: "يا يسوع. كيف؟".

قلت لها: "سقط في النهر، وغرق".

حدقت إليّ وسألتني: "في نهر أندروبري؟".

أجبتها: "نعم".

سألتني: "ماذا كان يفعل في أندروبري؟".

أجبتها شارحاً: "أتى ليراني. كان يفكر بكتابة كتاب عن رجال الطبشور، وطلب مساعدتي. كان لدينا متسع من الوقت لنشرب شيئاً، وأصر على العودة مشياً إلى الفندق... لكنه لم ينجح بذلك".

"اللعنة".

"نعم".

"لكن موته كان قضاء وقدراً؟".

"اسمعي، سيبدو هذا ضرباً من الجنون! لكن ميكي قبل أن يغادر قال لي إنه يعرف قاتل إليزا الحقيقي".

شهقت وسألتني: "وصدقته؟".

أجبتها: "يجب أن أصدقه، ماذا لو كان يقول الحقيقة؟".

أجابت: "حسناً، ستكون بداية".

قلت: "لكن ماذا لو كان صادقاً، ربما لم يكن موته قضاءً وقدراً".

فأجابتني متسائلة: "ما الفائدة الآن؟".

للحظة تراجعت للخلف. أتساءل إن كانت دائماً صلبة هكذا.

قلت لها: "أنتِ لا تقصدين ما فهمته، صحيح".

ردت: "بلى أقصد، أمضى ميكي حياته يصنع الأعداء. لم يكن صديقاً لأحد. أنت كنت صديقه مرة".

دفعت كرسيها إلى الخلف وقالت: "خذ بنصيحتي؛ اذهب إلى المنزل، أطرد كلوي و... تابع حياتك".

يجب أن أستمع لها، يجب أن أدعها ترحل، يجب أن أنهي ما أشرب وآخذ القطار. لكن بعدها ستكون حياتي حطاماً طويلاً من عبارات "كان يجب أن"، يرتطم بعضها ببعض في فوضى متشابكة من الندم.

قلت: "نيكي انتظري".

استدارت وسألتني: "ماذا تريد؟".

سألتها: "ماذا عن أبيك؟ ألا تعرفين من الفاعل؟".

أجابتني متبرمة: "إيدي، فقط دع هذا الأمر".

سألتها: "لماذا؟".

أجابت: "لأنني أعرف من الفاعل".

للمرة الثانية، خُدعت: "تعرفين؟ كيف؟".

أجابتني: "لأنها قالت؟".

تأخر قطار العودة إلى أندروبري. حاولت التأخر عليه ولكنني لم أوفق. عدوت لألحق حشد الركاب لاعناً قراري أن آخذ القطار بدل القيادة (وأن أشرب قنينة شراب بدل أن ألحق قطاراً في وقت أبكر). كنت أنظر بسخط إلى لوحة الانطلاق؛ مؤجل. كادت تظهر كأنها تخاطبني: "هل أنت مصر على تضيع وقتك يا إيدي".

وصلت بعد التاسعة، أشعر بالحر، وإحدى رجليّ مخدرة، لأني حشرت بالقرب من النافذة بسبب رجل كأنه كان يلعب الركبي مع نادي التايتنز.

بعد أن أقلني الباص عائداً من المحطة، ومشيت إلى المنزل، كان التعب والانفعال قد نالا مني وذهب تأثير الشراب. دفعت البوابة واجتزت ممر البيت. المنزل مظلم؛ لا بد أن كلوي قد خرجت. ربما كان هذا أفضل، فلم أكن متأكداً من أنني جاهز للنقاش.

كانت أول وخزة تنبيه عندما وصلت الباب الأمامي ووجدته مفتوحاً. يمكن لكلوي أن تتصرف بقلة احترام، لكنها لم تكن في العادة عديمة المسؤولية أو كثيرة النسيان.

أصبحت أحوم لبرهة حول عتبتي كبائع جوال غير مرحب به، ثم فتحت الباب.

قلت متسائلاً: "مرحباً؟".

الرد الوحيد كان سكون المنزل وهمهمة ضعيفة من المطبخ. أضأت الرواق ووقفت هناك ممسكاً بمفاتيحي

قلت: "كلوي".

مشيت إلى المطبخ، أضأت النور، ونظرت حولي. لم يكن الباب الخلفي مغلقاً، وشعرت بتيار من الهواء البارد. تناثرت بقايا تحضير العشاء على أسطح العمل: بيتزا على الطرف، بعض السلطة في الوعاء، كوب شراب نصف مشروب على الطاولة. وصوت الهمهمة الذي أسمعه كان مصدره الفرن.

انحنيت وأطفأته. فعم السكون فوراً. الصوت الوحيد الذي بت أسمعه هو النبض في أذني.

قلت مجدداً: "كلوي".

تقدمت، فتزحلقت قدمي. نظرت إلى الأسفل فانقبض قلبي، وزاد الهدير في أذني؛ أحمر، أحمر قاتم، دم. مسار رفيع منه يقود إلى الباب الخلفي. تقدمت، وقلبي لا يزال يقفز في صدري كلاعب سيرك. عند الباب الخلفي، ترددت. إنه مظلم. أعدت النظر إلى خطواتي، وأحضرت مصباحاً من الدرج وخرجت.

سألت بصوت مرتفع مع أنني كنت حذراً: "كلوي؟ هل أنتِ هنا؟".

مشيت بحذر ناحية الباب الخلفي، وقرّبت المصباح. كانت هناك آثار أقدام باتجاه الحديقة.

لحقت بالأثر، الحشائش والقراص تعلق في ثيابي. أضاء المصباح على شيء ما على العشب. شيء أحمر وزهري وبني. انحنيت وانقلبت معدتي كلاعب جمباز روسي.

"اللعنة".

جرذ! جرذ مفرغ. معدته مفتوحة وأحشاؤه خارجة ككتلة من السجق النيء الصغير.

شيء يخشخش على يميني، قفزت واستدرت. طوقان يلمعان بين الأعشاب الطويلة. ميتنز يتسلل إلى الأمام.

تعثرت إلى الخلف، وصرخة قابعة في حلقي. "اللعنة". ميتنز ينظر إليّ بسرور - "أخفتك كثيراً يا إيد الصغير؟" - ثم تسلل بلا مبالاة إلى الأمام والتقط بقايا الجرذ بأسنانه الحادة البيضاء، وجره إلى الظلمة.

تركت نفسي أنفجر بنوبة من الضحك الهستيري "اللعنة".

جرذ، أكان هذا دم جرذ لعين؟ ملعون هذا الهر. شعرت بالراحة. ولكن همساً في أذني كان يقول: "لكن الهر والجرذ لا يفسران لماذا كان الباب الخلفي مفتوحاً، أليس كذلك يا إيدي؟ وما قصة بقايا العشاء؟".

عدت إلى المنزل.

"كلوي". ناديتها

صعدت إلى الأعلى راكضاً، وقفت أمام باب غرفتها، طرقته مرة وفتحته، كان شيء في داخلي يأمل أن أرى رأساً أشعث يطلق النار من سريرها. لكن سريرها كان فارغاً، والغرفة فارغة، بتهور. فتحت خزانتها، التعليقات فارغة. سحبت دروج صندوقها، فارغة.. فارغة.. فارغة.

لقد غادرت.

1986

اعتقدت أن الوقت سيمر قبل أن تسنح لي الفرصة للهرب. وعندما أتت، كان عليّ الانتظار لعدة أيام حتى عطلة نهاية الأسبوع.

تلقت أمي اتصالاً، وكان عليها الإسراع إلى العيادة. وكان من المفترض أن أكون في رعاية أبي، لكن كان لديه موعد. قرأت الملاحظة التي تركتها له أمي: "حضر الإفطار لإيدي؛ حبوب أو توست. رقائق البطاطا والشوكولا ممنوعة! مع حبي، ماريان".

لا أعتقد أن أبي قرأها، فقد بدا مشوشاً أكثر من أي وقت مضى. عندما ذهبت إلى خزانة المطبخ وجدت أنه وضع الحليب على رف داخلي والقهوة في الثلاجة. هززت رأسي، وأحضرت صحناً، ملأته بحلوى الأرز المقرمش وكمية من الحليب، ووضعت ملعقة فيه، ومن ثم تركتها على طاولة الطعام.

أحضرت كيساً من رقائق البطاطا وأكلته بسرعة في غرفة الجلوس، وأنا أشاهد برنامج ساترداي سوبرستور، ثم عدت إلى غرفتي. سحبت الدرج، وأخرجت صندوق أحذية وأبقيته خارجاً.

كان الخاتم داخل الحذاء، كان متسخاً ولم أرغب بتنظيفه. لن يعود لها بعد ذلك؛ لن يكون مميزاً. هذا كان مهماً. إذا أردتَ التمسك بشيء، فعليك التمسك بكل أجزائه، وتذكر زمانه ومكانه.

لكن أحداً آخر كان بحاجة إليه أكثر، أحداً ما أحبها، لا يملك أي شيء يذكّره بها. أقصد، كانت لديه اللوحات، لكنها لم تكن جزءاً منها، فهي لم تلامس بشرتها.

لففت الخاتم بورق الحمام، ووضعته بحذر داخل جيبي. لا أعتقد أنني كنت أعلم ما كنت قد خططت لفعله في ذلك الوقت. تخيلت بأني سأذهب إلى السيد هالوران، وأخبره بمقدار أسفي، وأعطيه الخاتم، وسيكون ممتناً جداً، وبهذا

أكون قد رددت له جميل كل الأعمال التي قام بها من أجلي. أعتقد أن هذا ما أردته.

سمعت ضجة في الغرفة المجاورة، صوت سعال، وصوت كرسي والدي، وجلجلة وطنين الطابعة. أغلقت الدرج، وتسللت على الدرج. حملت معطفي السميك ووشاحي، وفي حال نزل والدي وكان قلقاً، كتبت له على عجل ملاحظة سريعة: "ذهبت إلى منزل هوبو. لم أرد إزعاجك. إيدي".

لم أكن طفلاً عاقاً، لكني كنت عنيداً، وعدائياً في بعض الأحيان. حالما تخطر ببالي فكرة، لا أتردد في تنفيذها. لا أستطيع القول إنني فزعت للحظة، عندما كنت أقود دراجتي خارج المرأب نحو الطريق إلى كوخ السيد هالوران. في ذلك الوقت، لم يكن يفترض بالسيد هالوران أن يكون موجوداً. لكن الشرطة طلبت منه البقاء ريثما ينتهي التحقيق. لم أكن أعلم حينها، لكنهم كانوا قريبين جداً من اتخاذ القرار بأن لديهم ما يكفي من الأدلة لإدانته بجريمة قتل فتاة والتزر.

في الحقيقة، كان لديهم دليل حقيقي صغير جداً. جله يقوم على شائعات. أراده الجميع أن يكون مذنباً، لأن هذا يبدو جميلاً ومفهوماً. كان شخصا غريباً، وليس هذا فقط، بل شكله كان غريباً أيضاً، وقد اتهم بالاعتداء على فتاة يافعة.

وفقاً للنظرية السائدة وقتها، أرادت فتاة والتزر إنهاء العلاقة، ولكن السيد هالوران غضب منها وقتلها. كان هذا كله رواية والدة فتاة والتزر، التي أخبرت الشرطة أن ابنتها كانت قد عادت في اليوم السابق تبكي بعد أن تجادلت مع السيد هالوران. وافق السيد هالوران على ما قالته الأم، ولكنه نفى أنهما كانا قد انفصلا.

حتى أنه اعترف بأنه كان من المفترض أن يلتقيا في الغابة تلك الليلة (فقد قررا أن يلتقيا سراً هناك بسبب الشائعات)، لكنه بعد الجدال، لم يذهب. أنا لست واثقاً ما هي القصة الحقيقية، ولم يكن أحد قادراً على إثبات أو نفي الروايتين، باستثناء فتاة واحدة كانت الأوساخ والديدان تملأ فمها.

كان صباح ذلك السبت هادئاً، عند الساعة العاشرة كانت السماء مكفهرة، ولم يكن هناك إلا سيارات قليلة تعبر الطريق. معظم المنازل كانت

مظلمة. على الرغم من أن عيد الميلاد كان قريباً، بالكاد وجدت بعض الزينة. أعتقد أن أحداً لم يشعر بالرغبة في الاحتفال. لم يكن والدي قد ابتاع شجرة بعد، وأنا بالكاد فكرت بعيد ميلادي.

يبدو الكوخ كشبح أبيض، أطرافه مطموسة في الضوء السديمي. كانت سيارة السيد هالوران مركونة في الخارج. وقفت بعيداً ونظرت حولي. ينتصب الكوخ في نهاية شارع أموري، شارع فيه قليل من الأكواخ الأخرى. لم يبدُ أن أحداً ما قد يسرقها. لكن بدلاً من أن أترك دراجتي في الخارج أمام منزل السيد هالوران، ربطتها إلى سياج في الشارع، حيث لا يراها أحد بسهولة. ثم مشيت على الطريق مهرولاً.

كانت الستائر مفتوحة، لكن لم يكن يوجد أضواء في الداخل، رفعت يدي، وطرقت الباب وانتظرت، لم أسمع صوت أي حركة، طرقت الباب مجدداً، فكان الصمت يلف المكان. حسناً، لم يكن صمتاً بكل معنى الكلمة اعتقدت أني سمعت شيئاً، قلت لنفسي. ربما لا يرغب برؤية أحد، وربما عليّ العودة إلى المنزل، كنت على وشك الذهاب عندما تهيأ لي أنني سمعت صوتاً يقول: "جرّب الباب فقط".

وضعت يدي على مقبض الباب وأدرته، انفتح الباب، وحدقت.

"مرحبا؟ سيد هالوران؟"

لم يجب أحد. أخذت نفساً عميقاً ودخلت.

"مرحباً؟".

نظرت حولي، لا تزال الصناديق مكدسة في كل مكان، لكن كان هناك إضافة جديدة إلى غرفة الجلوس الصغيرة. زجاجات. شراب وبيرة وبضع زجاجات أخرى أكبر مكتوب عليها "جيم بيم".

قطّبت حاجبيّ. أفترض أن جميع البالغين يتناولون المشروب أحياناً. لكن هذا يعتبر كثيراً. سمعت صوت صنبور الماء في الأعلى. كان هذا صوت صنبور الماء الذي سمعته من قبل. شعرت بالراحة، فالسيد هالوران يستحم. لهذا السبب لم يسمعني عندما طرقت الباب.

بالطبع، هذا يتركني في موقف حرج. لم أكن قادراً على مناداة السيد هالوران بصوت عالٍ إذ يمكن أن يكون عارياً. بالإضافة إلى أنه سيعلم أني قد دخلت منزله، بدون دعوة. لكني أيضاً لم أرغب بالرجوع والانتظار في الخارج، كي لا يراني أحد.

في النهاية، اتخذت قراري. دخلت المطبخ، وأخرجت الخاتم من جيبي، ووضعته وسط الطاولة، حيث سيلفت النظر. كان عليّ ترك رسالة، لكني لم أجد أوراقاً ولا أقلاماً. نظرت إلى الأعلى؛ كان هناك بقعة غريبة على السقف. لونها أغمق مما عداها. ثم فجأة، توقفت سيارة في الشارع. قفزت، هذه الضجة ذكرتني بأني داخل منزل أحدهم، وذكرتني بتحذير والديّ. فلابد من أن يكون والدي قد أنهى عمله الآن، وماذا لو أتت أمي إلى المنزل؟ لقد كتبت ملاحظة لكن من الممكن أن تشك أمي بالأمر وتتصل بوالدة هوبو لتتحقق من أني عنده بالفعل.

تسارعت دقات قلبي، وخرجت من الكوخ، وأغلقت الباب خلفي، وهرعت إلى دراجتي. قدت بأسرع ما يمكن، وأسندت دراجتي بجانب الباب الخلفي، ثم خلعت معطفي وارتميت على الأريكة في غرفة المعيشة. نزل أبي من الطابق العلوي بعد حوالي ثلث ساعة، وألقى نظرة من الباب.

"حسناً، يا إيدي، كنتَ في الخارج؟".

"ذهبت لأرى هوبو، لكنه لم يكن في المنزل".

"كان عليك إخباري".

"تركت لك ملاحظة. لم أرغب بإزعاجك".

ابتسم قائلاً: "أنت فتى صالح. ما رأيك أن نعد بعض البسكويت لأمك ريثما تعود؟".

"حسناً".

بعض الأولاد يعتقدون أن الطبخ شيء خاص بالفتيات فقط، لكنه ليس كذلك عندما يكون والدي هو الطاهي، فهو لا يتبع أي وصفة. كان يضع أشياء غريبة مع بعضها، ومذاقها إما أن يكون رائعاً أو غريباً، ولكنها كانت حقاً

مغامرة لمعرفة هذا. كنا نخرج بسكويت المارميت وزبدة الفستق من الفرن، عندما جاءت أمي.

سألها أبي: "هل كل شيء بخير في العيادة؟".

"ماذا؟ نعم. كل شيء بخير".

لكنها لم تبدُ وكأن الأمور فعلاً بخير. فقد بدت قلقة ومنزعجة.

سألتها: "أمي ما الأمر؟".

نظرت إليّ وإلى والدي، وقالت أخيراً: "مررت بجانب منزل السيد هالوران في طريق العودة".

شعرت بالتوتر. هل رأتني؟ بالتأكيد لا. كنت في المنزل منذ وقت طويل، فكرت ربما رآني شخص ما وأخبرها، أو ربما عرفت بكل بساطة لأنها أمي وكانت تملك حاسة سادسة حين أفعل أموراً خاطئة.

لكن في الواقع، لم يكن أي من ذلك.

"كان هناك سيارة شرطة وإسعاف".

قال أبي "سيارة إسعاف؟ لماذا؟".

قالت بصوت هادئ: "كانوا يخرجون جثة على نقالة".

انتحار.

وصلت الشرطة لتعتقل السيد هالوران لكن عوضاً عن اعتقاله وجدوه في الطابق العلوي طافياً في حوض الاستحمام وكانت المياه تتسرب من أرضية الحمام. كان لون الماء المتساقط من السقف إلى طاولة المطبخ وردياً شاحباً، ولكنه كان أحمر أكثر قتامة في حوض الاستحمام حيث كان السيد هالوران متمدداً، تغطي ذراعاه من المعصم إلى المرفق جروح عميقة. وجدوا الخاتم، لا يزال مغطى بتراب الغابة. هذا ما جعل الشرطة متأكدين، لقد كان القطعة الناقصة من دليل يبحثون عنه. لقد قام السيد هالوران بقتل فتاة والتزر وبعد ذلك انتحر.

لم أعترف أبداً. كان ينبغي عليّ ذلك، أعلم. لكني كنت في الثانية عشرة وخائفاً ولست متأكداً من أن أحداً كان ليصدقني على أية حال. لو تكلمت، كانت أمي لتعتقد بأني كنت أحاول مساعدة السيد هالوران. في الحقيقة، لم

يكن بوسع أي كان مساعدته أو مساعدة فتاة والتزر الآن. ما الفائدة إذاً من جلاء الحقيقة؟ لم يكن هناك مزيد من الرسائل، ولا مزيد من رجال الطباشير، ولا مزيد من الحوادث الرهيبة أو الجرائم المروعة. أعتقد أن أسوأ ما حدث في أندروبري في السنوات التالية كان محاولة سرقة الرصاص من سطح الكنيسة من قبل بعض الغجر. وعندما صدم مايكي سيارته بشجرة وكاد أن يتسبب بمقتله ومقتل غاف بالطبع. ولا يسعنا القول إن الناس قد نسوا على الفور. فالجريمة وكل الأمور التي حصلت، أعطت أندروبري سمعة سيئة وسوداء تداولتها الصحف المحلية لأسابيع.

ذات مساء سمعت أمي تتمتم: "قريباً سوف يوزعون طباشير مجانية مع الطبعة الأسبوعية".

وأخبرني غاف السمين أن والده فكر بتغيير اسم الحانة إلى *رجل الطباشير* لكن أمه قالت: "لم يحن الأوان بعد".

بعد ذلك بفترة، أصبحت ترى في المدينة مجموعات من الغرباء. كانوا يرتدون معاطف وينتعلون أحذية مريحة مصطحبين معهم كاميرات ودفاتر ملاحظات وقد تجمعوا في الكنيسة وانتشروا عبر الغابات. أسماهم والدي "السياح" وكان يجب أن أسأله عن معنى ذلك. "أشخاص يعجبهم النظر إلى شيء فظيع أو زيارة المكان حيث حدث فيه أمر رهيب، يُعرفون أيضاً بكلاب الصيد المهووسين بالموت".

أعتقد بأني فضلت الوصف الثاني أكثر: كلاب الموت. هذا ما بدا عليه هؤلاء الأشخاص، بشعورهم الباهتة ووجوههم المتدلية والطريقة التي بدوا دائماً فيها يضغطون أنوفهم على النوافذ أو ينحنون قريباً من الأرض، وينقرون بعيداً بكاميراهم. كنت تسمعهم أحياناً يسألون أسئلة أيضاً: "أين كان الكوخ حيث عاش رجل الطباشير؟ هل عرفه أحد ما شخصياً؟ هل حصل أحد ما على أيّ من رسوماته؟".

لم يسألوا مطلقاً عن فتاة والتزر. لم يسأل عنها أحد. أمها أجرت مقابلة واحدة مع الصحف، وأخبرهم كيف كانت إليزا تحب الموسيقى، وكيف أرادت

أن تصبح ممرضة مثلها كي تساعد الناس الذين يتأذون، وعن مدى شجاعتها بعد الحادثة. لكنها كانت فقط عبارة عن مقالة صغيرة.

بدا الأمر وكأن الناس يريدون نسيانها. كما لو أن التذكر بأنها كانت شخصاً حقيقياً وقد مات يفسد القصة. في النهاية، حتى كلاب الموت عادوا أدراجهم إلى بيوتهم. أحداث فظيعة أخرى أثارت اهتمامهم في الصفحات الأولى.

بين الحين والآخر كانت مقالة تتناول الجريمة، كما أعيد ذكرها في بعض برامج الجرائم الحقيقية على التلفزيون. نعم، كان هنالك نهايات غير دقيقة، أمور غريبة لم تُفهم بشكل كامل. افترض الجميع أن السيد هالوران هاجم ريف مارتن، ورسم الصور في الكنيسة، لكن لم يستطع أحد تفسير السبب. لم يجدوا الفأس الذي استخدمه لتقطيع الجثة أبداً.. وبالطبع، لم يجدوا رأس فتاة والتزر.

مع ذلك، أعتقد أن أحداً منّا لم يوافق إطلاقاً على البداية، جميعنا آمنا بأن اليوم الذي مات فيه السيد هالوران هو اليوم الذي انتهت فيه الجريمة.

2016

تأخرت جنازة أبـي على نحو ما. ذلك الرجل الذي عرفته قد مات منذ زمن بعيد، وكل ما بقي منه كان مجرد رماد. جميع الأشياء التي جعلته الشخص الذي كان عليه اختفت؛ حنانه وحس الفكاهة ودفؤه وحتى نشراته الجوية المروعة وذكرياته أيضاً. وهذه كانت الأسوأ بينها. ومن نحن إن لم نكن حصيلة تجاربنا والأشياء التي نجمعها في الحياة؟ وعندما ننسلخ عن هذه الأشياء نصبح مجرد كتلة من اللحم والعظم والأوعية الدموية.

وفي حال وجود شيء ما يُدعى "الروح" - مع العلم بأني لست مقتنعاً بوجودها بعد- فبإمكاننا اعتبار أبـي قد رحل منذ زمن طويل، قبل أن تلقي به الإصابة بالالتهاب الرئوي على سرير المشفى الأبيض العقيم، ينوح ويهذي. هي صورة مضغوطة لأبـي الطويل والمفعم بالحيوية كما عهدته طوال حياتي. لم أكن أعلم بوجود هكذا نتوء عند البشر. أشعر بالخزي عند القول بأني لم أشعر بداية بالأسى عندما أخبروني بموته، بل بالسعادة.

أقمنا الجنازة في المقبرة، وكانت جنازة صغيرة، حضرناها أنا وأمي ومجموعة من زملاء والدي خلال عمله في بعض المجلات، بالإضافة إلى هوبو ووالدته وغاف السمين وعائلته. لكنني لم أهتم لهذا، فأنا لا أعتقد أن الشخص يقيم بعدد الناس الذين يأتون عند موته. معظم الناس لديهم أصدقاء كثر، ومن نصادفهم على الإنترنت ليسوا أصدقاء حقيقيين، فالأصدقاء الحقيقيون شيء مختلف. إنهم موجودون تحت أي ظرف. إنهم أشخاص تحبهم وتكرههم بالقدر نفسه، وهم جزء منك، كنفسك.

بعد انتهاء الاحتفال الديني، عدنا جميعا إلى منزلنا. كانت أمي قد صنعت بعض الوجبات لكن معظمهم تناولوا شراباً فقط. وعلى الرغم من أن أبـي كان في منزل الرعاية قبل موته بسنة، وبالرغم من أن المنزل كان مليئاً بالناس

كما لم يسبق له أن كان، فإني لا أعتقد أنه قد سبق لي أن شعرت بمثل ذلك الفراغ.

كنت ووالدتي تزور قبر أبي كل سنة في ذكرى وفاته. لكن أمي غالباً ما كانت تذهب، لأني كنت ألاحظ دائماً وجود أزهار جديدة بجانب شاهدة القبر التي تحمل اسمه، وسطر أو سطرين في كتاب إحياء الذكرى. أجدها اليوم، تجلس على أحد مقاعد الحديقة، تحت أشعة الشمس المتقطعة، وهي ترتدي بنطال جينز ازرق وسترة حمراء متماشية مع الموضة.

"مرحباً".

"مرحباً أمي". جلست إلى جانبها.

كانت الزجاجتان الصغيرتان الدائريتان اللتان ترتكزان على أنفها، تلمعان في الضوء في كل مرة تميل نحوي.

"تبدو متعباً يا إيد".

"نعم فقد كان أسبوعاً طويلاً. أنا آسف لأنك اضطررت إلى قطع يوم عطلتك".

رفعت يدها قائلة: "لم أضطر لفعل هذا، بل اخترته بنفسي. إنني حين أرى إحدى البحيرات فكأنني رأيتها جميعها".

"على كل حال، شكراً لعودتك".

"حسناً. كان وقتاً كافياً لكما أنت وميتنز".

ابتسمت بتكلف.

"إذاً، هل ستخبرني بما حصل؟".

نظرت إليّ كما اعتادت أن تفعل عندما كنت طفلاً، تلك الطريقة التي تجعلني أشعر بأنها تنظر تماماً في قلب أكاذيبي.

"لقد رحلت كلوي".

"رحلت؟".

"حزمت أغراضها وذهبت.. اختفت".

"من دون أن تقول أي شيء؟".

"أجل". ولا أتوقع عكس ذلك.

في الحقيقة، هذا كلام فارغ. فخلال الأيام القليلة الأولى، توقعت نوعاً ما أن تتصل وراودني أمل بذلك.

كانت لتمشي بطريقة متقطعة وتصنع لنفسها القهوة وتحدق إليّ بشكل ساخر رافعة حاجبها وهي تعطيني شرحاً موجزاً ومنطقياً يجعلني أشعر بالضعف والحماقة، أنا المصاب بجنون العظمة. لكنها لم تفعل. والآن، وبعد أسبوع، وكيفما قلّبت الموضوع، لا يسعني التفكير إلا بأنها كانت مخادعة تلاعبت بي.

قالت أمي: "حسناً. بدوري، لم أكن معجبة بها إطلاقاً، لكنها لم تبدُ لي من هذا النوع من الفتيات".

"أعتقد بأني لست جيداً في قراءة شخصيات الناس".

"إيد، لا تلم نفسك. فبعض الناس ماهرون في الكذب".

"نعم، أعتقد أنهم كذلك هل تتذكرين هانا توماس يا أمي؟".

قطّبت حاجبيها وقالت: "نعم أذكرها، لكن لا...".

"كلوي هي ابنتها".

اتسعت عيناها قليلاً من وراء نظارتها لكنها حافظت على تماسكها.. "حسناً. أهي من أخبرتك؟".

"لا، نيكي من أخبرتني".

"وهل تحدثت مع نيكي؟"

"ذهبت لرؤيتها".

"كيف حالها؟".

"على الأرجح أنها كما هي منذ خمس سنوات عندما ذهبتِ لرؤيتها، وأخبرتها بحقيقة ما حصل مع والدها".

ساد الصمت لفترة أطول، ونظرت أمي إلى الأسفل.

كانت يداها كثيرتي العقد وتظهر عليهما عروق زرق. إن أيدينا دائماً ما تتخلى عنا، على ما أعتقد، مثلها مثل عمرنا وأعصابنا.

كانت يدا أمي قادرتين على فعل أشياء رائعة، كفك عقد شعري ومداعبة خدي برقة ووضع لصاقة الجروح على ركبة مخدوشة. هاتان اليدان قادرتان على فعل أشياء أخرى أيضاً، أشياء قد يجدها بعض الناس عادية.

أخيراً قالت: "أرغمني جيري على الذهاب، فأنا أخبرته بكل شيء. وقد شعرت بالراحة لاعترافي بذلك. أرى أنني مدينة بإخبار نيكي الحقيقة".

"وما هي تلك الحقيقة؟".

ابتسمت بحزن "لطالما أخبرتك ألا تندم أبداً. فالقرار يكون مناسباً في وقته، ولو اتضح لاحقاً أنه قرار خاطئ، وعليك التعايش معه. لا تنظر إلى الوراء أبداً".

"نعم. لكن القول أسهل من الفعل دائماً". انتظرتها، وتنهدت.

"لم تكن هانا فتاة محصنة. كانت تُقاد بسهولة، وتبحث دائماً عن قائد لها تتبعه وتعبده. ومع كل أسى، فقد وجدت ذلك الشخص".

"ريفد مارتن؟"

أومأت بالموافقة. "أتت لرؤيتي ذات ليلة.."

"أذكر هذا".

"حقاً؟".

"رأيتها معك في غرفة المعيشة".

"كان عليها أن تأخذ موعداً في العيادة، وكان عليّ الإصرار، لكنها كانت بائسة جداً، تلك فتاة مسكينة، لم تعلم إلى من يجب أن تتحدث، لذا دعوتها للدخول، وأعددت لها فنجاناً من الشاي...".

"بالرغم من أنها كانت من المعارضة؟".

"أنا طبيبة، والأطباء لا يطلقون الأحكام في عملهم. كانت حاملاً في شهرها الرابع، وكانت خائفة من إخبار والدها، ولم تكن تبلغ من العمر سوى ستة عشر عاماً".

"هل أرادت الاحتفاظ بالطفل؟".

"لم تكن تعلم ما تريد. فهي بحد ذاتها كانت طفلة".

"إذاً ماذا قلت لها؟".

أخبرتها بما أخبرت به جميع النساء اللواتي جئن إلى العيادة. عرضت عليها جميع الخيارات المتاحة أمامها وناقشتها بها. وبالطبع سألتها إن كان والد الطفل يرغب بالمساعدة".

"وماذا قالت؟".

"في البداية لم تتحدث عنه، لكنها لاحقاً أفاضت بالحديث عن علاقة الحب التي تربطها بالكاهن".

ارتجفت يداها ثم أكملت: "قدمت لها أفضل ما يمكن من النصائح، وتركتها تذهب أقل توتراً مما أتت. لكني أعترف بأني كنت بائسة ومتناقضة. وفي ذلك اليوم، في الجنازة، عندما انفجر والدها متهماً شون كوبر باغتصابها".

"كنت تعلمين بالحقيقة؟"

"نعم. لكن ما الذي كان بإمكاني فعله؟ لم أكن لأخون ثقة هانا".

"لكنك أخبرت والدي؟".

أومأت موافقة: "كان يعلم أنها قادمة لرؤيتي في تلك الليلة، وأخبرته بكل شيء. أراد إخبار الشرطة، والكنيسة، وفضح ريفد مارتن، لكني حملته على البقاء هادئاً".

" لم يكن ليفعل ذلك، أليس كذلك؟".

"لا. وعندما ألقيت حجارة على النافذة غضب كثيراً. وتجادلنا-".

"سمعتكما حينها. وخرج أبي وشرب حتى ثمل". أعلم باقي القصة لكني تركتها تكمل.

"في تلك الليلة، كان والد هانا وبعض أصدقائه في الحانة أيضاً. ووالدك، شرب كثيراً، فقد كان غاضباً جداً...".

"وأخبرهم أن ريفد مارتن هو والد طفل هانا؟".

أومأت مجدداً موافقة: "عليك أن تفهم هذا، لم يكن والدك ليتوقع ما قد يحدث. أو ما قد يفعلونه بريفد مارتن في تلك الليلة؛ اقتحام منزله وأخذه إلى الكنيسة وضربه كما فعلوا".

أعلم وأفهم هذا. كما عندما لم يتوقع غاف ما سيحدث عند سرقة دراجة

شون أو عندما تركت الخاتم للسيد هالوران.

"لماذا لم تقولي شيئاً بعدها أمي؟ لماذا لم يقل أبـــي شيئاً؟".

"كان الشرطي توماس. و لم نستطع إثبات شيء".

"وبهذا نجوا بفعلتهم؟".

استقرت وقتاً قبل أن تجيب. "لم يكن هذا فقط، كان توماس وأصـــدقاؤه ثمالى أيضاً، يبحثون عن إراقة الدماء. وأشك بأنهم من قام بضرب ريفد مارتن".

"لكن؟".

"تلك الرسومات الطباشيرية الرهيبة والجلدات على ظهره؟ فما زلت أجـــد صعوبة بتصديق حقيقة أنهم من فعل ذلك".

اتجه ذهني إلى وشم نيكي الصغير الذي هو عبارة عن جناحي ملاك علـــى معصمها.

في ذكرى والدي.

وشيء آخر قالته مباشرة قبل أن ترحل، عندما سألتها عن الرسومات:

"أحب والدي تلك الكنيسة. هي الشيء الوحيـــد الـــذي أحبـــه. تلـــك الرسومات، اعتداء على مكانه المقدس. نسيان الضرب. هذا ما كان قد يقتله".

اكتسحتني قشعريرة.

"لابد من أنهم هم من فعلوها، ومن غيرهم؟".

"أفترض هذا".

أخذت نفساً عميقاً. "كان من الخطأ إخبار والدك، وعدم البوح بحقيقة من قام بالهجوم على الكاهن".

"ألهذا السبب تقومين بزيارته كل أسبوع؟ أتشعرين بالمسؤولية عما حصل له؟".

هزت رأسها موافقة: "يحتمل أنه لم يكن رجلاً صـــالحاً، لكـــن الجميـــع يستحقون بعض الغفران".

"ليس بالنسبة إلى نيكي. فقد قالت بأنها ستزوره عندما يموت".

قطبت أمي حاجبيها. "هذا غريب".

مع تقدمك بالعمر، يبدأ عالمك بالتقلص. وتصبح غاليفر على جزيرة ليليبوت الخاصة بك. أتذكر مصحة سانت ماغدالين، ذلك المبنى القديم والضخم في آخر شارع طويل ومتعرج، تحيط به هكتارات من المروج الخضر المخططة بعناية. أما اليوم، فقد أصبح هذا الطريق أقصر، و لم تعد المروج أكبر من حديقة واسعة، غير منظمة، تكسوها أعشاب قليلة. ولا دليل على وجود أي بستاني لرعايتها وإبقائها مشذبة. وبالكاد لا يزال الكشك القديم قائماً، والباب الفرنسي مفتوحاً، تظهر من خلاله قطع عدة مهملة وبعض ثياب العمل المعلقة على الخطاف.

في أسفل هذا المرج، حيث قابلت السيدة العجوز ذات القبعة الفاخرة. المنزل نفسه يبدو أصغر، والجدران البيض بحاجة للطلاء مجدداً، والنوافذ الخشبية القديمة يبدو منظرها رهيباً وتحتاج إلى استبدال.

أفترض أنها تبدو - كما بعض قاطنيها- كسيدة كبيرة في العمر في سنواتها الأخيرة. ضغطت جرس الباب الأمامي، في البدء عم السكون قبل أن أسمع قرقعة، ثم صوتاً أنثوياً يقول: "نعم؟"

"أنا إدوارد آدمز، أريد زيارة الكاهن مارتن".

"حسناً".

سمعت صوت انفتاح القفل فدفعته، لم يكن داخل المنزل مختلفاً عما أذكره، فالجدران لا تزال مطلية بالأصفر، في الحقيقة، ربما أصبحت أقرب للون الخردلي.

كنت متأكداً أن الصور نفسها لا تزال معلقة على هذه الجدران، وأن رائحة المعقمات والبول والملفوف العفن لا تزال تفوح بالجو.

وفي إحدى زوايا الصالة كان هناك مكتب استقبال خال، وحاسوب يعرض شاشة توقف مربكة، ولمع الضوء على الهاتف. رأيت سجل الزوار مفتوحاً، فاتجهت نحوه، وألقيت نظرة سريعة حولي. ثم مررت إصبعي على طول الصفحة أتفحص الأسماء والعناوين...

لم يكن هناك أسماء كثيرة مدونة.

وجدت اسم نيكي بسرعة. لقد زارته الأسبوع الفائت، إذاً لماذا كذبت بهذا الشأن؟

"كيف يمكنني مساعدتك؟".

قفزت في مكاني، أفلتت السجل من يدي فسقط وانغلق. كانت تقف أمامي امرأة بدينة قاسية الملامح شعرها مربوط إلى الوراء على شكل كعكة، وكانت تنظر إليّ وترفع حاجبيها وبدت لي أظافرها رهيبة. هذا ما اعتقدته، ومن الممكن أن يكون حاجباها مرسومين هكذا.

قلت: "مرحبا. كنت.. حسناً.. كنت على وشك تدوين اسمي".

"نعم، هذا صحيح، أليس كذلك؟"

لدى الممرضات نظرة تشبه نظرة الأم تماماً، تلك النظرة التي تقول: "لا تستغبيني، أنا أعلم تماماً ماذا كنت تفعل".

"متأسف. لقد كان السجل مفتوحاً على صفحة ممتلئة و.."

تذمرت وامتعضت، ومشت نحو السجل وفتحته على صفحة اليوم.

"اسمك واسم الشخص الذي ستزوره، وهل هو صديق أم قريب؟".

"حسناً". أمسكت قلم الحبر وكتبت اسمي واسم ريفد مارتن، وبعد لحظات من التردد كتبت "صديق".

سألتني الممرضة وهي تراقب: "هل سبق لك أن زرته؟".

"اممممم.. في العادة تأتي والدتي".

نظرت إليّ باهتمام أكثر. عائلة آدمز، بالطبع، ماريان. تلك السيدة ذات الملامح الناعمة، إنها امرأة صالحة. تأتي كل أسبوع لتقرأ له، لقد واظبت على ذلك طوال هذه السنين.

عبست فجأة: "إنها بخير، أليس كذلك؟"

"نعم. إنها مصابة بالرشح، لذا أنا هنا".

أومأت برأسها. "الكاهن في غرفته الآن، كنت على وشك إخراجه من غرفته ليشرب الشاي، لكن إن كنت ترغب...".

لا أرغب. ولكن بما أنني هنا، وبالرغم من أن فكرة رؤيته تشعرني

بالاشمئزاز، فخياراتي محدودة.

"طبعاً".

"أسلك الرواق، غرفته الرابعة إلى اليمين".

"هذا عظيم، شكراً".

مشيت ببطء، قدم تجر الأخرى. لم آتِ لأراه، بل أتيت لأرى إن كانت نيكي تزور والدها. لست واثقاً من سبب مجيئي لكني شعرت بضرورة المجيء. وبما أنني هنا الآن، وبما أني لست واثقاً من سبب مجيئي، فيجب أن أمضي قدماً.

وصلت غرفة الكاهن، وكان باها مقفلاً. وكنت على وشك أن أعود أدراجي لكن شيئاً منعني من ذلك، ربما هو الفضول القاتل.

وبالرغم من أنني لم أتوقع أي ردّ، لكنني طرقت الباب، بدا له أن ذلك ينم عن التهذيب.

ثم فتحت الباب.

كانت أرجاء المنزل تشير إلى أنه مستشفى للأمراض العقلية غير القابلة للشفاء، و لم تكن غرفة الكاهن استثناء فقد كانت اللمسات المنزلية غائبة عنها، دلت على تقشف وكانت شبه خالية من الأثاث، فما من صورة تزين جداراً ولا أزهار تملأ الأواني، ولا كتب أو زخارف أو تذكارات.

لم يكن هناك سوى صليب معلق على الحائط فوق سرير مرتب بعناية وإلى جانبه طاولة عليها إنجيل. النافذة المزدوجة، كانت إحدى درفتيها ملمعة، أما القفل فكان متزعزعاً، و لم يكن يستوفي شروط السلامة والأمن. تطل النافذة على ما بقي من المروج الخضر، والتي تمتد إلى حافة الغابة. أفترض أنها إطلالة جميلة، هذا في حال أنك تقدر منظراً كهذا، على عكس الكاهن، حسبما أعتقد.

كان الكاهن، أو ما بقي منه، يجلس على كرسي متحرك أمام تلفاز صغير في إحدى زوايا الغرفة. وقد تم وضع جهاز التحكم بالتلفاز على يد الكرسي، لكن الشاشة مازالت بيضاء.

تساءلت إن كان نائماً، فحدقت إلى عينيه المفتوحتين تماماً. وقلقت حين رأيت فمه يتحرك بما يوحي أنه يؤدي مونولوجاً داخلياً مع أحد لا يراه ولا

يسمعه سواه، يا إلهي، أيحتمل هذا. أرغمت نفسي على التقدم داخل الغرفة ثم ترددت للحظة غير واثق من قيامي بهذا. شعرت بأني أتطفل، رغم أني واثق من أن الكاهن لا يدرك وجودي. في النهاية، جلست بارتباك على طرف السرير، بجانبه.

"مرحبا أيها الكاهن مارتن".

لم يجب. ولكنني تساءلت عمّا كنت أتوقع؟

"لعلك لا تتذكرني؟ أنا إيدي آدمز. أمي هي التي تزورك كل أسبوع، بالرغم.. حسناً.. بالرغم من كل شيء...".

وساد الصمت، لم يكن هناك صوت ولا لحركة عقارب الساعة، باستثناء صوت أنفاسه الخافتة، فلا يوجد شيء يدل على مرور الوقت. لكن في مثل هذا المكان، آخر ما تتمنى معرفته هو الوقت، الذي يمر بطيئاً. نظرت إلى الأسفل، بعيداً عن عيني الكاهن المحدقتين، لكن عينيه ما زالتا تشعرانني بشيء من الخوف وعدم الراحة.

"كنت طفلاً عندما رأيتني آخر مرة، في الثانية عشرة من عمري. أنا صديق نيكي. أتذكرها؟ ابنتك؟" وسكتت. "سؤال غبي. أنا متأكد من أنك تذكرها، في داخلك". وسكتت مجدداً. لم أخطط لقول أي شيء، لكني الآن، وأنا هنا، أشعر بأني أريد التحدث حقاً.

"والدي كان يعاني من مشاكل في عقله أيضاً، لكن ليس مثلك. كانت مشكلته أن كل شيء كان يتزحلق منه، مثل فتحة تسريب. لم يستطع الإمساك بأي شيء. لا بذكرياته ولا بكلماته وأخيراً، لم يستطع التمسك حتى بذاته. لكن أفترض أنك عكس ذلك. فكل شيء موجود في داخلك، في مكان ما في العمق، موجود فعلاً".

إما هذا وإما أن كل شيء قد انمحى وتدمر ورحل إلى الأبد. لكني لا أصدق. لا بد أن توجد أفكارنا وذكرياتنا في مكان ما. لكن والدي ضاع منه كل شيء. حاولت وأمي أن نتذكر نيابة عنه قدر المستطاع، وعملنا لنحافظ على الأوقات الثمينة آمنة داخل عقولنا.

لكني الآن، وقد أصبحت أكبر، أجد صعوبة في استرجاعها. فمثلاً ما قاله أحدهم، وما كان يلبسه آخر، وكيف بدا، كلها أمور تصبح شيئاً فشيئاً مبهمة، فالماضي يتلاشى كما تتلاشى معالم الصور القديمة، ومهما فعلت لا يمكنك الحيلولة دون ذلك.

نظرت مجدداً إلى الكاهن، وكان ينظر نحوي مباشرة، بعينيه الرماديتين الواضحتين الواسعتين. تحركت شفتاه وانبعث منهما همس باهت: "اعترف".

شعرت بخدر في رأسي "ماذا؟".

وفجأة أمسك بذراعي. وكانت يده، بالنسبة إلى شخص أمضى سنواته الثلاثين الأخيرة عاجزاً عن دخول الحمام بمفرده دون مساعدة، قوية بشكل مدهش.

"اعترف".

"اعترف بماذا؟ أنا لم..".

وقبل أن أقول أي شيء، قرع الباب، مما جعلني أنظر إلى الناحية الأخرى بسرعة. فأفلت الكاهن ذراعي. فتح الباب وأطل رأس ممرضة؛ إنها ليست التي التقيت بها عندما دخلت فهذه شقراء نحيفة ذات وجه ناعم.

"مرحبا" مع ابتسامة. "أردت فقط التأكد من أن كل شيء على ما يرام؟" وتداعت الابتسامة.

حاولت أن أرتب نفسي. فآخر ما أريده هو شخص ما يقرع إنذار الخطر، لأجد نفسي مطروداً.

"نعم. حسناً.. كنا فقط.. حسناً، كنت أتحدث".

ابتسمت الممرضة. "إنني أخبر الناس دائماً بضرورة التحدث مع النزلاء، فهذا جيد بالنسبة إليهم رغم أنه يبدو عليهم أنهم لا يستمعون، لكنهم يفهمون أكثر مما يُظن".

أرغمت نفسي على الابتسام: "أفهم ما تعنيه. فأبي كان مصاباً بالزهايمر، وغالباً ما كان يجيب عن أشياء كنا نظن أنه لم يسمعها أساساً".

أومأت بتعاطف "يوجد كثير مما لا نفهمه عن الأمراض العقلية، لكن المرضى يظلون بشراً، ومهما حصل - من ضرر في الرأس- فإن القلب يبقى كما هو".

نظرت مجدداً إلى الكاهن، لا تزال النظرة، التي بدت عليه عندما قال "اعترف"، حاضرة.

"ما تقولينه صحيح على الأرجح".

"سنتناول الشاي في القاعة"، وأكملت بفرح أكبر، "هل ترغب بمشاركتنا والكاهن؟".

"نعم، بالطبع".

دفعت كرسي الكاهن المتحرك نحو الباب، ومشينا عبر الرواق.

سألتني الممرضة: "لم يسبق لي أن رأيتك؟".

"أمي هي من تأتي عادة".

"آه.. ماريان؟"

"نعم".

"هل هي بخير؟".

"أصيبت بالرشح".

"أتمنى لها الشفاء".

فتحت باب القاعة -القاعة التي زرتها سابقاً بصحبة أمي- ودلفت بالكاهن إليها.

"تقول أمي إن ابنته كانت تأتي لزيارته؟".

نظرت الممرضة بتمعن. "في الحقيقة، نعم، لقد رأيته بصحبة فتاة مؤخراً. فتاة نحيفة ذات شعر أسود؟".

"لا"، نيكي هي.."، ثم توقفت. بالطبع، نيكي لم تأتِ إلى هنا، ويا لها من فتاة ذكية تلك التي وقعت باسمها على سجل الزوار. فللكاهن ابنة أخرى، كلوي، إنها من تزوره.

"أعتذر"، عدت إلى الوراء في الذاكرة. "نعم، إنها هي".

هزت الممرضة برأسها. "لم أكن أعلم أنها من العائلة. المعذرة عليّ تقديم الشاي".

"حسناً، طبعاً".

رحلتْ. وتوضح لي كل شيء، أين كانت تذهب كلوي عندما لم تكن في العمل؟ زيارة الأسبوع الفائت؟ ففي اليوم نفسه، عادت مخمورة، غارقة في البكاء، تتكلم عن تعليقات سلبية عن العائلة.

لكن لماذا؟ بحث أكثر؟ زيارة لماضيها؟ ما الذي تخطط له؟ قدت كرسي الكاهن ووضعته في مكان يستطيع من خلاله مشاهدة التلفاز، الذي يعرض مسلسل جريمة دايوغناسيس.

يا يسوع، إن لم تكن فقدت عقلك قبل أن تأتي إلى هنا، فمشاهدة ديك فان ديكي وعائلته، يصعدون الأمور كل يوم، سيخرجك عن طورك.

ثمة ما لفت نظري، غير التلفاز ونزلاء المنزل المتدلين على كراسيهم.

هناك جسد متهدل، يجلس خلف الأبواب الفرنسية، يرتدي معطفاً سميكاً من الفرو، ويضع على رأسه قبعة، تظهر تحتها بضع خصلات من الشعر الأبيض.

عجوز الحديقة التي أطلعتني على السر. لكن ذلك كان قبل ثلاثين عاماً. لا أصدق أنها لا تزال على قيد الحياة. أفترض أن هذا ممكن، كانت في الستين من عمرها حينذاك. وهذا يعني أنها اليوم في التسعين.

بفضول، ذهبت وفتحت الباب. كان الجو معتدلاً ضوء الشمس كان خافتاً.

"مرحباً؟".

نظرت نحوي.

"فرديناند؟".

"كلا. اسمي إيدي. أتيت إلى هنا مع أمي منذ زمن بعيد؟".

مالت إلى الأمام وأغمضت عينيها، اللتين اختفتا خلف التجاعيد، كورق الكتابة المجعد.

"أتذكرك. الفتى اللص".

شعرت برغبة بالنفي، لكن ما الفائدة؟ قلت: "هذا صحيح".

"هل أرجعته؟".

"نعم".

"أنت فتى صالح".

"هل لي أن أجلس؟". نظرت إلى المقعد الآخر الوحيد هنا.

ترددت قليلاً ثم هزت رأسها موافقة. "لكن فقط للحظات، لأن فرديناند أوشك أن يأتي".

"بالطبع".

جلست على المقعد.

"فرديناند؟".

"لا". هزتْ رأسها رافضة. "الكاهن؟".

نظرتُ مجدداً إلى حيث يجلس متدلياً على كرسيه.

اعترف.

"نعم، قلت إنه خدعهم جميعاً. ماذا عنيت بذلك؟".

"سيقان".

"عفواً؟".

مالت نحوي وأمسكت فخذي بأصابعها العظمية، تراجعت. أنا لست شخصاً يستمتع باللمسات المفاجئة في معظم الأحيان. واليوم بالتحديد ليس وقتاً مناسباً.

قالت: "أحب رجلاً له ساقان جميلتان. أما فرديناند فله ساقان جميلتان وقويتان".

"فهمت" في الحقيقة لم أفهم، لكن بدت الموافقة على هذا أسهل. "وما علاقة هذا بالكاهن؟"

"الكاهن؟". شحب وجهها مجدداً. وأصبحت قادراً على رؤيتها تعود بالذاكرة إلى الماضي. تركت ساقي وحدقت إليّ. "من أنت؟ وماذا تفعل على مقعد فرديناند؟".

"آسف". ونهضت. تؤلمني ساقي اليسرى قليلاً جراء قبضتها.

"اذهب وأحضر فرديناند، لقد تأخر".

"حسنا سأذهب. سررت بمقابلتك.. مجدداً".

لوحت بيدها رافضة، ورجعت عبر الباب الفرنسي. كانت الممرضة تنظف فم أحدهم، ونظرت إليّ.

وقالت: "لم أكن أعلم أنك تعرف السيدة بيني؟".

"قابلتها عندما أتيت مع أمي منذ سنوات. إني متعجب من أنها لا تزال هنا".

"ثمانية وتسعون عاماً ومندفعة بقوة".

ساقان قويتان.

"ولا تزال تنتظر فرديناند؟".

"آه، نعم".

"إنه الحب الحقيقي؛ لا تزال تنتظر خطيبها طوال هذه السنوات".

"حسناً، هذا ممكن". قومت وضعيتها وابتسمت لي ابتسامة عريضة أخرى.

"باستثناء، على ما يبدو، أن خطيبها المتأخر لا يدعى ألفريد".

مشيت عائداً إلى المنزل. كان باستطاعتي القيادة إلى مصحة سانت ماغدالين لكن المسافة تستغرق ثلاثين دقيقة مشياً على الأقدام من البلدة، وكنت أرغب بتصفية ذهني.

ولأكن صادقاً، وبالرغم من المشي، لم يصفُ ذهني جيداً. فما زالت الكلمات والجمل تطوف في ذهني، كالنثار في عالم ثلجي.

اعترف. ساقان قويتان. خطيبها المتأخر يدعى ألفريد.

يوجد خطب ما هناك. يكاد يكون ظاهراً عبر الذبذبات. لكني لا أستطيع أن أصفي ذهني من أفكاري المتقلبة لألتقطه. ارتديت معطفي. كانت الشمس قد غابت، وبدأت الغيوم السوداء بالتجمع؛ ظل أسود وراء كتف النهار.

يراودني شعور غريب حول المحيط والعلامات المعروفة. وكأني غريب في عالمي الخاص. وكأني، طوال هذه المدة، كنت أنظر إلى الأشياء بطريقة خاطئة. ولعلني لم أكن أنظر.

يبدو كل شيء أشد وأقسى، كنت على وشك تخيل بأني لو لمست ورقة شجر كانت لتتفتت بين أصابعي. تذكرت ما كان في السابق حافة الغابة والذي أصبح اليوم منطقة سكنية. أجد نفسي أنظر باستمرار إلى الخلف، أرف عيني عند كل هبة ريح. أرى فقط رجلاً برفقته كلب لابرادور، وامرأة تجر عربة نحو موقف الحافلة.

لكن هذا ليس صحيحاً كلياً. فأنا أعتقدت أنني رأيت مرة أو مرتين شيئاً أو أحداً يرصدني في الظلال خلفي، وميض من بشرة عاجية، طرف قبعة سوداء، ولمعان شاحب لشعر أبيض، يؤخر اللمعان للحظة في زاوية عيني.

وصلت المنزل، أشعر بالقلق وضيق في التنفس، والعرق يبللني بالرغم من برودة الطقس. وضعت يدي الرطبة على مقبض الباب. ما زال عليّ إحضار أحدهم ليغير القفل. لكنني الآن أحتاج إلى مشروب. خذ هذا. أحتاج مشروباً. بل الكثير منه. مشيت في الصالة ثم توقفت. خيّل إليّ أنني سمعت ضجة، لكن ربما هي الرياح! ومع ذلك، نظرت حولي.. هنالك خطب ما. شيء مختلف في المنزل. هنالك رائحة. عبق فانيليا مبهم، أنثوي، من الخارج. وباب المطبخ مفتوح. ألم أغلقه قبل خروجي؟

ناديت: "كلوي؟"

وتردد الصدى. رميت مفاتيحي على الطاولة. وقفزت وجلاً حتى أن رأسي كاد يبلغ السقف عندما سمعت صوتاً ساخراً من المطبخ.

2016

شعرها مسترسل يلامس كتفيها، وقد صبغته باللون الأشقر. لا يليق بها. تلبس بنطال جينز وسترة مقاتلي الفو وتنتعل كونفرس. وجهها خال من الماسكرا السميكة التي تضعها حول عينيها. لا تبدو مثل كلوي. ليست *كلويتي*. لكنني أفترض أنها لم تكن لي في الأساس.

قلت: "مظهر جديد؟"

"إنه فقط تغيير وهمي".

"أعتقد أنني أفضل المظهر القديم".

"أعلم هذا، متأسفة".

"لا داعي للأسف".

"لم أقصد إيذاءك يوماً".

"لست متأذياً. أنا غاضب".

"إيد..".

"احتفظي بما ستقولينه. أعطيني سبباً واحداً يمنعني من الاتصال بالشرطة الآن؟".

"أنا لم أرتكب أي عمل خاطئ".

"الملاحقة؟ رسائل التهديد؟ وماذا عن جريمة القتل".

"جريمة القتل؟".

"لاحقتِ ميكي نحو النهر تلك الليلة ودفعته".

"يا للهول، إيد". هزت رأسها. "ولِم أقتل ميكي؟".

"أنت من عليه إخباري".

"هل هذا هو الجزء الذي أقوم فيه بالاعتراف بكل شيء، مثل رواية بوليسية سيئة؟".

"اعتقدت بأن هذا سبب عودتك".

رفعت حاجبيها. "في الحقيقة، تركت زجاجة شراب في الثلاجة".

"افعلي ما شئتِ".

مشت وأمسكت بزجاجة زفير بومباي.

"هل تريد كأساً؟".

"سؤال سخيف".

سكبت كأسين، وجلست أمامي ورفعت كأسها "بصحتك".

"نشرب نخب ماذا؟".

"الاعتراف".

اعترف

رشفت رشفة كبيرة، وتذكرت بأني لا أحب الشراب لكن زجاجة الآن ستفي بالأمر.

"حسناً. أنتِ أولاً. لماذا أتيتِ لتعيشي معي؟".

"ربما لديّ شيء للرجال الأكبر سناً".

"كان هذا ليجعل عجوزاً يفرح".

"الآن؟".

"أنا فقط أحب الحقيقة".

"حسناً. منذ سنة فقط، تواصل صديقك ميكي معي".

"ميكي؟". لم تكن هذه الإجابة التي توقعتها. "لماذا؟ وكيف استطاع إيجادك في الأساس؟".

"لم يفعل. بل وجد والدتي".

"اعتقدت أن والدتك متوفية".

"لا. هذا فقط ما قلته لميكي".

"كذبة أخرى.. يا للعجب".

"ربما هي كذلك. فهي لم تكن أماً رائعة. قضيت نصف مراهقتي مهمشة".

"اعتقدت أنها قد وجدت الله؟".

"نعم، حسناً، بعد أن وجدته، وجدت أيضاً الشراب والحشيش وأي رجل بإمكانه شراء شراب لها".

"آسف".

"لا داعي للأسف. على كل حال، لم يستغرقها كثير من الوقت لإخبار ميكي من هو والدي الحقيقي. ولهذا، شربت نصف زجاجة شراب تقريباً".

"وبعدها وجدك ميكي؟".

"نعم".

"هل كنت تعلمين من هو والدك؟".

هزت رأسها موافقة "أخبرتني أمي منذ سنوات، عندما كانت ثملة. لم أهتم للأمر. فهو لم يكن بالنسبة إليّ سوى مانح للمني، لكني زيارة ميكي استفزتني. بالإضافة إلى أنه عرض عليّ صفقة. إن ساعدته لأجل كتاب سيكتبه، سيعطيني جزءاً مما سيجني".

"يبدو هذا مألوفاً".

"نعم. وعلى عكسك، أصررت أن آخذ دفعة على الحساب".

ابتسمت بحزن وقلت لها: "بالطبع".

"انظر، أنا لا أشعر بالفخر بشأن هذا، لكني قلت لنفسي بأني أقوم بهذا من أجلي أيضاً، البحث عن عائلتي، وماضيّ".

"وإن حصلت في مسعاك هذا على بعض المال فلا ضير في ذلك، أليس كذلك".

زمّت وجهها "ما الذي تريدني أن أقوله يا إيد؟".

لم أرد أن تقول شيئاً، تمنيت أن يكون كل هذا كابوساً مريعاً، ولكن في بعض الأحيان يكون الواقع أشد بشاعة من الكوابيس.

"عملياً، أعطاكِ ميكي نقوداً لتتجسسي عليّ وعلى نيكي. ولكن لماذا؟".

"قال إن هذا سيجعلك متحرراً أكثراً".

"وصادف أن كان لديّ غرفة شاغرة. توقيت ممتاز".

بل أكثر من رائع، بالطبع. حينها تساءلت لماذا غيّر طالب الطب رأيـــه و لم يعد راغباً بالعيش هنا وطالب باسترجاع تأمينه. لكني الآن أســـتطيع أن أخمـــن السبب.

سألتها: "وماذا بشأن المستأجر الآخر؟".

لمست طرف كأسها. "لعله ذهب بصحبة فتاة لتناول بعـــض الشـــراب، وأخبرته حينها بأنك داعر وترتكب أفعالاً سيئة مع طالب الطب، لذا عليـــه أن يقفل باب غرفته في المساء".

"تماماً مثل الخال مونتي".

"في الواقع، لقد أسديت لك خدمة. فقد كان أحمق".

أومأت. لا يضاهي أي أحمق الأحمقَ القديم، بالطبع باستثناء أحمق متوســـط العمر، وملأت كأسي. ثم شربت نصفه تقريباً برشفة واحدة.

"وماذا عن الرسائل؟".

" لم أكن أنا من أرسلها".

"من إذاً؟"

وقبل أن تجيب. أجبت بنفسي عن ذلك السؤال. "إنـــه ميكـــي، ألـــيس كذلك؟".

"نعم، هذا صحيح. لقد أصبت".

بالطبع. نبش الماضي، ولفت النظر إلينا. إنه من كتبـــها كلـــها. لكـــن في النهاية، أعتقد أن الأمر انقلب عليه.

" لم تقومي بأذيته؟".

"بالطبع لا. يا يسوع. هل تعتقد أن باستطاعتي قتل أحد؟".

وقفة صمت "لكنك على حق، لقد تبعته بالفعل تلك الليلة".

وفجأة تذكرت شيئاً ما. "أخذتِ معطفي؟".

"كان الجو بارداً. وأخذته في طريقي".

"لماذا؟".

"حسنا، كان يليق بـــي أكثر..."

"أقصد. لماذا تبعته؟".

"أعلم أنك ربما لن تصدقني. لكني كنت قد سئمت من الأكاذيب. سمعت بعضاً من الكلام الذي كان يقوله لك، لذا غضبت. وتبعته لأخبره بأني قد اكتفيت من هذا".

"وماذا حصل؟".

"ضحك عليّ، واقمني بأني عشيقتك. وبأنه يتوق لكتابة ذلك في كتابه، ليزيد الأمر جاذبية وتشويقاً".

إنه ميكي الصالح ذاته.

وأكملت كلوي: "حينها صفعته، ربما أقوى مما قصدت. وبدأ أنفه ينزف، وشتمني... وتزحلق إلى..".

"النهر؟".

"لا أدري. لم أمسكه.. لكني أيضاً لم أدفعه".

"وماذا بشأن معطفي؟".

"تلطخ بالقليل من دم ميكي. لم أكن أستطيع إرجاعه، لذا حشرته أسفل خزانتك".

"شكراً لكِ".

"لم أعتقد أنك ستتذكره".

"حتى الآن، كل شيء مقنع".

"لست هنا لإقناعك يا إيد. صدق ما ترغب فيه".

لكني فعلاً أصدقها. بالطبع، لكن السؤال عما حل بميكي بعدها يبقى مطروحاً دون إجابة.

سألتها: "لم رحلتِ؟"

"أخبرني صديقي في المحل أنك تبحث عني. وقلت لنفسي إنك في حال اكتشفت أمر نيكي، فستعلم بأني كنت أكذب. و لم أكن قادرة على مواجهتك حينها".

نظرت إلى كأسي "لذا هربتِ؟".

"لقد عدت".

"لأجل الشراب".

"ليس لهذا فقط".

أمسكت يدي. وقالت: "لم تكن أكاذيب كلها يا إيد، فأنت صديقي. وفي تلك الليلة عندما كنت ثملة، أردت فقط أن أخبرك حقيقة كل شيء".

كنت لأسحب يدي بعيداً، لكن ليس لديّ الكثير من الكبرياء. وتركت أصابعها الشاحبة والباردة ترتاح على يدي للحظات قبل أن تسحبها وتضعها داخل جيبها.

"أعلم أنه ليس باستطاعتي تصحيح كل شيء، لكنني أعتقد بأن هذا قد يساعد".

ووضعت دفتراً أسود اللون على الطاولة.

"ما هذا؟".

"دفتر ملاحظات ميكي".

"كيف حصلت عليه؟".

"سرقته من جيب معطفه عند زيارته تلك الليلة".

"إنك لا تجعلينني أقتنع بصدقك".

"لم أقلِ إنني كنت صادقة. قلت إنها لم تكن جميعها أكاذيب".

"ماذا كُتب فيها؟".

هزت كتفيها استهجاناً. "لم أقرأ كثيراً. و لم يكن أي شيء منطقياً بالنسبة إليّ، لكنه يمكن أن يكون كذلك بالنسبة إليك".

قلبت بعض الصفحات. إن خربشة ميكي بالكاد تكون مقروءة وأفضل من خربشتي. في الحقيقة لم تكن جملاً متناسقة. أشبه بالملاحظات أو الخواطر، أسماء (يعلوها اسمي). وأغلقته مجدداً. يمكن أن يكون مساعداً وقد لا يكون. لذا أفضل الاطلاع عليه لاحقاً، وبمفردي.

قلت لها: "شكراً".

"مرحّب بك دائماً".

هنالك شيء آخر أريد معرفته أيضاً: "لماذا زرتِ والدك؟ هل كان ذلك لأجل ميكي و كتابه أيضاً؟".

نظرت إلّي مندهشة. "هل كنت تقوم ببعض الأبحاث بنفسك؟".

"القليل منها".

"حسناً. لم يكن لذلك علاقة بميكي. قمت بذلك لأجلي. وبالطبع كان شيئاً عديم الفائدة. لم يكن يملك أدنى فكرة عن هويتي. ربما هذا أفضل، أليس كذلك؟".

وقفت وانتزعت حقيبة ظهر عن الأرض تحتوي على كيس تخييم.

"لا تكفي نقود ميكي فندق خمس نجوم؟".

"لا تكفي حتى لفندق ترافلودج". نظرت إليّ ببرود. "سأسدد بها قسط الجامعة في السنة القادمة، إن كان هذا يهمك".

حملت الحقيبة على ظهرها.

بالرغم من كل شيء قلت لها: "ستكونين بخير، أليس كذلك؟".

"يوم أو يومان من التخييم في الغابة لا يضران".

"الغابة. لابد أنك تمزحين؟ ألا تستطيعين البحث عن فندق أو شيء ما؟".

رمقتني بنظرة: "لا بأس، قمت بذلك من قبل".

"لكنها ليست آمنة".

"هل تقصد بسبب الذئب الكبير السيئ، أو الساحرة المشعوذة وبيتها الشبيه بكعكة الزنجبيل؟".

"حسناً. اسخري منا".

مشت نحو الباب وقالت "أراك قريبا يا إيد".

كان عليّ أن أقول شيئاً، أي شيء يناسب إنهاء علاقتنا. لكني لم أفعل. ومرت اللحظة لتنضم إلى اللحظات الضائعة الأخرى في الهاوية؛ لحظات "كان عليّ، وكان باستطاعتي، وفقط لو.." المجموعة داخل الثقب الأسود الكبير في صميم حياتي.

أُغلق الباب الأمامي بقوة. وحملت كأسي فوجدهّا فارغة. أعدت زجاجة الشراب. نهضت وأمسكت زجاجة أخرى أميركية بدلاً منها وسكبت كمية كبيرة. وجلست وبدأت أقلّب في صفحات الدفتر مجدداً. فكرت فقط بأني سأتفحصه بشكل موجز. ولكنني أتيت على الكأس الرابعة وما زلت أقرأ. لأكون منصفاً، كلوي محقة: كثير من الأشياء بداخله لا تبدو منطقية. أفكار عشوائية، تيار الوعي، بالإضافة إلى أن لغته أسوأ بكثير من خطه. لكن مع هذا، صرت بصفحة قريبة من النهاية:

من أراد قتل إليزا؟ رجل الطباشير؟ لا أحد.
من أراد أذية ريفد مارتن؟
جميعهم!! المشتبه بهم: والد إيد، والدة إيد، نيكي. هانا توماس؟
تحمل طفل مارتن. والد هانا؟ هانا؟
هانا – ريفد مارتن. إليسا – مستر هالوران. لينك؟ لم يكن أحد يريد إيذاء إليزا – مهم.

شعر.

شيء ما علق في ذهني، لكني لا أستطيع الوصول إليه تماماً. في النهاية، أغلقت الدفتر ورميته بعيداً. تأخر الوقت وأنا مخمور. لم يسبق لأحد أن وجد أي إجابات في أسفل زجاجة مشروب. ليست هذه الفكرة بالطبع. الفكرة هي أنه عندما تصل إلى نهاية الزجاجة تنسى الأسئلة أصلاً.

أطفأت النور، وبدأت أترنح في الطابق العلوي. ثم أعدت النظر في الأمر، وعدت إلى المطبخ. وأمسكت بدفتر ملاحظات ميكي وأخذته معي. استخدمت الحمام، ووضعت الدفتر على الطاولة بجانبي، وغصت في النوم. أملت أن يجعلني الشراب أغيب عن الوعي لفترة قبل أن أغفو. إنها وجهة نظر غير مهمة. فالنوم تحت تأثير الشراب شيء مختلف. إنه تماماً غير واعٍ، النوم الحقيقي يجعلك تنجرف وتحلم. وأحياناً... تستيقظ.

فجأة انفتحت عيناي، ليس هناك أي صعود تدريجي لمراحل النوم. قلبي يخفق بقوة، وجسدي مغطى بطبقة رقيقة من العرق، وعيناي مفتوحتان بدهشة، شيء ما أيقظني، لا. الأصح شيء ما جرني نحو الاستيقاظ. بحثت في الغرفة. إنها خالية، ولكن في الحقيقة ما من غرفة خالياً تماماً، ليس في الظلام. فالخيالات تتربص في الزوايا وعلى الأرض، تترنح، وأحياناً تتقلب. لكن ليس هذا ما أيقظني. بل إنه الإحساس بأن شخصاً ما كان يجلس على سريري منذ لحظات.

نهضت. كان باب الغرفة مفتوحاً على مصراعيه. أنا واثقٌ من أنني أغلقته قبل أن أخلد إلى النوم، دخل من النافذة شعاع شاحب من ضوء القمر يضيء الممر، أعتقد أن القمر كان بدراً الليلة، هذا مناسب، أنزلت ساقيّ عن السرير، وبدأ الجزء الصغير المنطقي من عقلي - الشيء الذي يبقى موجوداً حتى في حالة النوم - يخبرني بأن هذه فكرة سيئة، فكرة سيئة بالفعل، واحدة من أسوأ الأفكار. عليّ الاستيقاظ الآن. لكني لا أستطيع. ليس من هذا الحلم. فبعض الأحلام شبيهة بأشياء ما في الحياة، عليها أن تأخذ مجراها. حتى لو استيقظت، فإن الحلم سيعود. فهذه الأنواع من الأحلام دائماً تعود، حتى تتبعها إلى القلب المتعفن في الأسفل وتقطع الجذور المتقيحة.

وضعت قدميّ داخل الخف، وارتديت معطفاً، وشددته على خصري، وخرجت إلى الممر. نظرت إلى الأسفل. وجدت وسخاً على الأرض، وشيء آخر، أوراق أشجار. أسرعت بالمشي، نزلت الدرج، عبرت الرواق، ووصلت إلى المطبخ. كان الباب الخلفي مفتوحاً، وطيف من الهواء البارد لامس كاحلي العاريين، لم أستنشق هواء المساء العليل بل رائحة مختلفة، رائحة فاسدة ومتعفنة.

وكرد فعل طبيعي، أغلقت أنفي وفمي بيدي. ونظرت إلى الأسفل، نحو أرض المطبخ المظلمة. رجل الطباشير، يد تشير نحو الباب. بالطبع. رجل الطباشير يدلك إلى الطريق، كما في السابق. انتظرت للحظة، وألقيت بندم نظرة أخيرة إلى سكين المطبخ المعتاد عليها، وخرجت من الباب الخلفي.

لم أكن أقف على الطريق. لقد نقلني الحلم إلى مكان آخر؛ الغابة. أسمع

جلجلة الخيالات وهمهمة من حولي، والأشجار تتأوه، والأغصان تتمايل في كل ميل، والنوم الهادئ يجتاحه رهاب الليل.

في يدي مصباح لا أذكر كيف أحضرته، أنرته ولاحظت حركة أمـــامي، تقدمت إلى الأمام، محاولاً تجاهل دقات قلبـــي المضطربة، مشيت مترنحاً علـــى الأرض غير المستوية. لست واثقاً من مقدار المسافة التي عبرتها. بدا لي أنني سرت لوقت طويل، لكنه على الأرجح لبضع ثوانٍ فقط. أشعر أني قريب، لكن قريب من ماذا؟

توقفت، بدت لي الغابة أصغر، كنت أقف في منطقة منفرجة، أدركت أنه المكان ذاته، لم يتغير على مدى السنوات، حركت نور المصباح حولي، وجدت المكان خالياً إلا من عدة أكوام من أوراق الأشجار، لم تكن أوراقاً يابسة برتقالية وبنية كما في السابق بل رمادية متعفنة. كانت تتحرك، أدركت بفزع، أن كـــل كومة كانت تتحرك بلا هوادة مصدرة صوتاً شبيه بـــ إيديبي......إيديبي..

لم يكن صوت شون كوبر ولا صوت السيد هالوران بل كان صوت أنثى.

انفجرت أول كومة من أوراق الأشجار، وامتدت يد شـــاحبة في الهـــواء كحيوان ليلي يستيقظ من ثباته الشتوي. كبتّ نفسي كي لا أبكي، ومن كومة أخرى ظهرت أظافر مطلية باللون الزهري، ومشت ساق ببطء علـــى غصـــن مغطى بالدم، وفي النهاية انبثق جذع من كومة أخرى، هزيل ومتنـــاغم، وبـــدأ بدفع نفسه على الأرض كدودة ذات شكل بشري.

لكن لا يزال هناك شيء ما مفقود. نظرت حولي بينما كان هذا الشـــيء يمشي على أنامله، نحو أبعد كومة من أوراق الأشجار، واختفى تحتها. بعد ذلك، وتقريباً بشكل رهيب، نهضتْ من الكومة المتعفنة، يتدلى شعرها على وجههـــا نصف المحطم، تحمل طائراً على ظهر يدها المبتورة.

قال ذهني بتأوه: لكنه قطع يدها. لكن هذا يعتبر تفصيلاً مهماً ضمن هـــذه اللوحات الغريبة.

وبوقاحة، خرج من مثانتي المملوءة بالشراب بول بلل بيجـــامتي. بالكـــاد لاحظت هذا. فكل ما أستطيع رؤيته هو رأسها يسرع نحوي، ووجهها الذي ما

زال محجوباً بستارة من شعر حريري. ترنّحت إلى الخلف، ودست على جذع شجرة فوقعت على ظهري.

لامست أصابعها كاحلي، رغبت بالصراخ، ولكن حبالي الصوتية كانت ساكنة، ومنومة مغناطيسياً. وبدأ رأسها ويدها يصعدان بهدوء على قدمي، يقشطان منفرجي الرطب، ويرتاحان للحظة على معدتي. تراجعت إلى ما وراء الخلف، وإلى ما وراء الاشمئزاز، وعلى الأرجح بضع خطوات إلى ما وراء الصواب.

وهمستْ: "إيديبي.. إيديبي".

مررتْ يدها على صدري، وبدأت ترفع رأسها. حبست أنفاسي منتظراً أن تنظر إليّ تانك العينان المتهمتان.

اعترف. أعتقد. *اعترف*.

"أنا آسف، أنا آسف".

مررتْ أصابعها على ذقني وشفتي. ومن ثم لاحظتُ شيئاً ما. كانت أظافرها مطلية بالأسود. هذا ليس صحيح. هذا ليس...

*

رفعت شعرها إلى الوراء، كان أشقر، ومصبوغاً بالأحمر مع بعض الدماء حيث بترت الرقبة.

ولاحظت خطئي.

استيقظت ووجدت نفسي ملقى على الأرض بجانب السرير، جلست هناك أرسم وأدع الواقع يطوف بجوارحي. باستثناء أنه لا يعمل بشكل طبيعي، لا يزال الحلم عالقاً في ذهني، لا أزال قادراً على رؤية وجهها، والشعور بأصابعها تلمس شفتي، تحسست شعري، ووجدت غصيناً، نظرت إلى الأسفل نحو قدميّ، ورأيت أن نهاية بيجامتي وخفي ملطخان بالأوساخ وبقايا أوراق الأشجار المسحوقة. واستطعت شم رائحة البول الكريهة.

هنالك شيء ما آخر، عليّ الإمساك به قبل أن يبتعد مجدداً مثل العنكبوت الأحمق من حلمي. أرغمت نفسي على الصعود إلى الفراش. أشعلت الضوء

الجانبـــي، وأحضرت دفتر ميكي عن الطاولة. قلبت الصفحات بســـرعة إلى أن وصلت إلى الصفحة الأخيرة.

كنت أحدق إلى ملاحظات ميكي، وفجأة تفتح شيء ما في ذهني. أستطيع سماع أزيز المصبح وهو ينير. بدا الأمر كما عندما تحدق إلى إشارات بصـــرية، ومهم حاولت، فكل ما تستطيع رؤيته سلاسل من النقط والخطوط. وعنـــدما تتحرك، سترى اللوحة المخفية. واضحة كالشمس. وفي حال رأيتها، ستتســـاءل عن سبب عدم رؤيتك لها من قبل، إنه شيء واضح جداً.

طوال الوقت، كنت أنظر إلى هذه الأشياء بشكل خاطئ، بل الجميع نظروا بشكل خاطئ، يعود السبب في ذلك على الأرجح إلى أنه لا يوجد أحد لديـــه القطعة الأخيرة، على الأرجح لم تكن كل صور إليزا الصورة الحقيقيـــة. إن لم تكن الفتاة الجميلة التي قطعت بقسوة. لم تكن الفتاة التي حاولنا أنـــا والســـيد هالوران إنقاذها.

والأكثر أهمية من هذا، أنه لم تكن إليزا هي التي من قررت التغيير، لم تكن هي التي صبغت شعرها، لم تكن من بعيد تشبه إليزا أبداً.

لم يرد أحداً أذية إليزا – مهم. شعر

90-1986

عندما كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، كنت من أشد المعجبين بمسلسل *الدكتور هو*. وعندما أصبحت في الحادية عشرة، شعرت بأنه أصبح قديماً وتافهاً. في الواقع، برأي ابن الثانية عشرة تداعى كل شيء عندما انبعثت روح بيتر دافيسون في كولن بيكر، والذي لم يكن أبداً رائعاً مثله، بسترته الملونة الغبية وربطة عنقه المنقطة.

أياً يكن الأمر، حتى ذلك الوقت أحببت كل حلقة منه، وخاصة الحلقات التي يتركون فيها النهاية معلقة. وكانت تدعى "الجرف المعلق".

هذا كان أفضل، لأنه كان يتركك طوال الأسبوع منتظراً الحل، حيث كانوا ينهون الحلقة، بينما يكون خطر هائل محدق بالدكتور، ومحاط بمجموعة من الداليكس الذين يريدون إبادته، أو أنه على متن سفينة فضائية على وشك الانفجار، أو في صراع مع وحش ضخم ليس هنالك أي مهرب منه. لكنه دائماً ما كان يجد حلاً، ويتضمن هذا الحل في العادة ما كان يلقبه غاف السمين بـ "التبخر الضخم"؛ توفير مهرب سري، أو إنقاذ فجائي من الوحدة، أو شيء ما خارق يقوم به الدكتور بواسطة مفك البراغي سونيك خاصته. بالرغم من أنني دائماً ما رغبت بمتابعة التتمة، لكني لطالما شعرت بخيبة الأمل، وكنت أشعر وكأنني تعرضت للخيانة.

في الحياة الواقعية، أنت لا تتعرض للخيانة، ولا تضطر للهروب من قدرك المريع لأن مفك براغٍ تطابق مع زر التدمير الذاتي لرجال الإنترنت. إن الحياة ليست كذلك.

ومع هذا، وبعد أن سمعت خبر موت السيد هالوران، أردت التعرض للخيانة، وأردت بعض الشيء بألا يكون السيد هالوران ميتاً. وأن يظهر أمام

الجميع ويقول: "*في الواقع، أنا ما زلت حياً. لم أقم بذلك، وإليكم ما قد حصل حقاً..*"

وشعرت بأن القصة قد بدت غير صحيحة، رغم وجود نهاية لها، لم تكن قصة جيدة، كانت الخاتمة ضعيفة، شعرت بأنها ناقصة، وبأن بعض الأشياء قد أزعجتني، أفترض أنه من الممكن تسميتها "ثغرات الحبكة". في حال كنا نتكلم عن *الدكتور*، هي أشياء يأمل الكُتاب ألا تلاحظها، لكنك فعلت.

قال الجميع إن السيد هالوران كان مختلاً عقلياً، وكأن هذا يبرر كل شيء. لكن سواء كنت مختلاً عقلياً، أو سحلية يصل طولها إلى ستة أقدام في مسلسل *الدكتور* هو، فسوف يكون لديك أسباب للقيام بتلك الأشياء.

عندما أخبرت غاف السمين وهوبو بذلك (لأنه، وبالرغم من اكتشافنا الجثة سوية، لم يقربنا ذلك من ميكي، ولم يقدمنا أي خطوة إلى الأمام)، فما كان من غاف السمين إلا أن رمقني بنظرة سخط وهو يلف إصبعه على جانب رأسه وقال: "يا صديقي، لقد قام بذلك لأنه مخبول".

لم يقل هوبو الكثير، باستثناء مرة واحدة، عندما تمادى غاف السمين بالحديث وبدا أن الأمر سيتطور إلى جدال بينهما. فأضاف بهدوء: "لعل له أسبابه. ونحن فقط لا نفهمها، لأننا لسنا *الدكتور* هو".

أفترض أنه لا يزال هناك شيء من الإحساس بالذنب، نظراً لدوري في ذلك لا سيما موضوع الخاتم.

هل كان الناس ليصدقوا أن السيد هالوران هو المذنب لو أنني لم أترك الخاتم في ذلك اليوم؟ ربما كان سيفكرون بذلك لأنه انتحر، ولكنهم ما كانوا ليلصقوا به التهمة بسرعة لولا الخاتم، ربما كانوا سيستمرون في البحث عن أدلة أخرى. كسلاح الجريمة. أو رأس الضحية.

لم تشعرني أجوبة هذه الأسئلة بالرضا، لذا استبعدتها. مر الوقت، وبدأت أحداث ذلك الصيف تتلاشى من ذكرياتنا. أصبحنا في الرابعة عشرة من عمرنا، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة. الامتحانات، الهرمونات والفتيات سيطرت على أفكارنا.

في ذلك الوقت، شغل ذهني شيء آخر. فقد بدا أبـــي يعاني من المـــرض، وبدأت الحياة تشكل روتيناً يومياً كان عليّ الاعتياد عليه لسنوات عديدة لاحقة. الدراسة ومن ثم العمل والتعامل مع ذاكرة والدي التي كانت تضمحل يوماً بعد يومٍ، وإحباط أمي كل ليلة.

بدأ غاف السمين بمواعدة فتاة جميلة ممتلئة الجسم تدعى شيريل. وبـــدأ أيضاً بفقدان وزنه تدريجياً. في البداية، بدأ بأكل كميات أقـــل واســـتخدام دراجته أكثر. وانضم إلى نادٍ للركض، وعلى الرغم من أنه رأى الموضوع كله على أنه مزحة كبيرة، إلا أنه بدأ بالركض أسرع، وأبعد، واستمر بفقـــدان وزنه. بدا وكأنه يستغني عن ذاته القديمة. وأعتقد بأنه قد فعل ذلك. ومـــع فقدانه لوزنه، فقد أيضاً سلوكه الهمجي، وحس الفكاهة الثابت لديه. أصبح يمزح أقل ويدرس أكثر، وعندما لم يكن يدرس، كان بصحبة شيريل. وكما فعل ميكي من قبل بدأ غاف بالابتعاد، وهكذا لم يبقَ من المجموعة إلا اثنـــان أنا وهوبو.

خرجت في موعدين غراميين، لكن لم يكن أي منهما جـــدياً. وإحـــدى اللواتي أعجبني كانت معلمة اللغة الإنكليزية ذات الملامح القاســـية، والشـــعر الأسود والعينين الخضراوين المدهشتين.

لم يبدُ أن هوبو مهتم بالفتيات قبل أن يلتقي بلوسي (الفتاة التي خانتـــه في النهاية مع ميكي وتسببت بالشجار في الحفلة التي لم أحضرها).

وقع هوبو في الحب حقاً. أنا كطفل، لم أفهم هذا تماماً. أقصد، صحيح أنها كانت فتاة جميلة، لكن ليس فيها أي شيء مميز. تشبه الفأر نوعاً ما/ ذات شـــعر بني، وتضع نظارة. كانت ترتدي ملابس غريبة نوعاً ما، وتنانير طويلة وأحذيـــة كبيرة، وقمصان مربوطة.

ولاحقاً أدركت بمن كانت تذكرني؛ بوالدة هوبو.

أياً يكن الأمر، لقد بدوا منسجمين ومتطابقين تماماً. كانا يحبـــان الأشـــياء ذاتها، على الرغم أني أعتقد أنه، في العلاقات، نقوم ببعض التنازلات وندعي بأننا نحب أشياء لا نحبها حقيقة، لإرضاء الطرف الآخر.

الأصدقاء يقومون بذلك أيضاً. لم أحب لوسي، لكنني ادعيت أنها تعجبني وذلك من أجل هوبو. في ذلك الوقت كنت أواعد فتاة من الصف الأصغر مني بعام، تدعى إنجي، جميلة القوام، في الحقيقة لم أغرم بها بل ادعيت ذلك. وكانت سهلة (لكن لأكون منصفاً، لم تكن سهلة إلى هذا الحد، لكنها أيضاً لم تكن صعبة). كان من السهل التواجد معها: غير متطلبة، ومريحة. وفي ظل الظرف التي كنت أمر بها -مرض والدي- فقد كنت بحاجة إليها.

خرجنا في عدة مواعيد مزدوجة مع هوبو ولوسي. لا أستطيع القول إن هناك قواسم مشتركة بين لوسي وإنجي، لكن الأخيرة كانت من الفتيات اللاتي يتآلفن مع الناس. الشيء الذي أراحني لأني لم أتكبد عناء ذلك.

ذهبنا إلى السينما، وإلى الحانات، ومن ثم اقترح هوبو شيئا مختلفا: "لنذهب إلى المعرض".

كنا في الحانة حينها. ليست حانة ذا بول، لأنه كان من المستحيل لوالد غاف أن يدعنا نطلب مشروباً. بل في حانة أخرى لا يعرفنا مالكها، ولأكون منصفاً، لم يكن ليهتم أساساً إننا كنا في السادسة عشرة من عمرنا فقط. كان شهر حزيران، لذا كنا نجلس في ردهة البيرة خارجاً. والتي كانت بالأساس فسحة صغيرة أثثت ببعض المقاعد والطاولات الخشبية المتعفنة.

تفاعلت لوسي وإنجي بحماسة مع اقتراح هوبو، وبقيت صامتاً، فأنا لم يسبق لي أن زرت المعرض منذ يوم الحادثة المريعة. لم أكن لأقول إنني كنت أتجنب الذهاب إلى المهرجانات أو الملاهي، لكني فقط لم أكن أشعر بالانجذاب للذهاب.

لكن هذا كان مجرد كذبة. لقد كنت خائفاً. ففي الصيف الماضي وخلال رحلة إلى ملاهي أسرفت في الشرب، وادعيت بأنني مصاب بتلبك معوي، الأمر الذي كان جزء منه صحيحاً. فكانت معدتي تنكمش في كل مرة أريد الصعود فيها إلى أي من الألعاب. كل ما استطعت رؤيته هو فتاة والتزر، متمددة على الأرض.

قالت إنجي: "إيد؟ ما رأيك؟" وهمست بأذني بقليل من الترنح: "سأدعك تداعبني في قطار الشبح".

أجبرت نفسي على الابتسام (فأنا، لحد الآن، لم أكن قد داعبت إنجي سوى في غرفتي المملة).

"نعم، يبدو هذا رائعاً".

لم يكن كذلك، لكني لم أرغب بأن أبدو جباناً أمام إنجي، ولأسباب أخرى، ليس أمام لوسي التي كانت ترمقني بنظرة غريبة. لم تعجبني، وكأنها كانت تعلم بأني أكذب.

كان الجو حاراً في يوم المعرض، تماماً كما في السابق، وكانت إنجي عند كلمتها. لكن، حتى هذا لم يقدم لي المتعة التي فكّرت بها، على الرغم من أني وجدت صعوبة في المشي، وأنا أخرج من قطار الشبح، وسرعان ما تناقصت عندما رأيت من أين خرجنا. تماماً مقابل والتزر.

وبشكل ما، لا بد من أني فقدهم، على الأغلب لأن الحشود كانت تحجبهم، أو لأن ذهني كان في مكان آخر، مثل تنورة إنجي الليكرا القصيرة وما كنت أنتظره، بشكل مغرٍ، تحتها ببضعة إنشات.

ووقفت جامداً أحدق إلى المركبات المتأرجحة. ودوى صوت جوفي جوفي من المكبرات في مكان ما. وصرخت الفتيات بفرحة بينما كان العاملون في العرض يقلبون المركبات.

"اصرخوا في حال أردتم سرعة أكبر".

وظهر هوبو بجانبي: "مرحبا"، ورأى ما كنت أنظر إليه: "هل أنت بخير؟".

أومأت برأسي كي لا أبدو جباناً أمام الفتيات، "نعم، أنا بخير".

قالت لوسي وهي تحتضن هوبو بذراعها: "هل نركب والتزر؟". قالتها بشكل بريء بما يكفي، لكن، حتى هذا اليوم أنا متأكد من وجود خطب ما وراء ذلك. شيء من المراوغة. والوضاعة. كانت تعرف، وكانت تستمتع بتعذيبي.

قلت: "ظننت بأننا كنا سنذهب إلى العجلة الدوارة؟".

"يمكننا الذهاب إليها لاحقًا. هيا بنا، إيدي، ستكون ممتعة".

كرهت أيضاً مناداتها لي باسم إيدي. لأنه كان اسماً للأطفال. ومنذ أصبحت في السادسة عشرة من عمري، رغبت بمناداتي إيد.

استهجنت قائلاً: "أعتقد والتزر مملة. لكن في حال أردت جولة فيها، فأنا لا أمانع".

ابتسمت قائلة: "ما رأيك يا إنجي؟".

عرفت ما كانت ستقوله إنجي، كذلك فعلت لوسي: "في حال كان هذا ما يريده الجميع؟ أنا سهلة".

للحظة تمنيت لو أنها ليست كذلك. تمنيت لو امتلكت رأياً، قوة. لأن "ضعيفة" مرادفة لكلمة "سهلة".

ابتسمت لوسي "عظيم، هيا بنا".

صعدنا إلى والتزر وانضممنا إلى الطابور الصغير عند الجانب. كان قلبي ينبض بسرعة ويداي رطبتين. ظننت أنني سأتقيأ قبل أن تبدأ الجولة.

نزل الركاب السابقون. ساعدت أنجي على الصعود محاولاً أن أبدو رجلاً نبيلاً بالسماح لها بالصعود أولاً. وضعت قدمي على الأرض الخشبية المتهادية، وتوقفت بعدها. شيء ما لفت انتباهي، أو بالأحرى شيء ما مرّ سريعاً في زاوية عيني بما يكفي ليجعلني أستدير.

وقف شخص طويل ونحيف قبالة القطار الشبح، متشحاً بالسواد. يلبس بنطالاً ضيقاً من الجينز الأسود، وقميصاً فضفاضاً، ويعتمر قبعة رعاة البقر السوداء وعريضة الحواف. كان يوليني ظهره، ويشاهد القطار الشبح، لكني استطعت رؤية شعر أشقر فاتح وطويل يتدلى على ظهره.

"إيدي، أمازلت معي؟".

مستحيل. من غير الممكن أن يكون السيد هالوران. فقد مات ودفن. وأيضاً شون كوبر مات ودفن!

نظرت إنجي إليّ وسألتني: "إيد؟ هل أنت بخير؟".

"أنا..."

نظرت باتجاه القطار الشبح. كان الشخص قد تحرك. رأيت ظلاً أسود يختفي عند الزاوية.

"آسف، عليّ أن أتفقد شيئاً ما". وقفزت من والتزر.

رمقتني إنجي بنظرة سيئة: "إيد؟ لا يمكنك الذهاب هكذا بكل بساطة".

بدت منزعجة كما لم تنزعج من قبل. لم يكن عندي شك أن لقاءنا على القطار الشبح، ربما سيكون آخر ما سأستمتع به لفترة، لكن حينها، لم يكن ذلك مهماً. كان عليّ الذهاب. عليّ أن أعرف.

تمتمت مجدداً: "آسف".

ركضت ببطء عبر أرض المعرض. انعطفت عند زاوية القطار الشبح حالما اختفى الشخص خلف أكشاك الحلوى والبالونات. أسرعت الخطى واصطدمت ببعض الأشخاص على الطريق مسبباً استهجانهم ومستجلباً شتائمهم. لم أهتم. أنا غير متأكد أني صدقت بأن الخيال الذي كنت أطارده كان حقيقياً، لكني لم أكن غريباً عن الأشباح، حتى وأنا مراهق لم أزل أتفحص خارج نافذة غرفتي في الليل لربما كان شون مختبئاً. لا أزال خائفاً من أن تشير أيّة رائحة كريهة إلى ملمس يد متعفنة على وجهي.

مررت مسرعاً بلعبة سيارات التصادم والأوربتير، الذي كان في ما مضى شيئاً عظيماً، لكن مع تطور الأفعوانيات وحتى الآلات الأكبر والأكثر رعباً، أصبحت مملة نوعاً ما. كنت أمشي وفجأة توقف الشخص، وتوقفت أنا أيضاً، مختبئاً وراء كشك هوت دوغ. راقبت يده كيف تدخل في جيبه وتسحب علبة سجائر.

حينها أدركت خطئي. اليدان. أصابع اليدين ليست نحيفة وشاحبة، بل خشنة بلون بني داكن وأظافر طويلة. استدار الشخص، فحدقت إلى وجهه المنهك، والخطوط العميقة على وجهه التي بدت وكأنها نُقشت بشفرة، عينان زرقاوان دُفنتا ضمن الندوب، لحية صفراء تدلت حتى صدره تقريباً. لم يكن السيد هالوران، حتى أنه لم يكن رجلاً شاباً، بل كان كهلاً غجرياً.

سألني بصوت خشن: "ما الذي تحدق إليه بنيّ؟"

"لا شيء، أنا... أنا آسف".

استدرت، وابتعدت بسرعة بكل ما تعطيني الكرامة – أو ما تبقى منها – من سرعة. توقفت عندما صرت بعيداً كفاية لأكون بعيداً عن النظر محاولاً أن

أتنفس، وأن أكبح نوبات الغثيان التي هددت بابتلاعي، ثم هززت رأسي. وعوضاً عن التقيؤ، انفجرت ضاحكاً. لم يكن السيد هالوران، لم يكن رجل الطباشير، إنما هو عامل كهل في المعرض، غالباً برأس أصلع تحت قبعة رعاة البقر تلك.

مجنون، مجنون، مجنون. أشبه بالقزم المعتوه من فيلم ***لا تنظر الآن*** (فيلم شاهدناه خلسة في منزل غاف السمين منذ بضع سنوات، وفقط لأننا سمعنا بأن دونالد سوذرلاند وجولي كريستي حقاً *فعلاها* أمام الكاميرا. في الواقع، كان الفيلم مخيباً للآمال، لأننا لم نرَ ما يكفي من جولي كريستي، ورأينا الكثير من ردفي سوذرلاند النحيلة البيضاء).

"إيد، ما الذي يجري؟".

نظرت إلى الأعلى لأرى هوبو يركض باتجاهي، تتبعه الفتاتان. لا بد أنهم تركوا الوالتزر بعدي مباشرة. وبدت لوسي منزعجة جداً من الأمر.

حاولت أن أتوقف عن الضحك كي أبدو عاقلاً.

"اعتقدت أنني رأيته، السيد هالوران، رجل الطباشير".

"ماذا؟ أتمزح؟".

هززت رأسي: "لم يكن هو".

قال هوبو مقطباً جبينه: "حسناً بالطبع لن يكون هو، إنه ميت".

قلت: "أعلم، أنا فقط..."

نظرت إلى وجوههم القلقة والمحتارة وأومأت ببطء. "أعلم هذا. لقد كنت مخطئاً، غبياً".

قال هوبو والقلق لم يفارق محياه: "لا عليك، هيا بنا لنشرب شيئاً ما".

نظرت إلى إنجي، فافترت ابتسامة خفيفة عن ثغرها، فأمسكت يدها. لقد سامحتني بسهولة.

مع ذلك، اغتنمت الفرصة وسألت: "من هو رجل الطباشير؟".

بعد فترة قصيرة، انفصلنا. أعتقد أننا لم نمتلك كثيراً من الأمور المشتركة، لم نعرف بعضنا جيداً. بالنهاية، ربما كنت شاباً ذا تاريخ حافل مع بنات الهوى،

وربما كنت بحاجة إلى شخص مميز قادر على مشاركة العبء. ربما لهذا السبب بقيت مصراً على البقاء أعزب لمدة طويلة. إلى الآن لم أجد هذا الشخص المناسب، وربما لن أجده أبداً.

بعد المعرض، قبّلت إنجي قبلة الوداع، وعدت متململاً إلى البيت. كانت الشوارع فارغة بشكل غريب، وكان السكان يستظلون فسحة الجعة والمروج الخلفية، حتى حركة السير في الطرقات كانت خفيفة، لا أحد يود أن يتعرق لمدة طويلة داخل علبة معدنية.

انعطفت عند زاوية شارعنا ولا أزال أشعر قليلاً بأشياء من الحادثة في المعرض. أفترض أني شعرت أيضاً بالغباء قليلاً. لقد فزعت بسهولة وبسرعة، اقتنعت بسهولة أنه أمكن أن يكون هو. غبي. تنهدت.

مشيت متثاقلاً على الطريق وفتحت الباب الأمامي. كان أبي جالساً في غرفة الجلوس على كرسيه المفضل ذي الذراعين، محدقاً إلى التلفاز. وكانت أمي في المطبخ تعد العشاء. كانت عيناها حمراوين وكأنها كانت تبكي. أمي لا تبكي. ليس بسهولة. أعتقد بأني اعتنيت بها بهذا الجانب.

سألتها: "ما الخطب؟".

مسحت عينيها، لكن لم تتعب نفسها بإخباري بأنه ما من خطب. أمي لا تكذب أيضاً. أو هذا ما ظننته، سابقا حينها.

قالت: "والدك".

وكأنه يمكن أن يكون أي سبب آخر. أحياناً - وما زلت أجده مخزياً للاعتراف به - كرهت والدي لأنه مريض، ولأنه قال وأقدم على فعل أشياء بدافع المرض، كرهته بسبب نظرة عينيه الخاوية والضائعة، كرهته لأن مرضه أثر في أمي وفي مراهقتي، فأنا كنت أريد أن يكون كل شيء طبيعياً في حياتي، ولكن مرض والدي لم يدعِ أي شيء طبيعياً في حياتنا.

سألتها وبالكاد محاولاً إخفاء ازدرائي: "ماذا فعل هذه المرة؟"

أجابتني: "لقد نسيني"، واستطعت رؤية دموع جديدة تفيض. "أخذت له الغداء، وللحظة فقط، نظر إليّ وكأني شخص غريب".

"أوه أمي". جذبتها نحوي وعانقتها بكل ما أُوتيت من قوة، وكأني أستطيع أن أعتصر كل الألم الخارجي، مع أن جزءاً صغيراً داخلي تساءل فيما إذا كـــان النسيان أحياناً هو الشيء اللطيف.

فالتذكر بخلاف النسيان هو القاتل.

2016

أخبرني والدي مرة "لا تقم بالافتراض أبداً".

عندما حدقت إليه بشكل خالٍ من التعبير، تابع حديثه "أترى هذا الكرسي؟ أنت تعتقد بأنه سيبقى مكانه في الصباح حيث هو الآن".

"نعم".

"إذاً أنت تفترض".

"أعتقد ذلك".

أمسك أبـــي بالكرسي ووضعه على الطاولة. "الطريقة الوحيدة لتتأكد بأن هذا الكرسي لن يبارح مكانه هي بأن تلصقه بالأرض".

"لكن هذا غش؟".

أصبح صوته أكثر جدية: "سيلجأ الناس دائماً للغش والكذب، لــذلك من المهم أن تشكك بكل شيء. حاول دائماً أن تنظر إلى مـــا هـــو غـــير ظاهر".

أومأت "حسناً".

فُتح باب المطبخ، ودخلت أمي، نظرتْ إلى الكرســـي ثم إلى أبـــــي وإليّ وأومأت.

"لا أدري إن كنت حقاً أريد أن أعرف".

إياك والافتراض، شكك بكل شيء، حاول دائماً أن تنظر إلى مـــا لـــيس ظاهراً.

نحن نفترض الأمور لأن الافتراض أسهل، يوقفنا عن التفكير باجتهاد أيضاً، عادة حول مواضيع تزعجنا. لكن عدم التفكير يمكن أن يوصلنا إلى سوء فهـــم وفي بعض الحالات إلى مآسٍ.

مثل مزحة غاف السمين المتهورة التي أدت في نهاية المطاف إلى مـــوت،

فقط لأنه كان ولداً و لم يفكر بالعواقب. ومثل أمي التي لم تعتقد أن إخبار أبي عن هانا توماس الذي يفترض به أن يحفظ سرها، يمكن أن يسبب هذا القدر من الأذى. بعدها كان ذلك الطفل الصغير الذي سرق خاتماً صغيراً من الفضة وحاول إرجاعه لأنه اعتقد بأنه يفعل الصواب و كان بالطبع مخطئاً جداً جداً.

الافتراض يمكن أن يؤذينا بطرق أخرى أيضاً. يمكن أن يمنعنا من رؤية حقيقة الأشخاص ويفقدنا النظر إلى الأشخاص الذين نعرفهم. فأنا افترضت أن نيكي هي التي زارت والدها في المصحة، لكن كلوي هي من فعلت. افترضت أني كنت ألاحق السيد هالوران في المعرض، لكنه كان عاملاً كهلاً. حتى عجوز الحديقة بيني قادت الجميع لمتاهة من الافتراضات. اعتقد الجميع أنها كانت تنتظر خطيبها الميت فرديناند، لكنه لم يكن خطيبها. لقد كان ألفريد العجوز المسكين. كانت تنتظر حبيبها كل هذه السنوات. ليس من باب الحب الأبدي، بل من باب الإنكار وعدم قبول الذات.

أول ما فعلته في الصباح التالي، أجريت بعض المكالمات الهاتفية. حسناً في الواقع أول ما فعلته، أعددت بضعة أكواب من القهوة الثقيلة جداً، دخنت نصف علبة سجائر، وبعدها أجريت بعض المكالمات الهاتفية.

الأولى مع غاف وهوبو، من ثم مع نيكي. لم تجب كما هو متوقع. تركت لها رسالة مشوشة أتوقع أن تحذفها دون الاستماع إليها. وفي النهاية اتصلت بكلوي.

"لست متأكدة، إيد".

"أحتاج أن تفعلي ذلك".

"لم أتحدث إليه منذ سنوات. لسنا قريبين تماماً".

"توقيت جيد لإعادة التواصل".

تنهدت "أنت مخطئ حيال ذلك".

"ربما، وربما لا. لكن – وإن احتجت لدافع لتقومي بذلك – فأنت مدينة لي".

"حسناً. لا أفهم فقط لم هذا الأمر مهم جداً. لم الآن؟ لقد كان ذلك منذ ثلاثين سنة بحق الجحيم. لم لا تتخلَ عن الأمر بكل بساطة؟".

"لا أستطيع".

"ليس للأمر علاقة بميكي صحيح؟ لأنك بالتأكيد لا تدين له بشيء".

"لا". فكرت بالسيد هالوران وبما سرقته. "ربما أدين لشخص آخر، وحان الوقت لأسدد ذلك الدين".

مقاطعة إيلمز، هي مقاطعة صغيرة للمتقاعدين خارج بورن-ماوث. يوجد الكثير من هذه المقاطعات على الساحل الجنوبي. في الواقع، الساحل الجنوبي بحد ذاته مقاطعة كبيرة للتقاعد، على الرغم من أن هنالك مناطق مميزة عن الأخرى.

من الإنصاف القول إن إيلمز، هي إحدى المقاطعات المرغوبة بسبب صغر منازلها وسوء حالتها. لكن الحدائق لا تزال تلقى العناية بالرغم من أن الأعمال الفنية متقشرة بسبب الطقس السيئ. السيارات أيضاً تخبر قصصها بنفسها. السيارات الصغيرة اللامعة، تنظف كل أحد. إيلمز ليست مكاناً سيئاً للتقاعد.

في بعض الأحيان، أعتقد أن كل الجهد الذي نبذله في الحياة عديم الفائدة. فأنت تعمل بجهد لتشتري منزلاً كبيراً وجميلاً لعائلتك وسيارة كبيرة رباعية الدفع. ثم يكبر الأولاد ويغادرون، لذا تبحث حينها عن منزل أصغر وأكثر ارتباطاً بالبيئة، (ممكن أن يكون فقط بغرفة إضافية في الخلف للكلب). ومن ثم تتقاعد، ويصبح منزل العائلة الكبير عبارة عن سجن بأبواب مغلقة وغرف يملؤها الغبار، والحديقة الرائعة التي كنت تقيم فيها حفلات الشواء يلزمها كثير من العمل ويصبح للأولاد حفلاتهم الخاصة مع عائلاتهم.

لذا يصبح المنزل صغيراً أيضاً. وربما يكون ذلك الوقت أقرب مما تتوقع، وتبقى أنت الوحيد للعناية به. وتخبر نفسك بأنه كان شيئاً جيداً عندما انتقلت، لأن الغرف الصغيرة مناسبة أكثر لتملأها الوحدة. وفي حال كنت محظوظاً،

ستجد طريقك للخروج قبل أن تتقلص، مجدداً، وتعيش في غرفة واحدة، تنام على سرير بقضبان، عاجزا عن مسح مؤخرتك.

محاط بمثل هذه الأفكار المبهجة، ركنت سيارتي في البقعة الصغير رقم 23 في الخارج. مشيت إلى الممر القصير وقرعت جرس المنزل. انتظرت ثواني عدة. كنت على وشك أن أقرع مرة ثانية عندما رأيت خيالاً باهتاً لشخص يمر خلف الزجاج، وسمعت قرقعة سلاسل والباب يفتح. شعور بالأمان، على ما أعتقد. لا يبدو لي الأمر مفاجئاً إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة عمله السابقة.

"إدوارد آدمز؟".

"نعم".

مد يده لمصافحتي. وبعد لحظة من التوتر، صافحته.

آخر مرة كنت فيها قريباً من الضابط توماس كانت منذ ثلاثين سنة، عندما كان يقف عند عتبة منزلي. لا يزال نحيفاً لكنه لم يعد بالطول الذي أذكره فيه. ولا يجب أن نغفل أنني أنا من ازددت طولاً، لكن ما يُقال عن أن التقدم بالعمر يقضي على الإنسان هو صحيح تماماً. لقد أصبح شعره الذي كان أسود رمادياً، وأصبح وجهه الذي كان قريباً من شكل الدائرة أقل قسوة وأكثر نحولاً.

قلت له: "أشكر موافقتك على مقابلتي".

"عليّ الاعتراف بأني لم أكن متأكداً... لكني أعتقد أن كلوي قد أثارت فضولي حول الموضوع". تنحى عن الباب. "ادخل".

مشيت عبر ممر صغير وضيق. توجد رائحة خفيفة من الطعام الفاسد ورائحة قوية منبعثة من مكيف الهواء.

"غرفة المعيشة إلى اليسار".

تقدمت وفتحت الباب لأرى، وبشكل مدهش، رأيت صالوناً واسعاً، أرائكه بلون القشدة وستائره معرقة. أعتقد بأن الأثاث قد اختارته سيدة المنزل السابقة.

ذات مرة، ذكرت كلوي أن جدها انتقل نحو الجنوب عندما تقاعد منذ عدة سنوات. وبعد ذلك بعدة سنوات توفيت زوجته. أتساءل عما إذا كان هذا في نفس الفترة التي توقف فيها عن طلاء الجدران وزرع الحديقة. عرض عليّ توماس الجلوس على الأريكة الأقل سوءا.

"هل ترغب بتناول المشروب؟".

"إمم.. لا شكراً، أرغب بالقهوة فقط". هذا كذب، لكن لا أريد لهذه المناسبة أن تكون مناسبة اجتماعية، وليس بالنسبة لما أتيت لمناقشته.

"حسناً". وقف لدقيقة وبدا تائهاً نوعاً ما.

أعتقد بأنه لا يستقبل الكثير من الزوار. فهو لا يعرف كيف يتصرف مع أحد في منزله. تقريباً مثلي.

في النهاية، جلس بصعوبة واضعاً يديه على ركبتيه. "إذاً، قضية إليزا ريندل. مضى وقت طويل الآن. قد كنت من الأولاد الذين وجدوها؟".

"نعم".

"والآن لديك نظرية حول الشخص الذي قتلها؟".

"نعم".

"هل تعتقد بأن الشرطة قدرت الأمر بطريقة خاطئة؟"

"أعتقد أننا جميعاً فعلنا الشيء نفسه".

أمسك ذقنه. "الدليل الظرفي كان مقنعاً. وهذا كان ما في الأمر. ظرفي.. لو أن هالوران لم ينتحر، لا أعتقد أنه كان يوجد أي دليل كافٍ لفتح قضية. كان الخاتم هو الدليل الوحيد".

شعرت بوجنتيّ تحمران. حتى الآن. الخاتم.. الخاتم اللعين.

"لكن لم يكن هناك سلاح جريمة ولا دماء". توقفت قليلاً ثم تابعت "وبالطبع، لم نجد رأسها أبداً".

نظر إليّ بحدة أكبر وكأنما السنوات الثلاثون الماضية قد امحت. وكأن ضوءاً قد خيم وراء عينيه.

اتكأ على الخلف وقال: "إذاً، ما هي نظريتك؟".

"هل لي بأن أسألك بعض الأسئلة أولا؟".

"نعم أفترض هذا، لكن ضع في ذهنك بأني لم أكن داخل التحقيق بما يكفي".

"لن أسألك عن القضية. بل عن ابنتك وريفد مارتن".

تخشب وقال: "أنا لا أفهم ما علاقة هذا".

على ما أعتقد. كل شيء.

"فقط جاريني بالأمر".

"كان باستطاعتي أن أطلب منك الرحيل".

"هذا صحيح".

وانتظرت. اتصل بلاف. أعلم بأنه يرغب برميي خارجاً، لكني آمل أن الفضول وغريزة شرطي سابق سوف يسيطران عليه.

قال: "حسناً، سأجاريك. لكن هذا كرمى لكلوي".

أومأت "أقدّر هذا".

"لا. أنت لا تقدر ولا حتى تفهم، إنها كل ما تبقى لي".

"وماذا عن هانا؟".

"فقدت ابنتي منذ زمن بعيد، واليوم كلمتني حفيدتي للمرة الأولى منذ سنتين، وإن كان حديثي معك سيجعلني أراها، فسأفعل هذا. هل تفهم هذا؟".

"هل تريدني أن أقنعها بزيارتك؟".

"من الواضح أنها تستمع إليك".

ليس تماماً. لكنها لا تزال مدينة لي. "سأبذل قصارى جهدي".

"حسناً. هذا كل ما أطلبه" جلس وأسند ظهره. "ماذا تريد أن تعرف؟".

"ماذا كنت تشعر حول ريفد مارتن؟"

تذمر وقال: "لقد اعتقدت بأن هذا واضح".

"وماذا عن هانا؟".

"كانت ابنتي. أحببتها. وما زلت أحبها".

"وعندما أصبحت حاملاً؟"

"أصبت بخيبة أمل. مثل أي والد. وغضبت أيضاً. أفترض أن هـــذا هـــو السبب الذي جعلها تكذب حول هوية الأب".

"شون كوبر".

"نعم. كان عليها ألا تفعل ذلك. شعرت بالأسى بعدها، بعد ما قلته عـــن الصبـــي. لكن في ذلك الوقت، لو أنه لم يمت، لكنت قد قتلته".

"كما حاولت مع الكاهن؟".

"لقد أخذ نصيبه". ابتسم قليلا. "أفترض أنه يجب عليّ شكر والدك علـــى هذا".

"أفترض هذا".

تنهد وقال: "لم تكن هانا كاملة، كانت مراهقة عادية، كنا نتجادل حول الأشياء التقليدية، مثل مساحيق التجميل، وقصر تنانيرها أو طولهـــا. وعنـــدما دخلت ضمن مجموعة مارتن الدينية، ارتحت. اعتقد أن هذا سيكون شيئاً جيـــداً لها".

ضحكة مكتومة. "كم كنت مخطئا؟ لقد دمّرها. كنا قريبين من بعضـــنا. لكن بعد هذا كل ما فعلناه كان الجدال".

"هل تجادلتما يوم قتلت إليزا؟".

تنهد وقال: "كان واحداً من أبشع الجدالات".

"لماذا؟".

"لأنها ذهبت لزيارته في المصحة، كي تخبره بأنها ستحتفظ بالطفل. وبأنهـــا ستنتظره".

"كانت مغرمة به".

أومأ: "لقد كانت طفلة، لم تعرف ما هو الحب، هل لديك أولاد إيد؟".

"لا".

"لقد فعلت عين الصواب و لم تنجب أولاداً فالأطفال، من اللحظـــة الـــتي يولدون فيها يملؤون قلبك بالحب... والخوف. خصوصاً الفتيات الصـــغيرات. تريد حمايتهم من كل شيء. وعندما لا تقدر على ذلك، تشعر وكأنك أخفقت

كآب. لقد وفرت على نفسك كثيراً من الألم بعدم إنجابك للأطفال".

استدرت قليلاً. أشعر بالحر، بالاختناق، على الرغم من أن الغرفة ليست دافئة. حاولت إعادة المحادثة إلى مجراها.

"إذاً. قلت إن هانا ذهبت لزيارة ريفد في ذلك اليوم. في اليوم الذي قُتلت فيه إليزا؟".

استجمع أفكاره: "نعم، حصل بيننا جدال، خرجت ولم تكن قد عادت عند موعد العشاء، لهذا بحثت عنها تلك الليلة".

"كنتَ بالقرب من الغابة؟"

استهجن قائلاً: "اعتقدت أنه قد تكون هناك. أعرف بأنهم اعتادوا أن يلتقوا هناك أحياناً".

"كان السيد هالوران وإليزا يتقابلان في الغابة أيضاً".

"هناك حيث كان الكثير من الأولاد يتقابلون ويفعلون أشياء لا يجب أن يفعلوها. أولاد.. ومنحرفون".

نطق بالكلمة الأخيرة. نظرت إلى الأسفل. "كنت أعتبر السيد هالوران مثلي الأعلى، لكن أعتقد أنه مجرد رجل كبير آخر لديه ميول نحو الفتيات، تماماً مثل الكاهن".

"لا." هز توماس رأسه. "هالوران لا يشبه الكاهن بأي شيء، لست راضياً عما فعله، لكنه لم يكن مثله. فالكاهن كان منافقاً وكاذباً، ينادي بكلمة الله في حين أنه في الحقيقة كان يستعملها للتأثير على أولئك الفتيات الصغيرات. غير هانا. ادعى أنه يملؤها بالحب، لكنه كان طوال الوقت يملأ قلبها بالسم، وعندما لم يكفه هذا، ملأ رحمها بنطفة غير شرعية".

تألقت عيناه الزرقاوان. وتجمع لعابه القشدي عند زاوية شفتيه. يقول الناس بأنه لا يوجد شيء أقوى من الحب. إنهم محقون. لهذا فإن معظم الأعمال الوحشية دائما ترتكب باسمه.

سألته بهدوء: "هل هذا سبب قيامك بها؟"

"قمت بماذا؟".

"ذهبت إلى الغابة ورأيتها، أليس كذلك؟ تقف هناك تماماً مثلما كانت تقف وهي تنتظره؟ هل هنا حيث انهرت؟ هل أمسكت بها، خنقتها، قبل حتى أن تسنح لها الفرصة بالالتفاف؟ ربما لم تتحمل النظر إليها وعندما فعلت – عندما أدركت خطأك– كان الأوان قد فات. لذا عدت لاحقا وقطعت الجثة. لا أعلم تماماً سبب هذا. لإخفاء الجثة؟ أو بكل بساطة لتعقيد الأمو...".

"ماذا تقول بحق الجحيم؟".

"قتلت إليزا، لأنك ظننتها هانا، لديهما القامة ذاتها، وكانت إليزا قد صبغت شعرها بالأشقر. خطأ سهل الوقوع به، في الظلام، عندما تكون منفعلاً وغاضباً. اعتقدتَ أن إليزا كانت ابنتك، التي تم تسميمها، واغتصابها والتي كانت تحمل طفل الكاهن غير الشرعي".

"لا! أحببت هانا. أردتها أن تحتفظ بالطفل. لكن نعم، فكرت مسبقاً بأن عليها عرضه للتبني، لكني لم أكن لأؤذيها أبداً. إطلاقاً".

وقف فجأة وتابع: "لم يجدر بي الموافقة على مقابلتك. اعتقدت أنك، وبشكل عبقري، قد تعرف شيئاً، لكن هذا؟ هنا سأطلب منك الرحيل."

حدقت إليه. وكأني أتوقع رؤية نظرة ذنب أو خوف على وجهه. أنا مخطئ. فكل ما أراه هو الغضب والألم. الكثير من الألم. أشعر بالمرض. أشعر بالقذارة. وبشكل عام، أشعر بأني قد أسأت فهم هذا بشكل رهيب.

"أنا آسف، أنا...".

نظرته شلتني "تتأسف عن اتهامك لي بمحاولة قتلي لابنتي؟ لا أعتقد أن هذا يكفي، أيها السيد آدمز".

"لا.. لا، لا أعتقد هذا". نهضت واتجهت نحو الباب ثم سمعته يقول: "انتظر".

التفتت نحوه. ومشى نحوي.

"على الأغلب، يجد بي لكمك لما قلته للتو".

شعرت بمرور كلمة "لكن". على الأقل، أملت بأن يقولها.

"لكن خطأ في الهويات؟ هذه نظرية جيدة".

"وخاطئة".

"ربما ليست خاطئة بالكامل. فقط الشخص الخاطئ".

"ماذا تقول؟."

"باستثناء هالوران، فلا أحد كان يرغب بإيذاء إليزا. لكن هانا؟ حسناً، الكاهن مارتن كان لديه كثير من المناصرين له وقتها. ولو علم أي واحد منهم عن علاقتهما، وعن الطفل، فإنه يمكن أن يغتاظ بشكل كافٍ ومجنون ليدفعه أن يقتل من أجل الكاهن".

أخذت هذا بعين الاعتبار. "لكنك لا تملك أي فكرة عن مكان أي أحد منهم الآن؟"

هز يديه وقال: "لا".

"حسناً".

وضع توماس يده على ذقنه. بدا وكأنه يناجي نفسه. وقال أخيراً: "تلك الليلة، عندما كنت أبحث عن هانا قرب الغابة، رأيت شخصاً ما. كان الظلام حالكاً، وكنت بعيداً، لكنه كان يلبس ثياب عمل، كلباس العامل، ويعرج".

"لا أذكر سماع أي شيء عن مشتبه به آخر".

"لم نتتبع الموضوع أبداً".

"لماذا؟".

"لما نتكبد عناء المتابعة، ونحن نملك المذنب، ميتاً؟ بالإضافة إلى أنه وصف غير كافٍ لأخذه بعين الاعتبار".

إنه محق. هذا ليس مفيدا كثيرا. "أياً يكن الأمر، شكراً".

"ثلاثون سنة هي فترة طويلة. أنت تعلم، من الممكن ألا تحصل على الإجابات التي تبحث عنها أبداً..."

"أعلم هذا".

"أو أسوأ. تحصل على الإجابات، وتكون هي الإجابات التي لا تريدها".

"أعلم هذا أيضاً.

في الوقت الذي كنت أركب فيه سيارتي، كنت أرتجف. أغلقت النافذة وأخرجت سجائري. أشعلت واحدة بسرعة وكنت قد وضعت جوالي في الوضعِ الصامت عندما ذهبت إلى الكوخ. أخرجته ورأيت بأني قد تلقيت اتصالاً. في الحقيقة اتصالين. لم يسبق لي أن كنت بهذه الشعبية.

فتحت البريد الصوتي، لأستمع إلى الرسائل المشوشة واحدة كانت من هوبو والأخرى من غاف، يقولان الشيء نفسه:

"إيد، لقد علموا من هو القاتل".

2016

إنهم جالسون إلى طاولتهم المعتادة، ولكن على غير العادة، أمام غاف كأس كبيرة من البيرة بدلاً من الكولا دايت.

بالكاد جلست إلى طاولة واضعاً كأسي حين ألقى بالصحيفة أمامي على الطاولة فحدقت إلى العناوين.

تم اعتقال شابين في قضية الهجوم قرب النهر - *يتم استجواب شابين بعمر الخامسة عشرة حول مقتل أحد سكان البلدة المحليين السابقين ميكي كوبر 42 سنة. تم القبض على الثنائي بعد محاولتهما القيام بعملية سرقة في المكان نفسه من الطريق قرب النهر قبل ليلتين. الشرطة تترك الاحتمالات مفتوحة بشأن وجود رابط بين الحادثين.*

تفحصت بقية القصة. لم أسمع بخصوص جرائم السرقة، ولكن في النهاية كان هنالك ما يشغل تفكيري. عبست.

سأل غاف: "هل هنالك خطبٌ ما؟"

"لا تذكر الصحيفة أن هذين الشابين هاجما ميكي". وأردفتُ قائلاً. "في الواقع، إنها مجرد توقعات".

هز كتفيه: "وماذا في ذلك؟ إن هذا منطقي. محاولة سرقة آلت إلى نهاية خاطئة. وليس لكتابه أو لرجال الطباشير أي علاقة بذلك. مجرد لصين صغيرين خرجا للحصول على المال بسهولة".

"ممكن. هل تعلم من هما الشابان؟".

"سمعت أن أحدهما من مدرستك. اسمه داني مايرز؟".

داني مايرز؟ يجب أن أكون متفاجئاً، ولكني لم أكن كذلك. يبدو أنه لا يوجد ما يفاجئني تقريباً بخصوص الطبيعة البشرية بعد الآن. مع ذلك...

قال هوبو: "لا تبدو مقتنعاً".

"داني قد يسرق؟ يمكنني تخيله يفعل شيئاً غبياً لإثارة إعجاب رفاقه. ولكـــن قتل ميكي..." لم أقتنع لأن ذلك واضح أكثر من اللزوم، وسهل أكثر من اللازم، ويجعلنا نبدو حمقى. وهنالك أمر آخر، يحاول إزعاجي.

في المكان نفسه من الطريق قرب النهر.

أومأت: "أنا متأكدٌ أن غاف محق. إنه التفسير الأرجح على الأغلب".

قال هوبو: "أولاد اليوم، ها؟".

توقفنا عن الحديث لبعض الوقت، احتسينا من كؤوسنا. في النهاية، قلت: "لو أن ميكي على قيد الحياة كان ليغضب أن يوصف بعبارة 'أحد سكان البلدة المحليين السابقين'. كان ليتوقع أن يوصف 'بمدير إعلانات على الأقل'".

قال غاف: "نعم. على الأغلب تسمية 'المحلي' هي أفضل من بعض الأسماء التي أطلقت عليه". ثم قست تعابير وجهه. "لا أستطيع تصديق أنه دفع لكلـــوي لتتجسس عليك. وأنه أرسل لنا تلك الرسائل".

قلت: "أعتقد أنه أراد إضافة بعض الإثارة لكتابه، كانت الرسائل طريقتـــه لاختلاق حبكة".

قال هوبو: "نعم، لطالما كان ميكي يجيد اختلاق الأشياء".

أضاف غاف: "وافتعال المشاكل. أتمنى أن يكون الأمر قد انتهى".

رفع هوبو كأسه: "سأشرب نخب انتهاء الأمر".

حاولت حمل كأسي، ولكن لا بد أنني كنتُ مشتتاً قليلاً. أفلتت الكأس من يدي، فتدحرجت ووقعت. حاولت إمساكها قبـــل أن تســـقط علـــى الأرض وتتحطم، ولكن محتوياتها انسكبت على جانب الطاولة وعلى حضن غاف.

لوّح غاف بيده "لا تقلق حيال الأمر". مسح بنطاله الجينز، وأزال الـــبيرة المسكوبة. صدمت مرة أخرى من التباين بين ذراعيه القويتين وعضلات ســـاقيه النحيلتين والمرتخيتين.

ساقان قويتان.

تواردت هذه الكلمات إلى ذهني، دون دعوة.

إنه يخدع الجميع.

وقفت بسرعة كبيرة كادت أن تؤدي لسقوط بقية المشروبات.

كان هذا مكان لقائهما أحياناً.

أمسك غاف بكأسه. "ماذا هناك بحق الجحيم؟".

قلتُ: "لقد كنتُ محقاً".

"بخصوص ماذا؟"

حدقت إليهما. "كنت مخطئاً، ولكني كنت محقاً. أعني، الأمر جنوني. من الصعب تصديق الأمر ولكن... إنه منطقي. اللعنة. كل شيءٍ منطقي".

الشيطان، متنكر. اعترف.

سأل هوبو: "إيد، عمّ تتحدث؟".

"أعرف من قتل فتاة والتزر.. إليزا. أعلم ما حصل لها".

"ماذا؟".

"عملٌ إلهي".

"أخبرتك على الهاتف سيد آدامز. انتهى وقت الزيارة".

"أخبرتكِ أنه عليّ رؤيته. الأمر هام".

حدّقت إلى الممرضة – الممرضة الصارمة ذاتها التي رحبت بي سابقاً – بثلاثتنا. "أصر هوبو وغاف على مرافقتي. الجماعة القديمة. في مغامرة أخيرة).

"مسألة حياة أو موت على ما أظن؟".

"نعم".

"ولا يمكن أن ينتظر الأمر إلى الصباح؟".

"لا".

"لن يذهب الكاهن إلى أي مكان في أي وقتٍ قريب".

"لست متأكداً من ذلك".

رمقتني بنظرة غريبة. ثم أدركت. إنها تعلم. جميعهم يعلمون، و لم يقل أحد شيئاً حيال ذلك.

قلت: "أفترض أن ذلك لا يبدو جيداً أليس كذلك؟ حين يخرج المقيمون؟ حين تجدينهم يجولون. من الأفضل ألا يعرف أحد بمثل هذه الأشياء. خصوصاً

إن كنت تريدين أن تستمر الكنيسة بتمويلكم؟".

ضاقت عيناها. "تعال معي. أنتما الاثنان" - فرقعت بأصابعها أمام هوبو وغاف - "انتظرا هنا". رمقتني بنظرة أخرى قاسية. "خمس دقائق، سيد آدامز".

تبعتها عبر الرواق. كانت الأضواء الشريطية الفلورية المزعجة تشع نورها للأسفل. في وقت النهار، يعطي المكان انطباعاً بأنه أكثر من مصحة. ولكن ليس في الليل. لأنه ليس هنالك ليل في المؤسسات. هنالك ضوءٌ طوال الوقت، وضجيج طوال الوقت. تأوهات وأنين، صوت صرير الأبواب، ووقع الأحذية ذات النعال الطرية على الأرضية المشمعة.

وصلنا إلى باب غرفة الكاهن. رمقتني الممرضة بنظرة تحذيرية أخيرة ورفعت إصبعاً قبل أن تقرع الباب.

"الكاهن مارتن؟ لديك زائر".

للحظةٍ توقعت أن ينفتح الباب وأن يكون واقفاً خلفه، يبتسم ببرودة لي.

"اعترف".

ولكن بالطبع، كان الرد الوحيد هو الصمت. نظرت الممرضة إليّ نظرة متعالية وفتحت الباب بهدوء.

"أيها الكاهن؟"

أحسست بنبرة من الشك في صوتها حين شعرت بنسمة من الهواء.

لم أنتظر. اندفعت متجاوزاً إياها. الغرفة فارغة، النافذة مفتوحة، والستائر تتمايل بسبب الهواء العليل. استدرت مجدداً نحو الممرضة.

"ليس هناك من أقفال أمان على النوافذ؟".

"لم يبدُ الأمر ضرورياً..." تلعثمت.

"حقاً، بالرغم من أنه ذهب في نزهات من قبل؟"

حدقت إليّ بثبات. "يذهب في نزهات فقط حين يكون متضايقاً".

"ويجدر بي أن أفهم أنه متضايق اليوم".

"في الواقع، نعم. كان لديه زائر. تركه قلقاً. ولكنه عادة لا يبتعد".

هرعت نحو النافذة ونظرت إلى الخارج. يسدل الشفق ظلاله بسرعة ولكن يمكنني رؤية كتلة الغابة السوداء. ليست بعيدة. ومن هنالك، عبر الأراضي، من كان ليراه؟

أكملتْ: "لا يمكنه التسبب بأي ضرر، يجد طريق عودته لوحده في العادة".

استدرت. "قلتِ كان لديه زائر. من هو؟"

"ابنته".

كلوي. أتت لتودعه. شعرت بغيمة من الرهبة.

ليلة أو ليلتان من التخييم في الغابة لن يكون الأمر سيئاً.

قالت الممرضة. "عليّ أن أدق ناقوس الخطر".

"لا عليك أن تتصلي بالشرطة. الآن". وضعت قدمي على عتبة النافذة.

"إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟".

"إلى الغابة".

إنها أصغر مما كانت عليه عندما كنا أطفالاً. فقد تقلصت رويداً رويداً، بسبب المناطق السكنية التي توسعت بسرعة. ولكن الليلة، بدت الغابة كبيرة مجدداً، هائلة. مليئة بالظلام والخطر والأمور الممنوعة.

هذه المرة، كنت أنا من يشق الطريق، تتكسر تحت قدميّ الأغصان وتنسحق الأوراق اليابسة، كان يمكنني الرؤية أمامي من خلال مصباح أعارتني إياه الممرضة. وقع الضوء مرة أو مرتين على أعين حيوانات لامعة قبل أن تهرب مجدداً، بين الظلال. أعتقد أن هنالك مخلوقات ليلية ومخلوقات نهارية. بالرغم من أنني أقلق في الليل وأسير وأنا نائم، إلا أنني لست مخلوقا ليلياً.

همس هوبو خلفي "هل أنت على ما يرام؟". جعلني أقفز.

أصر على المجيء معي. غاف ينتظرنا في المصحة، ليتأكد من أنهم سيتصلون حقاً بالشرطة.

همست: "نعم، كنت أتذكر فقط حين كنا أطفالاً في الغابة".

همس هوبو: "نعم، وأنا أيضاً".

أتساءل لَمَ نحن نتهامس. ليس هنالك أحدٌ ليسمعنا. لا أحد سوى المخلوقات الليلية. ربما كنت مخطئاً، ربما لم يكن هنا. ربما أصغت كلوي إليّ وحجزت في فندق في مكانٍ ما. ربما...

صدرت الصرخة من الغابة مثل صرخة شؤم. بدت الأشجار ترتعد ورفرفت أجنحة سوداء إلى الأعلى نحو سماء الليل.

نظرت إلى هوبو، وبدأنا بالركض، وضوء المصباح يتمايل أمامنا. ناورنا الأغصان وقفزنا فوق الحشائش المتشابكة... وظهرنا في مساحة خالية، مثل ما حصل سابقاً. مثل حلمي.

توقفت، وتحرك هوبو بتثاقل خلفي. حركت المصباح في الأرجاء. على الأرض أمامنا خيمة صغيرة لشخص واحد، منهارة جزئياً. أمامها حقيبة وكومة من الملابس. إنها ليست هنا. شعرت براحة مؤقتة... ثم حركت المصباح مجدداً. كومة الملابس كبيرة للغاية ومتكتلة. ليست ملابس. بل جثة.

لا! ركضت إلى الأمام وركعت. "كلوي".

رفعت القبعة. كان وجهها شاحباً، هنالك علاماتٌ حمراء حول عنقها، إنها تتنفس تنفساً خفيفاً ومنخفض الصوت، ولكنها تتنفس، لم تكن قد ماتت بعد.

لا بد أننا وصلنا في الوقت المناسب، وبقدر ما أردت رؤيته، ومواجهته إلا أن الأولوية كانت للتأكد بأن كلوي ستكون بخير. نظرت إلى هوبو، الذي كان يجول على طرف الساحة.

"علينا أن نتصل بسيارة إسعاف".

أومأ، أخرج هاتفه وعبس. "بالكاد هنالك إشارة". ولكنه وضعه على أذنه...

... وفجأة اختفى. ليس فقط هاتفه. بل أذنه. مكانها، هو الآن ثقب مدمى. رأيت لمعة فضية، وتدفقاً للدم الأحمر القاتم، ثم وقعت يده إلى مستوى خصره، لم تكن معلقة إلا بالقليل من الألياف العضلية.

سمعت صرخة، لم تكن صرخة هوبو الذي اكتفى بالتحديق إليّ صامتاً وانهار فجأة على الأرض. كانت صرختي.

مر الكاهن من فوق جسد هوبو المستلقي. كان يحمل فأساً بإحدى يديه، فأساً لامعة ومبللة بالدماء. ويضع إزار بستاني فوق بيجامته.

كان يضع إزاراً، مثل عامل، وكان يعرج. كان يجر إحدى قدميه الآن وهو يتقدم مترنحاً نحوي. لم يكن تنفسه منتظماً، وكان وجهه هزيلاً، بدا لي كرجل ميت ولكنه يمشي، وكانت عيناه تتقدان بنور لم أره سوى مرة من قبل. لدى شون كوبر. نور الجنون.

صارعت لأقف. كل خلية فيّ كانت تدعوني للهرب. ولكن كيف لي أن أترك كلوي وهوبو؟ إضافة لذلك، كم يملك هوبو من الوقت قبل أن يصبح في عداد الموتى؟ أعتقد أنني أستطيع سماع صوت صفارات الإنذار من بعيد، ربما كنت أتخيل أنني أسمعها، ربما يمكنني أن ألهيه بالكلام...

"إذن تريد قتلنا جميعاً؟ أليس القتل خطيئة؟ أيها الكاهن؟"

"الروح التي تخطئ ستموت، سيقع عليها بر الصالحين وسيقع عليه شر الأشرار".

وقفت في مكاني حتى شعرت برجليّ تضعفان، وأنا أشاهد قطرات من دماء هوبو تتساقط من تلك الفأس اللامعة.

"ألهذا أردت أن تقتل هانا؟ لأنها كانت مخطئة؟".

"بسبب عاهرة، يتم التقليل من شأن المرء ليصبح مثل رغيف خبز. والزانية تبحث عن حياة رغيدة. هل يمكن للرجل أن يشعل النار في حضنه دون أن تحترق ثيابه؟" اقترب أكثر، والرجل العرجاء تجمع أوراق الشجر، ما زالت الفأس تتأرجح. إن الأمر أشبه بمحاولة إجراء محادثة مع بطل فيلم ترمينيتر. مع ذلك، حاولت، يائساً الآن، وصوتي يرجف.

"كانت تحمل طفلك. أحبتك. ألم يعنِ ذلك شيئاً لك؟"

"إذا كانت يدك تسبب لك الخطيئة، اقطعها. من الأفضل لك أن تدخل الجنة مبتور الطرف على أن تدخل الجحيم، وإذا كانت قدمك تسبب لك الخطيئة، اقطعها. من الأفضل أن تدخل الجنة أعرج على أن ترمى في الجحيم وأنت تملك قدمين".

"ولكنك لم تقطع يدك. و لم تقتل هانا. أنت قتلت إليزا".

توقف. رأيته متشككاً فاستغللت الموقف.

"لقد أسأت فهم الأمر أيها الكاهن. لقد قتلت بدل الفتاة الخاطئة فتاة بريئة. ولكنك تعلم ذلك، أليس كذلك؟ ولنواجه الأمر، أنت تعلم في أعماقك أن هانا كانت بريئة أيضاً أنت المذنب، أيها الكاهن. أنت كاذب ومنافق وقاتل".

صرخ وتقدم مترنحاً نحوي، في اللحظة الأخيرة انحنيت واندفعت نحو معدته بكتفي. فتعثر إلى الخلف، ثم سمعت صوت ارتطام قوي حين يضرب مقبض الفأس جانب رأسي بقوة. انهار الكاهن على الأرض، محمولاً من قوة دفعي، وألقيت بثقلي فوقه.

حاولت أن أدفع نفسي نحو الأعلى، لأصل إلى الفأس، ولكن رأسي يهتز ورؤيتي مشوشة. إنه عند رؤوس أصابعي. أدفع نفسي نحوه. يرمي الكاهن بثقله عليّ. يلف يديه حول عنقي. ضربته على وجهه، ولكن أطرافي كانت ضعيفة، لم تحدث الضربات تأثيراً. حصل تدافع نحو الأمام والخلف؛ رجل مصاب بارتجاج بالدماغ يقاتل الحي الميت. عصرت أصابعه بقوة أكبر. حاولت أن أفرقها بيأس. شعرت وكأن صدري سينفجر، كانت عيناي جمرتان تحترقان في محجريهما. كانت رؤيتي تضمحل، وكأنه كان هنالك أحدٌ يسدل الستائر ببطء.

ليست هذه نهايتي، كانت هذه الفكرة تجول في عقلي الذي استُنزفَ منه الأوكسجين. ليست هذه خاتمتي الكبيرة. هذا غش، ومخيب للآمال. هذا... ثم أصدر صوتاً مكتوماً باهتاً وارتخت قبضته. يمكنني التنفس. أبعدت يده عن عنقي. صفيت رؤيتي. كان الكاهن يحدق إليّ، عيناه مفتوحتان من الصدمة، وفمه فاغر.

"اعترف..."

تخرج كلمته الأخيرة، مع قطرات من الدم الأحمر القاتم. تستمر عيناه بالتحديق إليّ، ولكن النور المتوقد قد انطفأ. إنهما الآن مجرد كرتين من الغضاريف والسوائل؛ مهما كان الذي سكن خلفهما فقد غادر الآن.

نازعت لأخرج من تحته. كان الفأس يبرز من ظهره. حدقت إلى الأعلى. كانت نيكي تقف فوق جثة والدها، وجهها وملابسها مغطاة بالدماء، يداها حمراوان. نظرت إليّ، لم تلحظ حتى الآن أني كنت هنالك.

"أنا آسفة كثيراً. لم أعلم". ركعت بقرب والدها، تمتزج الدموع على وجنتيها بالدماء. "كان عليّ أن آتي من قبل. كان عليّ أن آتي من قبل".

2016

هنالك أسئلة، الكثير من الأسئلة. يمكنني أن أخمن كيف، أين وماذا، ولكن لماذا؟ لا أعرف. لا أملك كل الأجوبة. حتى أنني لست قريباً من ذلك.

على ما يبدو، انطلقت نيكي في سيارتها بعد أن وصلتها رسالتي. حين لم تجدني في المنزل، بحثت عني في الحانة. أخبرتها شيريل أين ذهبنا فأخبرتها الممرضات بالباقي، ولأن نيكي لم تتغير عما كانته وهي صغيرة تبعتنا. أنا مسرور - بل أكثر من مسرور - لأنها فعلت ذلك.

قررت كلوي أن تزور والدها للمرة الأخيرة. كانت تلك غلطة. من الخطأ أيضاً أنها أخبرته أنها ستخيم في الغابة. وأنها صبغت شعرها باللون الأشقر. أعتقد أن هذا ما تسبب بما حصل. أصبحت فجأة تشبه هانا. ما أيقظ شيئاً ما في ذهنه.

بالحديث عن ذهن الكاهن، لا زال المسعفون يتناقشون حول ذلك. هل كان وعيه، وسيره (وقيامه بالقتل)، شذوذاً مؤقتاً من حالته شبه المشلولة أم العكس هو الصحيح؟ الفعل الفاسد كان مجرد ذلك: فعل. كان يفهم كل شيء طوال الوقت.

لن نعلم الحقيقة أبداً بعد أن مات الآن. مع أني متأكد أن أحداً ما سيحصل على الشهرة، والقليل من المال، عبر كتابة مقالة حول الأمر، أو ربما كتاب. لا بد أن ميكي يتقلب الآن في قبره.

النظرية تقول - معظمها نظريتي - قتل الكاهن إليزا لأنه اعتقد أنها هانا، العاهرة الحامل بابنه غير الشرعي، وفي ذهنه المختل، كانت ستدمر سمعته. لماذا قطعها؟ التفسير الوحيد الذي املكه هو القول الذي استشهد به أمامي في الغابة:

"إذا كانت يدك تسبب لك الخطيئة، اقطعها. من الأفضل لك أن تدخل الجنة مبتور الطرف على أن تدخل الجحيم".

أعتقد أنه قطعها لأن تلك كانت طريقته لضمان دخول الجنة. ربما بعد أن أدرك خطأه. ربما بلا سبب. من يعلم حقاً؟ سيكون الله من سيحكم على الكاهن. لكان الأمر لطيفاً أن نراه في المحكمة، يحاكم أمام هيئة المحلفين التي لا تغفر.

تتحدث الشرطة عن إعادة فتح ملف قضية إليزا ريندل. فالآن يملكون تحاليل جنائية أفضل، تحليل الحمض النووي وكل تلك الأمور الرائعة التي تراها على التلفاز، هذا سيثبت من دون شك أن الكاهن كان مسؤولاً عن جريمة قتلها. لن أتحمس. بعد تلك الليلة في الغابة، وذكرى يدي الكاهن حول عنقي، أشك أنني سأتحمس مجدداً.

تعافى هوبو بشكل كامل تقريباً. أعاد الأطباء أذنه إلى مكانها، ليس بشكل مثالي، ولكن شعره الطويل قليلاً سيغطيها. إنهم يفعلون ما في وسعهم من أجل ذراعه، الأعصاب أمر معقد. أخبروه أنه قد يسترجع الحركة الجزئية فيها، وقد لا يفعل. لا زال الأمر مبكراً لنعرف ذلك. واساه غاف السمين بحقيقة أنه يمكن له الآن أن يركن سيارته حيثما يشاء.

لعدة أسابيع، كانت الصحافة ذات حضور مزعج وغير مرحب به في البلدة وأمام باب منزلي. لا أريد التكلم معهم، ولكن غاف السمين أجرى معهم مقابلة وذكر الحانة فيها عدة مرات. لاحظت عند ذهابي إلى هناك أن العمل مزدهر. على الأقل نتج شيءٌ جيد عن الأمر.

عاودت روتين حياتي من جديد، عدا بعض الأمور. أخبرت المدرسة أنني لن أعود بعد نصف الفصل الدراسي في الخريف، واتصلت بوكيل عقاري.

أتى شاب وسيم يرتدي بذلة رخيصة الثمن إلى المنزل ونظر في الأرجاء. عضضت على لساني وحاولت أن أتجاهل مشاعر التطفل بينما كان ينظر في الخزائن ويدعس على ألواح الأرضية، يقول ممم وآااه ويخبرني أن الأسعار ارتفعت بشكل كبير خلال السنوات القليلة الماضية، بالرغم من أن المنزل بحاجة إلى بعض التحديثات، عرض تقييماً جعلني أرفع حاجبي قليلاً.

تم تعليق لوحة "للبيع" بعد أيام عدة.

في اليوم التالي، ارتديت أفضل بدلة داكنة أملكها، سرّحت شعري وعقدت بحذر ربطة عنق رمادية داكنة حول عنقي. كنت على وشك المغادرة حين قرع أحدٌ ما الباب الأمامي. استهجنت ذلك - يا لهذا التوقيت - ثم أسرعت وعبرت الرواق وفتحت الباب.

وقفت نيكي عند عتبة الباب. نظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل. "تبدو ذكياً للغاية".

"شكراً". نظرت إلى معطفها الأخضر الزاهي. "أفهم من هذا أنك لست قادمة؟".

"لا. عدت اليوم لأتحدث مع محاميي". بالرغم من حقيقة أنها أنقذت ثلاثة أشخاص، لا زال على نيكي أن تُحاكم لقتلها والدها.

"ألا يمكنك أن تبقي وقتاً أطول قليلاً؟".

هزت رأسها "أخبر الآخرين أنني متأسفة، ولكن...".

"أنا متأكد من أنهم سيتفهمون".

"شكراً". مدت يدها. "وأردت فقط أن أقول وداعاً، إيد".

حدقت إلى يدها. ومن ثم، مثلما فعلت منذ سنوات عديدة، خطوت خطوة إلى الأمام ولففت ذراعي حولها، توترت للحظة ثم ضمتني. شممت رائحتها. لم تكن رائحة فانيليا ولبان بل رائحة مسك وسجائر. لم تكن متعلقة بل متلاشية.

في النهاية، ابتعدنا عن بعضنا. شيءٌ ما لمع حول عنقها.

عبست. "أنت تضعين سلسلتك القديمة؟"

نظرت إلى الأسفل. "نعم. احتفظت بها طوال الوقت". لمست الصليب الفضي الصغير. "لا بد أن ذلك يبدو غريباً، الاحتفاظ بشيء مرتبط بذكرى سيئة؟".

هززت رأسي. "ليس تماماً. لا يمكنك الاستغناء عن بعض الأشياء".

ابتسمت. "اعتنِ بنفسك".

"وأنت أيضاً".

شاهدتها تعود أدراجها على الطريق وتختفي عند الناصية. أعتقد أحياناً أن التعلق والنسيان أمرٌ واحد.

حملت معطفي، تأكدت من أن قارورة المشروب الصغيرة لا زالت في الجيب وخرجت من الباب.

لفحني هواء أكتوبر البارد، وقرص وجنتيّ. ركبت سيارتي ممتناً، وشغلت المكيف على أعلى حرارة. بدأ الجو في الداخل يصبح فاتراً حين وصلت إلى المحرقة.

أكره الجنائز. من لا يفعل ذلك؟ عدا متعهدي الدفن؟ ولكن بعضها أسوأ من غيرها. الشباب، الذين سلبت حياتهم بسرعة وبعنف، الأطفال. لا يجب على أي أحد أبداً أن يرى تابوتاً بحجم لعبة أطفال ينزل إلى حفرة الظلام.

يبدو موت البعض محتوماً. بالطبع كان موت غوين مفاجئاً. ولكن مثل والدي، حين يودعك ذهنك، في مرحلة ما، لا بد للجسد أن يلحق به دون شك.

لم يكن المعزون كثراً، عرف كثيرون غوين، ولكنها لم تملك أصدقاء كثراً. والدتي هنا، غاف وشيريل، بعض الأشخاص الذين كانت تنظف لهم. شقيق هوبو الأكبر لي لم يستطع - أو لم يحاول - أخذ إجازة. جلس هوبو في المقدمة، مرتدياً معطفاً صوفياً بدا أن مقاسه كبير عليه، ذراعه في حمالة ذات مظهر صناعي. فقد بعض الوزن وبدا أكبر سناً. لم يكن قد مضى على مغادرته المستشفى سوى أيام قليلة ولا زال عليه العودة للعلاج الفيزيائي.

جلس غاف في كرسيه المدولب بالقرب من شيريل التي جلست على الكرسي الخشبي في الجهة الأخرى. أما أنا فجلست خلفهما بالقرب من أمي. وأنا أجلس، أمسكت يدي كما كانت تفعل وأنا صغير، أخذتها وأمسكتها بشدة.

كانت المراسم مختصرة، وكان ذلك مريحاً وتذكيراً بكيف يمكن اختصار سبعين عاماً على هذا الكوكب بعشر دقائق.

على الأقل في جنازة الحرق حين تغلق هذه الستائر ينتهي الأمر. دون مشي بطيء في الخارج إلى باحة الكنيسة. دون مشاهدة التابوت وهو ينزل في القبر المفتوح. لا زلت أذكر كل ذلك جيداً من جنازة شون.

بدلاً من ذلك، خرجنا جميعاً ووقفنا في الحديقة، نتأمل الزهور ونشعر بالغرابة. سيقيم غاف وشيريل لقاء ما بعد الجنازة في حانة *ذا بول*، ولكن لا أعتقد أن أياً منا يريد الذهاب حقاً.

تحدثت مع غاف قليلاً ثم تركت أمي تتحدث مع شيريل وتسللت كي أدخن سيجارة وأرتشف من قارورتي الصغيرة ولأبتعد عن الناس أيضاً.

خطرت الفكر ذاتها لأحد آخر.

كان هوبو واقفاً بالقرب من صف صغير من شواهد القبور التي تشير إلى أين تم دفن الرماد أو نثره. لطالما ظننت أن شواهد القبور في حديقة محرقة تبدو مثل نسخ مقلصة عن المقابر الحقيقية: مجسم مقبرة صغير.

نظر هوبو إلى الأعلى بينما كنت أقترب منه: "مرحبا؟"

"كيف حالك، أم أن هذا سؤال غبي؟".

"أنا على ما يرام. أعتقد. مع أنني علمت أن هذا سيحصل. ولكن لا يكون المرء مستعداَ حقاً".

لا. لا أحد منا مستعد تماماً للموت. لشيء محدود مثله. إننا كبشر معتادون على التحكم بحياتنا. لنطيلها إلى حد معين. ولكن لا يسمح الموت بالجدال. لا ذريعة أخيرة. لا مناشدة. الموت هو الموت، وهو يملك جميع الأوراق الرابحة. حتى لو خدعته مرة، لن يدعك تلوذ بالفرار مرة ثانية.

قال هوبو: "هل تعلم ما هو الشيء الأسوأ؟ جزءٌ مني مرتاح لأنها توفيت".

"هكذا شعرت حين توفي والدي. لا تشعر بالسوء حيال الأمر. أنت لست مسروراً لأنها توفيت. أنت مسرورٌ لأن المرض انتهى". حملت قارورتي وعرضتها عليه. تردد، ثم قبلها وأخذ رشفة.

سألته: "كيف حال ذراعك؟"

"ما زلت لا أشعر بها كثيراً، ولكن الأطباء قالوا إن الأمر سيستغرق بعض الوقت".

بالطبع. نحن نمنح أنفسنا الوقت دوماً. ثم في أحد الأيام، لا يعود هناك من وقت.

أعاد القارورة لي. مع أنني شعرت بانكماش في الداخل، أشرت لــه كــي يشرب المزيد. أخذ رشفة أخرى وأشعلت سيجارتي.

سأل: "ماذا عنك؟ هل أنت مستعد للانتقال الكبير إلى مانشستر؟".

أخطط أن أعمل كمدرس بديل لفترة. تبدو مانشستر على بعــد مســافة مناسبة للذهاب والتفكير بالأمور. الكثير من الأمور.

قلت: "على وشك. مع أنني أشعر أن الأطفال سينهشونني حياً".

"ماذا عن كلوي؟".

"لن تأتي".

"ظننت أنكما...؟".

هززت رأسي. "ظننت أنه من الأفضل أن نبقى أصدقاء فقط".

"حقاً؟".

"حقاً".

بالرغم من أنه قد يكون لطيفاً أن أتخيلني وكلوي في علاقة من نوعٍ ما، إلا أن الواقع هو أنها لا تراني بتلك الطريقة. لن تفعل أبداً. أنا لست نوعها المفضل، وهي ليست بشخصٍ مناسب لي. علاوةً على ذلك، بعد أن اكتشفت أنها شقيقة نيكي الصغيرة، يبدو الأمر خاطئاً. عليهما أن يوطدا علاقتيهما. لا أريد أن أكون من يفرقهما مجدداً. قلت: "على أية حال، ربما سألتقي بفتاة شمالية لطيفة".

"حصلت أشياء أغرب".

"أليست هذه الحقيقة؟"

كان هنالك صمت. هذه المرة، حين عرض عليّ هوبو استرجاع القارورة، أخذتها.

قال: "أعتقد أن كل شيءٍ انتهى" وأنا أعرف أنه لا يعــني فقــط رجــال الطباشير.

"أعتقد ذلك".

مع أنه لا يزال هنالك ثغرات في الحبكة. نهايات طليقة.

"لا تبدو مقتنعاً بذلك".

هززت كتفي. "لا يزال هنالك أشياء لم أفهمها".

"مثل؟".

"ألا تتساءل أبداً من سمم مورفي؟ لم يكن ذلك منطقياً. أنا شبه متأكد أن ميكي من أطلقه ذاك اليوم. على الأرجح لأنه أراد أن يجرحك مثلما كان مجروحاً. وأن الرسمة التي وجدتها كانت على الأغلب من فعل ميكي أيضاً. ولكن ما زلت غير مقتنع أن ميكي قتل مورفي. هل تظن ذلك؟".

أخذ وقتاً طويلاً للرد. للحظة، ظننت أنه لن يفعل. ثم قال: "لم يفعلها. لم يفعلها أحد. ليس عن قصد".

حدقت إليه: "لم أفهم".

نظر إلى القارورة. أعطيته إياها مجدداً. أنهاها.

"كانت أمي قد بدأت تضطرب ذهنياً نوعاً ما، حتى حينها. كانت تضيع الأشياء أو تضعها في مكانٍ خاطئ تماماً، رأيتها مرة تسكب حبوب الفطور في كأس قهوة وتصب فوقها الماء المغلية".

هذا يبدو مألوفاً.

"في أحد الأيام، بعد قرابة عام من موت مورفي، عدت إلى المنزل وكانت تصنع العشاء لبادي. وضعت بعض الطعام الرطب في وعاء وكانت تضيف شيئاً من علبةٍ أخرجتها من الخزانة. ظننت أنه الطعام المجفف. ثم أدركت أنه كان قاتل البزاقات. أخطأت بين العلب".

"تباً".

"نعم. أوقفتها من إعطائه الطعام في الوقت المناسب، وأعتقد أننا تمازحنا حول الأمر. ولكني فكرت حينها: ماذا لو فعلت الأمر ذاته من قبل، مع مورفي؟"

فكرت بالأمر. لم يكن خطأً متعمداً. ولكنه خطأ رهيب للغاية.

لا تفترض شيئاً، إيدي. شك في كل شيء. انظر دوماً إلى ما وراء الأشياء الواضحة.

ضحكت. لم أستطع تمالك نفسي. "كل هذا الوقت، ونحن مخطئون. مجدداً".

"أنا آسف أني لم أخبرك من قبل".

"لماذا؟".

"حسناً، حصلت الآن على إجابتك".

"إحدى إجاباتي".

"هل هنالك أمرٌ آخر؟".

سحبت من سيجارتي بعمق. "الحفلة، ليلة الحادث. قال ميكي إن أحداً ما قد أضاف الكحول إلى مشروبه؟".

"لطالما كان ميكي كاذباً".

"ليس ذاك الأمر. لكنه لم يشرب ويقود السيارة أبداً. كان يحب تلك السيارة. لن يخاطر بتحطيمها".

"إذن؟".

"أعتقد أن هنالك من أضاف الكحول إلى مشروبه حقاً تلك الليلة. أحد ما أراده أن يتعرض لحادث. أحدٌ ما كرهه كثيراً. ولكن لم يعتقد ذلك الشخص أن غاف سيكون في السيارة أيضاً".

"لا بد أن أحداً كهذا صديق سيئ جداً".

"لا أعتقد أن هذا الشخص كان صديقاً لميكي. لا حينها ولا الآن".

"ماذا تعني؟".

"رأيت ميكي حين وصل أندربوري. في اليوم الأول. أخبرت غاف أنه تكلم معك".

"إذن؟".

"الكل افترضوا أن ميكي ذهب إلى الحديقة في تلك الليلة لأنه كان ثملاً، وكان يفكر بشقيقه الميت، ولكن لا أظن ذلك. أعتقد أنه نوى أن يذهب إلى هنالك للقاء أحد ما".

"نعم، التقى بالسارقين المراهقين".

هززت رأسي. "لم يتم اتهامهما. ليس هنالك دليل كافٍ. كما أنهما نفيا وجودهما في الحديقة تلك الليلة.

فكّر بالأمر. "إذن ربما كان ما قلته في البداية صحيحاً - كان ميكي ثملاً، فوقع".

أومأت برأسي. "لأنه 'ليس هنالك أنوار على طول ذلك الطريق' هذا ما قلته حين أخبرتك أن ميكي وقع في النهر وغرق. أليس كذلك؟"

"صحيح".

انقبض قلبي، قليلاً.

"كيف عرفت أين وقع ميكي؟ إن لم تكن هنالك؟".

تغيرت تعابير وجهه. "لماذا سأقتل ميكي؟"

"اكتشف في النهاية أنك أنت من تسبب بالحادث؟ كان سيخبر غاف، وسيفصح عن كل شيء؟ أنت تعلم". حدق إليّ لفترة من الزمن كانت أطول من اللازم. ثم أعاد القارورة وضغطها بقوة على صدري.

"في بعض الأحيان يا إيد... من الأفضل ألا تعرف جميع الأجوبة".

بعد أسبوعين

غريبٌ كم تبدو حياتك صغيرة حين تتركها خلف ظهرك.

بعد اثنين وأربعين عاماً، تخيلت أن مساحتي على الأرض ستكون أكبر، وأن ما غيرته في الزمن سيكون أكبر. ولكن لا، تماماً مثل كل البقية، معظم حياتي - الجزء المادي على الأقل منها - يمكن أن يتسع في شاحنة نقل كبيرة واحدة.

شاهدت الأبواب تنغلق، وآخر ممتلكاتي المادية توضع في صندوق ويكتب عليه ما فيه ويوضع في الداخل. تقريباً آخرها.

ابتسمت لرجال النقل آملاً أن تكون لفتة مرحة وودية. "انتهينا إذن؟".

قال الرجل الأكبر سناً، الذي يبدو أكثر تعباً من بقية الفريق: "نعم، انتهينا".

"جيد... جيد".

نظرت مجدداً إلى المنزل. لافتة "مباع" تحدق إليّ وتوجه لي أصابع الاتهام، كأنها تقول لي إنني فشلت بطريقةٍ ما، هزيمة معلنة. ظننت أن أمي ستكون أقل سروراً ببيعي للمنزل، ولكنني شعرت في الواقع أنها ارتاحت. كانت مصرة على عدم أخذ قرش من الأرباح.

"ستحتاج إلى المال يا إيد. هيئ نفسك. بداية جديدة. كلنا نحتاج بدايات جديدة أحياناً".

رفعت يدي بينما كانت شاحنة النقل تبتعد. استأجرت شقة ذات غرفة نوم واحدة، معظم أغراضي ستوضع في التخزين. دخلت المنزل ببطء.

بنفس الطريقة التي تبدو فيها حياتي أصغر الآن بعد أخذ ممتلكاتي بعيداً، بدا المنزل أكبر دون شك. تجولت بلا هدف قليلاً في الرواق، ثم صعدت السلالم إلى غرفتي.

هنالك بقعة أغمق على الأرض، تحت النافذة، حيث كنت أبقي صندوقي. مشيت إليها وركعت وأخذت مفك براغي صغير من جيبي. وضعته تحت لوح الأرضية المرخي ورفعته. بقي في الداخل غرضان فقط.

حملت الأول بحذر: علبة بلاستيكية كبيرة. تحتها الغرض الثاني: حقيبة قماشية قديمة. اشترتها أمي لي بعد أن فقدت حقيبتي في المعرض. هل ذكرت ذلك؟ أعجبتني الحقيبة القماشية. كان عليها صورة لشخصيات سلاحف النينجا وكانت أروع وأكثر عملية من الحقيبة القديمة. أفضل لجمع الأشياء أيضاً.

كنت أحملها حين قدت دراجتي إلى الغابة في ذلك الصباح المشمس والمرير... وحيداً. لست متأكداً لماذا. كان الوقت مبكراً كثيراً و لم أكن أذهب لوحدي عادةً إلى الغابة. وتحديداً في فصل الشتاء. ربما كان لدي حدس. في النهاية، لا تعرف متى يمكن أن تجد شيئاً مثيراً للاهتمام.

وذاك الصباح، وجدت شيئاً مثيراً جداً للاهتمام. تعثرت حرفياً باليد. بعد أن هدأ وقع الصدمة، وبعد قليل من البحث، وجدت قدمها. ثم اليد اليسرى، الساقان. الجذع. وفي النهاية، أهم جزء من الجسد البشري؛ رأسها.

كان على كومة صغيرة من أوراق الأشجار، كان يحدق بمظلة الأغصان. تخللت أشعة الشمس الأغصان العارية. كان مغطى ببقع ذهبية على الأرض المشجرة. ركعت بالقرب منه. ثم مددت يدي - التي كانت ترتجف من الترقب قليلاً - لمست شعرها وأزلته عن وجهها. لم تعد الندبات تبدو مخيفة بعد الآن. بنفس الطريقة التي خففها فيها السيد هالوران بضربات ريشته، خففها الموت بلمسة يده العظمية الباردة. بدت جميلةً مجدداً. ولكن حزينة وتائهة.

مررت أصابعي على وجهها، ثم، من دون تفكير، حملت الرأس. كان أثقل مما توقعت. والآن بعد أن لمسته، اكتشفت أنه لا يمكنني إفلاته. لم يكن في وسعي تركه هنالك، مرمياً بين الأوراق. لم يجعلها الموت جميلة مجدداً فحسب، بل جعلها مميزة. وكنت الشخص الوحيد الذي يمكنه رؤية ذلك. الشخص الوحيد الذي يمكنه التشبث بذلك.

بلطف وإجلال، نفضت بعض الأورق ووضعتها في الحقيبة. كان الرأس دافئاً وجافاً ولم يكن عليه التحديق بالشمس بعد الآن. لم أرد أن يحدق إلى الظلام أيضاً، أو أن تدخل قطع الطباشير في عينيها. لذا مددت يدي وأغلقت عينيها.

قبل أن أغادر الغابة، أمسكت قطعة من الطباشير ورسمت إشارات تقود إلى جثتها، لتجدها الشرطة. لكيلا يبقى ما تبقى منها ضائعاً لوقت طويل.

لم يتحدث معي أحد أو يوقفني وأنا عائد. ربما لو فعلوا، لكنت اعترفت. ولكنني وصلت إلى المنزل، حملت الحقيبة التي تحوي ملكيتي الجديدة وخبأتها تحت الألواح في الأرض.

بالطبع كان هنالك مشكلة. علمت أنه عليّ أن أخبر الشرطة على الفور بخصوص الجثة. ولكن ماذا لو سألوني عن رأسها؟ لم أكن كاذباً جيداً. ماذا لو خمنوا أنني أخذته؟ ماذا لو أرسلوني إلى السجن؟

خطرت لي فكرة. أخذت علبة الطباشير خاصتي ورسمت رجال طباشير، لهوبو وغاف السمين وميكي. ولكني خلطت الألوان لتصبح الأمور محيرة. لكي لا يعلم أحد أنني من رسمها.

رسمت رجل طباشير لي وتظاهرت - حتى أمام نفسي - أنني استيقظت لتوي ووجدته. ثم قدت دراجتي إلى الحديقة.

كان ميكي هنالك بالفعل. تبعه الآخرون. مثلما توقعت أنهم سيفعلون.

فتحت غطاء العلبة وحدقت إلى الداخل. محجرا عينيها الفارغتان يحدقان إليّ. كان هنالك بضع خصل من الشعر الجاف، دقيقة مثل حلوى غزل البنات، ملتصقة بالجمجمة المصفرة. إن نظرت عن كثب، لا يزال يمكنك رؤية الأخاديد الصغيرة على عظمة وجنتها حيث مزقتها قطعة المعدن من لعبة والتزر واخترقت لحمها.

لم تكن راقدة هنا طوال الوقت. بعد عدة أسابيع، أصبحت الرائحة في غرفتي غير محتملة. غرف الصبية المراهقون ذات رائحة سيئة، ولكن ليست بهذا السوء. حفرت حفرة في النهاية البعيدة من حديقتنا وأبقيتها هنالك لعدة أشهر. ولكنني أعدتها. لأبقيها قريبة. لأبقيها في أمان.

مددت يدي لألمسها مرة أخيرة. لكني نظرت إلى ساعتي. أغلقت الغطاء دون حماس، وضعت العلبة في الحقيبة القماشية ونزلت إلى الطابق السفلي.

وضعت الحقيبة في صندوق سيارتي، ووضعت عدة معاطف وأكياس أخرى فوقها. لا أتوقع ان يوقفني أحد ويسألني عن محتويات سيارتي، ولكن لا أحد يعلم. قد يكون الأمر محرجاً.

كنت على وشك الجلوس في مقعد السائق حين تذكرت مفاتيح المنزل. يملك الوكيل العقاري نسخة عنها ولكن أردت أن أعطي نسختي للملاك الجدد قبل أن أغادر. عبرت ممر السيارة عائداً، أخذت المفاتيح ووضعتها في الفتحة...

توقفت. الفتحة...؟

حاولت أن أتذكر الكلمة، ولكن كلما حاولت، كانت تضيع في النسيان أكثر. الفتحة...؟ الفتحة اللعينة؟

تخيلت والدي يحدق إلى مقبض الباب، غير قادر على تذكر تلك الكلمة الواضحة والمحيرة، ووجهه يعبر عن الإحباط والارتباك. *فكر إيد، فكر.*

ثم تذكرت. فتحة... *الرسائل*. نعم. هززت رأسي. كم أنا غبي. ذعرت. أنا فقط متعب ومتوتر بسبب الانتقال. كل شيء على ما يرام. أنا لست والدي.

أقحمت المفاتيح في الباب، سمعتها تقع على الأرض وتصدر صوتاً، ثم مشيت إلى سيارتي وركبتها.

فتحة *الرسائل*. بالطبع.

أدرت المحرك وقدت بعيداً... نحو مانشستر، نحو مستقبلي.

بين عامي 2006-2016 تغيرت حياة خمسة أطفال بشكل مأساوي. فأحدهم أصيب بالشلل، وشقيق الآخر قتل، وصديقتهم الوحيدة أصبح والدها نزيل دار الرعاية العقلية بعد تعرّضه لاعتداء دمويّ عليه، أضف إلى ذلك العثور على جثة فتاة مقطعة الأوصال ومفقودة الرأس، هل لقدوم المدرس السيد هالوران علاقة في ما يحصل؟ أم لداء الزهايمر يد في الأمر؟

أخطاء بسيطة تقود إلى نتائج وخيمة.

أخوان يموتان في المكان نفسه وبالطريقة نفسها بفارق ثلاثين سنة، وقاتل يخدع الجميع؛ حتى إنه يخدع نفسه فيقتل الضحية الخطأ.

كل ذلك يجتمع في رواية «رجل الطبشور» ليولد حبكة مشوقة جداً لا تنكشف إلا في الصفحات وربما الأسطر الأخيرة.

والنهاية صادمة بكل ما للكلمة من معنى.